رأسه ، حتى صارتا كأنهما جمرتان ، وقال لى : يابن اللخناء ، أردت أن تشهرنى بهذا المجلس ، فيقول الناس : أطربه فحكمه ، فجعلنى سمراً وحديثاً ، ثم أحضر إبراهيم بن ذكوان ، فلما حضر ، قال له يا إبراهيم ، خذ بيد هذا الجاهل ، فأدخله بيت المال [1] ، فإن أخذ كل ما فيه فخله وإياه ، فدخلت فأخذت خمسين ألف دينار .

أيام هارون الرشيد

ولما تقلد هارون الخلافة دعى يحيى بن خالد ، وكان يخاطبه بالأبوة ، وعلى ذلك أجراه فى خلافته ، فقال له . يا أبة ، أنت أجلستنى هذا المجلس ببركة رأيك ، وحسن تدبيرك ، وقد قلدتك أمر الرعية ، وأخرجته من عنقى إليك ، فاحكم بما ترى ، واستعمل من شئت ، واعزل من رأيت ، وافرض من رأيت ، وأسقط من رأيت ، فانى غير ناظر معك فى شئ . فكان يحيى وابناه الفضل وجعفر يجلسون للناس جلوساً عاما فى كل يوم إلى انتصاف النهار ، ينظرون فى أمور الناس وحوائجهم لا يحجب أحد ، ولا يبقى لهم ستر . وقام يحيى بالأمور ، وكان يعرض على الخيزران ، ويورد ويصدرعن أمرها ، واحتفر القاطول ، واستخرج نهرا سماه أبا الجبل [2] ، وأنفق عليه عشرين ألف ألف درهم

وقلد ثابت بن موسى ديوان العراقين وخراج الشام ، وأمر بإجراء القمح على أهل الحرمين ، وتقدم بحمله من مصر إليهم ، وأجرى على المهاجرين والأنصار ، وعلى وجوه أهل الأمصار ، وعلى أهل الدين والآداب والمروءات . واتخذ كتاتيب لليتامى . وكانت الدواوين كلها إلى يحيى بن خالد مع الوزارة سوى ديوان الخاتم ، فانه كان إلى أبى العباس الطوسى .

---

١) كتب فى الهامش : بيت مال الخاصة ٢) هكذا الأصل ويحتمل أن تكون أبا الجبل أو أبا الخيل ويذكر ياقوت أبا الجند ويقول هو قصر بناه الرشيد على القاطول

وكان يحيى أول من أُمِّر من الوزراء ، وكان أول من زاد في الكتب : « وأسأله أن يصلى على محمد عبده ورسوله » وأنشأ فى ذلك كتابا ، وذكر فيه فضل الأنبياء عليهم السلام .

وكان الرشيد ساخطا على ابراهيم بن ذكوان الحرانى . فحبسه وقبض أمواله ، فحبسه يحيى فى داره ، وكفه عنه . وتلطف إلى أن استكتبه لمحمد ابن سليمان بن أبى جعفر ، وكان يلى البصرة فأشخصه .

وأمرت الخيزران أن يقتل من كان تسرع إلى خلع الرشيد ، ودعا إلى بيعة جعفر بن الهادى ، فقال لها يحيى : أو خير من ذلكِ ؟ قالت . وما هو ؟ قال : يرمى بهم فى نحور الأعداء ، فان دفعوا عن أنفسهم كان لهم فى الدفع عنها شغل ، وإن أصابهم العدو كنتِ قد استرحت منهم ، فأذنت له فى ذلك ، فتخلص القوم جميعا

وكانت الكتب التى تنفذ من ديوان الخراج تؤرخ باسم يحيى بن خالد ، ولم تكن تنفذ إلا عن الخليفة

وكان أبو العباس الطوسى يتعقد فى ختم الكتب ، فشكا يحيى إلى الرشيد تأخرَ الكتب ، فأمره أن يكاتب العمال عن نفسه ، وامر كاتبه أن يكتب عنه فى المهم ، وأن يؤرخ الكتب باسم الكاتب .

قال الفضل بن مروان : وأحسب الكاتبَ كان منصورَ بن زياد ، وقرَّب يحيى بن خالد منصورَ بنَ زياد هذا واختصه ، حتى كان الناس ربما توسلوا به فى حوائجهم .

وكان من كتابه يوسف بن سليمان ، وأبو صالح يحيى بن عبد الرحمن ، ويحيى بن سليمان ، ومحمد بن أعين ، وعبد الله بن عبدة .

وحكى أن أصحاب الحوائج كانوا يكثرون القعود على دكان ، على باب يحيى بن خالد ، وكان يحيى إذا رآهم وقف عليهم ، ولقيهم ببشر وطلاقة .

وأنه خرج يوما مبكرا ، فلم ير منهم أحدا ، فأنشد متمثلا :

وليس أخو الحاجات من بات نائما ... ولكن أخوها من يبيت على وجل

وكان يحيى بن خالد يقول : العجب للسلطان كيف يحسن ! ولو أساء كلّ الإساءة لوجد من يزكيه ، ويشهد بأنه محسن .

وكتب جعفر بن محمد بن الأشعث إلى يحيى بن خالد يستعفيه من العمل ، فقال فى كتابه « شكرى لك على إخراجى مما أحب الخروج منه ، شكرُ من نال الدخول فيه بك »

وطالب يحيى أبا عُبيد الله معاويةَ بن عبد الله وزير المهدى بالدخول فى جملته ومشاركته فى نعمته ، وقلده ديوان الرسائل ، وديوان الخاتم ، وديوان الزمام فأبى ذلك ، وقال قد كبرت سنى ، ولا حاجة لى إلى العمل ، فتركه وقال : هذا يظن أن الأمور لا تتمّ إلا به !

وفى يحيى يقول مروان بن أبى حفصة :

إذا بلغتنا العيسُ يحيى بنَ خالد ... أخذنا بحبل اليسر وانقطع العسر

سمت نحوه الأبصارُ منا ودونه ... مفاوزُ تغتال النياقَ بها السفر

فإن نشكر النعمى التى عمّنا بها ... فحقّ علينا ما بقينا له الشكر

وفيه يقول أبو قابوس[1] عمر بن سليمان الحيرىّ :

رأيت يحيى — أتمّ الله نعمته ... عليه — يأتى الذى لم يأته أحد

ينسى الذى كان من معروفه أبداً ... إلى الرجال ، ولا ينسى الذى بعد

وكان يحيى يقول لولده : لابد لكم من كتاب وعمال وأعوان ، فاستعينوا بالأشراف ، وإياكم وسفلةَ الناس ، فإن النعمة على الأشراف أبقى ، وهى بهم أحسن ، والمعروف عندهم أشهر ، والشكر منهم أكثر .

وكان ليحيى ابن يقال له إبراهيم ، وكان جميلا ، وكان يقال له دينار

(1) فى الأصل : ابن قابوس .. الحيرى ، والتصويب عن المرزبانى والجهشيارى فيما يأتى

آل برمك ، فتوفى وسنه تسع عشرة سنة ، ووجد عليه يحيى ، واغتم به ، فقال أبو المنذر العروضى (١) :

ما أرى حامليه حين أقلوا نعشه للثواء أو للقاء

فليقل فيك باكيات ماشئـ ـن صباحا وعند كل مساء

لا يعنفن فى المقال ولكن مسعدات بذاك غير خفاء

كل حى رهن المنون ولكن ليس من مات منهم بسواء

وكان يحيى أحضر مؤدب ابنه هذا ، ومن كان ضم إليه من كتابه وأصحابه ، فقال لهم : ماحال إبراهيم ؟ قالوا قد بلغ من الأدب كذا ، ونظر فى كذا ، وقد اتخذنا له من الضياع كذا ، وبلغت غلته كذا ، قال : ماعن هذا سألت ، إنما سألت : هل اتخذتم له فى أعناق الرجال مننا ، وحببتموه إلى الناس ؟ قالوا : لا ، قال : فبئس العشراء أنتم ! وهو إلى هذا أحوج مما فعلتم ، وتقدم بحمل خمسمائة ألف درهم ، وأمر بتفريقها فى الناس .

حدثنى عبد الواحد بن محمد ، قال حدثنى ميمون بن هارون قال : حدثنى إسحق بن إبراهيم الموصلى : عن أبيه ، قال :

كتب إلى وكيلى فى الضيعة الفلانية ، فى أمر ضيعة كانت تجاور ضيعتى تباع قد انقطع أمرها على أربعة آلاف دينار ، وقد سألت صاحبها الانتظار على إلى ورود جواب كتابى ، فإن أنت وجهت بالمال ، وإلا خرجت الضيعة عن يدك ، وورد على الكتاب فى الليلة التى صبحتها نوبتى فى بيتى ، وكانت نوبة يحيى ابن خالد فى بيته ؛ إلا أنه كانت عادتى ألا أبرح فى ذلك اليوم من بيتى . وورد على ما أسهرنى ، لأن المال لم يكن معى ، ولم أكن أقدر على احتياله فى ذلك الوقت القريب . فضربت الأرض ظهرا لبطن ، فلم أجد غير يحيى . فركبت إليه ، واستأذن لى الحاجب ، فدخلت وفى يده المسواك . فلما رآنى سر وابتهج ،

١) فى الأغانى ج ٥ ص ١٠١ : ابن المنذر

وقال أحسنت والله ، أحسنت والله ، اليوم نوبتى و نوبتك ، فنأخذ فى أمرنا ، لا يدخل معنا غيرنا ، فقلت ياسيدى ، الحمد لله الذى وفقنى لمحبتك . ولكنى والله بكرت لغير ذاك . قال وما هو ؟ قلت : كتب إلى وكيلى البارحة بكذا وكذا . ولا والله إن أقدر على المال ، وبكرت أسألك استسلافه لى من بعض المعاملين لترده من تحت يدك فى رزقى ، قال : دعنا الآن من هذا ، وهات ياغلام ماحضر فجئ بالطعام ، فأكلنا وأنا كأنى آكل لحمى ، ثم رفع وجئ بالشراب ، وأنا فى فكرى ، فلما كان وقت العصر وأنا قد يئست ، وعلمت أن الحيلة قد فاتت ، وأنى أحتاج أن أحضر فى غد الدار ، قال لى : إبراهيم . أعندك صبية تغنى ؟ قلت : لا والله ياسيدى . قال : ولا لبعض الجوارى والأهل ؟ قلت : لا . ثم ذكرت صبية لبعض أمهات أولادى كما[1] وضعت يدها على العود إلا أنها مطبوعة ، ولما حايق ، فقلت صبية ريّض ، وليست بشئ ، ووصفتها له ، وحقرتها عنده . قال : لا تبال ، هوذا يذكر إليك من يطلبها منك ، فإياك وإياك أن تنقصها من مائة ألف دينار ، قلت : ياسيدى ، إنما قيمتها مائتا دينار ، قال لى : لو انها تساوى درهما لا تنقصها من مائة ألف دينار ، وإياك وإياك [أن] تنقص من ذلك شيئا ، قال فقلت فى نفسى : هذا رجل قد غلب عليه النبيذ ، ولم يكن لحاجتى عنده موضع ، فهو يسخر منى . فانصرفت مكروبا ، وغلب على السهر إلى وقت الصبح ، فهومت قليلا ثم قمت للصلاة ، وقد كنت استظهرت بأن ابتعت الصبية عند منصرفى من مولاتها بمائتى دينار ، وقلت الغلام لما صليت هو ذا أنام ، فكل من جاء فاصرفه عنى ، إلا أن يجىء رجل من قصته كذا ، وقد كان يحيى وصفه ، فأنبهنى له ويئست من الضيعة ، وأخرجتها عن قلبى ، فما طلعت الشمس جدا حتى انبهنى الغلام ، وقال قد جاء الرجل ، فأذنت له ، وطلب الجارية ، فأخرجتها ، وساومنى ، فاستمت مائة ألف دينار ، فاستكثر ذلك ، وأعطانى

---

١) أى أنها لم تتقدم فى المعرفة بالعود شيئا

بثلاثين ألف دينار ، وأنا لست أصدّق ، ثم لم يزل يزيدنى حتى بلغ خمسين ألف دينار : فقلت أحضر المال ، فقال ها هو ذا ، فحمله إلى وتسلم الجارية فقلت المال ، فأخرجت أربعة آلاف دينار ، ووجهت بها إلى الوكيل ، وتركته على حاله ، وقلت لا بد للرجل من أن يرجع يستردّه ، ويرد الجارية ، ولكن تحصل ثمن الضيعة ، ويقع النظر فيه ، وركبت إلى دار السلطان ، فأقمت إلى الليل وانصرفت ، فسألت عن الرجل ، فقيل لى لم يرجع ، فحمدت الله ، وبكرت إلى يحيى فشكرته ، فلما رآنى قال هات حديثك ، فحدثته ، فقال إنا لله ! أى شىء عملت ؟ ذهبت منك خمسون ألف دينار ! ثم أسرّ إلى الغلام ، فمضى وجاء ومعه الجارية ، فقال أتعرف هذه ؟ فقلت نعم يا سيدى ، هذه التى منّ الله عز وجل بك علىّ فى أمرها ، فقال خذها وهو ذا يجيئك من يطلبها ، فلا تنقصها من خمسين ألف دينار . فأخذت بيدها ، وجاءنى من يطلبها ، فبعتها منه بثلاثين ألف دينار ، وعدت إلى يحيى ، فسألنى وخبرته ، فلامنى أيضا وشكرته ، فقلت استحييت من الله أن آخذ أكثر من هذا ، فأخرج الجارية ومعها كسوة وطيب بألوف دنانير . وقال قد تبرّكت لك بها ، فاتخذها لنفسك ، ففعلت فهى والله أم طياب ولدى

قال : وقلت ما قصة هؤلاء مع هذه الجارية ؟ قال ويحك ! أما الأول فخليفة صاحب مصر ، وهو مقيم على بابى منذ سنة يسألنى مسألة[1] أمير المؤمنين فى حاجة بمائة ألف دينار ، وأنا لا أسأله ، فلما شكوت إلىّ ما شكوت ، قلت له : صبية عند إبراهيم ، اشترها لى منه . ولو أتيت عليه إلى مائة ألف دينار لوزنها لك ، ولكنك ضيعت ، وأما الثانى فخليفة صاحب فارس وقصته قصة الأول . فدعوت له ، وشكرته وانصرفت .

وحكى يحيى بن خاقان ، قال : كنت يوما عند يحيى بن خالد ، وبحضرته

---

١) فى الأصل مسألة والصواب ما أثبتناه

ابنه الفضل ، إذ دخل قوم مسلّمون ، ودخل فيهم أحمد بن يزيد المعروف بابن أبى خالد ، فسلم وخرج ، فقال يحيى لابنه الفضل : لى فى أمر هذا الرجل خبر، فإذا فرغنا من شغلنا فذكرنى لأعرّفكه ، ثم فرغ من عمله ، وغسل يده ، ودعا بطعامه ، فلما أكل صدراً منه ، أذكره الفضل ما كان وعده أن يخبره به ، فقال له : نعم ، كانت العطلة قد بلغت من أبى رحمه الله ومنى ، وتوالت المحن علينا ، وأخفقنا حتى لم نهتد إلى ما ننفقه ، فلبست ثيابى لأركب ، وأتنسم الأخبار ، وأتفرّج ، فقالت لى أهلى : أراك على نية الركوب ، قلت نعم ، قالت فاعلم أن هؤلاء الصبيان باتوا البارحة بأسوإ حال ، وأنى مازلت أعللهم بما لا علالة فيه ، وما أصبحت ولهم شىء ، ولا لدابتك علف ، ولا لك ماتأكله ، إذا انصرفت. فينبغى أن يكون ركوبك وطلبك بحسب هذه الحال . ففزّعت قلبى ، وقطعتنى عن الحركة

ورميت بطرفى ، فلم أر شيئا أمدّ إليه يدا ، ورميت بوهمى ، فلم يقع إلا على منديل طبرى ، كان بعض الداريّين أهداه لى ، فقلت لأهلى مافعل المنديل الطبرى ، الذى كان أهدى إلينا ؟ قالت ها هوذا ، فأحضرته ، فأخذته وخرجت إلى الغلام ، وهو مع دابتى ، فأمرته بإدخال الدابة ، وقلت له اخرج إلى الشارع ، فبع هذا المنديل ، وأقبل بثمنه . فمضى وعاد من ساعته ، فقال خرجت إلى البقال الذى يعاملنا ، وعنده رجل يصرف دراهم ، فأعطانى اثنى عشر درهما صحاحا ، ورأى صاحبنا البقال أن أبيعه منه بشرط ، وقد حضرت الدراهم ، فإن أمضيت البيع ، وإلا أخرجت المنديل إلى سوق قنطرة البرَدَان ، فاستقصيت فيه وبعته

فأمرته بإمضاء البيع ، لحاجتى إلى الغلام ، والحال التى عليها الصبيان ، وما حدثتنى به المرأة ، وأمرته أن يشترى علفا للدابة ، وما يحتاج إليه الصبيان فى ذلك اليوم ، وركبت لا أدرى أين أقصد ، فأنا فى الشارع إذا أنا بين يد

أن هنا ، وهو خارج من درب ، ومعه موكب ضخم ، وهو يكتب يومئذ لأبى عبيد الله كاتب المهدى ، فقلت إليه ، ورميت نفسى عليه ، وقلت قد تناهت الحالة بأخيك وبى إلى مالا نهاية وراءه ، وإلى ما أُجلك عن ذكره مع ماتوجبه لنا . فما أقصر قولى (١) ولا أطيله ، علىّ وعلىّ إن لم تكن قصتى فى يومى كيت وكيت . وقصصت الخبر ، وخبر المنديل ، وهو مستمع لذلك ، ماض على سيره حتى بلغ مقصده ، وانصرفت عنه ، ولم يقل لى حرفا . فانصرفت منكسف البال منكسراً ، منكرا على نفسى إسرافى فى الشكوى ، وإطلاعى إياه على ما أطلعته عليه من أمرى ، فقلت مازدتُ على أن هجوت نفسى وقللتها فى عينه من غير نفع ، ولو صبرت لأتى الله بما هو أهله . قال ووافيت إلى منزلى على حال أنكرتها أهلى من الفكر ، فقالت لى ماحالك ، وما قصتك ؟ فقلت لها جنيت اليوم جناية كنت عنها غنياً . فقالت لى وما هى ؟ قلت لقيت يزيد الأحول الكاتب فقلت له كيت وكيت ، فمضى فلم يجبنى بحرف . فذممت نفسى على خنوعها وبثها حالها إلى من لا ينفعها . قال فأقبلت علىَّ توبخنى وتقول : ما حملك على ما فعلت . ولئن أظهرت الرجل من ذلك ما أظهرت ! فإن أقل ما فى ذلك ألا يأتمنك على شيء . فإن من تناهت به الحال إلى مثل ما ذكرت كان غير مأمون على ما يؤتمن عليه ، ويجعل إليه . فنالنى من توبيخها وعذلها أضعافُ ما نالنى أولا .

وأصبحنا فى اليوم الثانى ، فوجهت أحد ثوبىّ ، فبعنا . وتبلغنا به ذلك اليوم وفى اليوم الثالث ، فلما كان فى اليوم الرابع . وقد ضاقت نفسى ، وغلبنى الفكر ، وعاتبتنى على ذلك أهلى . وقالت لى أنا خائفة عليك مما أرى الوَسواس فيكون ما نحتاج إليه لعلاجك ، أضعاف ما نحتاج إليه لمؤونتنا ، فسهل عليك فإن الله الصانع .

فركبت فى ذلك اليوم لا أدرى أين أقصد ، إلا أننى أؤم الجسر ،

---

(١) فى الأصل قولا وما أثبته هو الأصح عربية

ثم أنصرف ، لأُبلى عذرا فى الطلب عند أهلى ؛ فلما صرت إلى قنطرة البَرَدان ، لقينى لاقٍ ، فقال : قد رأيت فى يومنا هـذا من يطلبك ، ثم لم ألبث أن لقينى من خبرنى بمثل ذلك ، فقصدتُ الدار ، لأَعرف الخبر ، فلقينى بالقرب منها رسولٌ ، فقال لى : أبوخالد يطلبك ، وإياك أردتُ ، فدخلت الدار والرسولُ معى ، فألفينا أبا خالد داخلا ، فقال لى حاجبه أمرنا بإحضارك ، وأن ننتظره إلى أن يخرج ، فأقمت ، وخرج مع الزّوال ، ومع غلامه كتب كثيرة ، فقال له : قد حضر يحيى ، فقال هاته ، فقمت ودنوت منه ؛ فقال لى يا بُنىّ أخى شكوتَ إلىّ بالأمس شكوى لم ينفع فى جوابها إلا [ذلك] الفعل ؛ إذ كانت الحال قد تأدّت إلى ما تأدت إليه ، ثم أمر بإحضار أبى جميل وزاهر ، تاجرين كانا يبيعان الطعام ، فأُتى بهما ، فقال قد علمتما أنى بايعتكما البارحة بثلاثين ألف كر ، على أن ابن أخى هذا شريككما فيها بالسعر . ثم التفت إلىّ فقال لك من هذه الأكرار عشرة آلاف كر ، فان دفعا إليك ثلاثين ألف دينار بحك ، وآثرت أن تخرج إليهما من حصتك فعلت ، وإن آثرت أن تقيم على هـذا الابتياع فعلت . فتنحينا ناحية ، فتناظرنا ؛ فقال لى التاجر أنت رجل شريف وابن شريف ، وليست التجارة من شأنك . ومتى أقمت على هـذا الابتياع احتجت إلى كفاة وأعوان ؛ ولكن خذْ منا ثلاثين ألف دينار . وخلنا والطعامَ ؛ فقلت قد فعلت فقمنا إلى أبى خالد[1] فقلت قالا لى كذا وكذا ، وأجبتهما إلى أخذ المال ، فقال صواب ، لو أقمت معهما احتجت إلى تعب ، ولزمتك مؤن ، وكان ذلك أربح لك ، ولكن هذا أروح . فخذ المال ، وتبلغ به والزمنا ؛ فإنا لانقصر فى كل مايمكننا فى أمرك ، فخرجت فأخذت من الرجلين المال ؛ ثلاثين ألف دينار . وما بين ذلك وبين بيع المنديل إلا أربعة أيام ؛ فصرت إلى أبى . فأخبرته الخبر . وقلت له جعلنى الله فداك ! تأمر فى المال بأمرك ، فقال نعم أنا أحكم عليك فى هذا المال

١) فى الأصل ابن أبى خالد والصواب ما ذكرناه

بما حكم به أبو خالد على التاجرين، أى أن لى الثلث، فحملت إليه عشرة آلاف دينار، واشتريت بعشرة آلاف دينار عقدة[1] ولم أزل أنفق الباقى إلى أن أدانى إلى هذه الحال، وإنما حدثتك يابنى هذا، لتعرف للرجل حقه.

فقلت ليحيى بن خاقان: فما كان من يحيى إلى أحمد بن أبى خالد؟ فقال: مازال وولده على غاية البر له والتحريك، حتى نال ما نال من الوزارة، بذلك الأساس الذى أسسوه، وكانت وفاة أبى خالد يزيد الأحول فى سنة ثمان وستين ومائة.

قال إسحاق بن سعد حدثنى أبو حفص بن العتابى قال: كنت أنا ومنصور ابن زياد عند يحيى بن خالد ويحيى يتحدث، قال والخدم يعبثون ويترامون بالبطيخ حتى جاءت بطيخة فأصابت وجهه، فو الله ما تحرك ولا غضب، فقال له منصور أصلحك الله! لو نهى هؤلاء، وأخيفوا حتى لايجترئوا على مثل هذا! فقال اللهم غفراً، نحن نحب أن نؤمن من بعدعنا، فكيف نخيف من كان على بساطنا!

وقلد الرشيد حجابته محمد بن خالد بن برمك فى سنه اثنتين وسبعين ومائة.

وعرض ليحيى بن خالد رجل من أهل الشام، من بنى أمية، فترجل له، فرأى شيخا وسيما، له رُواء وهيئة، فلما عاد إلى مجلسه دعا به، وسأله عن سببه ونسبه، فأخبره أنه رجل من بنى أمية وأن مسألته التى إليها يقصد، وصوله إلى أمير المؤمنين. فقال له: يحيى الصدق أولى بى، أميرُ المؤمنين يستثقل هذا النسب، فانظر ما تلتمسه منه! فألقه إلىّ، فان تكن مظلمة رددتها، وإن تكن صلة بذلناها، وما بين ذلك من الحوائج فغير معتذر إليك من شئ منها.

فقال الرجل الذى سألتُ ما سمعت أيها الوزير. وإنى لأعلم أنكم يا آل برمك معادن الخير. فان سهل أن تذكرنى له، فان أذن فهو ما أردت. وإن رد فقد

---

١) العقدة الضيعة والعقار وكل أرض مخصبة فهى عقدة

قضيت أيها الوزير ما عليك ، وأوجبت على شكرك أخرى الليالى الغوابر.
فذكره يحيى للرشيد ، وخبره بما دار بينهما . فأمره بإيصاله إليه ، فلما وقفت عين الأموى عليه استأذن فى الكلام . فأذن له ، فتكلم وأحسن وأبلغ ثم أنشد:

يا أمين الله إنى قائل   قولَ ذى رأى ودين وأدب
لكم الفضل علينا ولنا   بكم الفضل على كل العرب
عبد شمس كان يتلو هاشماً   وهما بعد لأم ولأب
فصلوا الأرحام منا إنما   عبد شمس عم عبد المطلب

فأحسن الرد عليه ووصله . وأجرى له رزقا فى بلده ورده إليه .

وحدثنا ولد على بن الحسين عنه ، قال حدثنى على بن الجنيد قال : كانت بينى وبين يحيى بن خالد مودة وأنس ، فكنت أعرض عليه الرقاع فى الحوائج ، فكثرت رقاع الناس عندى ، واتصل شغله ، فقصدته يوما ، وقلت له : ياسيدى قد كثرت الرقاع ، وامتلأ خفى وكمى : فاما تطولت بالنظر فيها ، وإما رددتها ، فقال لى : أقم عندى حتى أفعل ما سألت . فأقمت عنده وجمعت الرقاع فى خفى ، وأكلنا وغسلنا أيدينا ، وقمنا إلى النوم ، واستحييت من إذكاره إياها ، ويئست من عرضها ، لأنى قد علمت أننا نقوم ،فنتشاغل بالشرب فنمت ، ودعا هو بالرقاع من خفى ، فوقع فى جميعها ، وردها إليه ، ونام وانتبه فدخلت إليه فى مجلس الشرب ، وقد أعدت آلته فيه ، فلم أستجز ذكر الرقاع له ، وشربت وانصرفت بالعشى ، فبكر إلى أصحاب الرقاع ، لما وقفوا على إقامتى عنده فاعتذرت إليهم ، وضاق صدرى بهم ، فدعوت بالرقاع لأميزها ، وأخفف منها ما ليس بمهم ، فوجدت التوقيعات فى جميعها ، فلم تكن لى همة إلا تفريقها ، والركوب إليه لأشكره ، فلما رأيته قلت : ياسيدى ، قد تفضلت وقضيت حاجتى ، فلم علقت قلبى ، ولم تعرفنى حتى يتكامل سرورى ؟ فقال لى : سبحان الله ! أردت منى أن أمن عليك بأن أخبرك ما لم يكن يجوز أن يخفى عنك

وكان خالد بن برمك ينزل باب الشماسية ، فى الموضع المعروف بسويقة خالد ، وهي إقطاع من المهدى ؛ وبنى يحيى بن خالد قصراً يعرف بقصر الطين ، ثم بنى فيه الفضل بن يحيى وجعفر بن يحيى قصرين ، كانا يعرفان بهما .

وكان يحيى بن خالد يميل إلى الفضل ، والرشيد يميل إلى جعفر ، فكان الرشيد يقول ليحيى كثيراً : أنت للفضل ، وأنا لجعفر ، وغلب جعفر على الرشيد غلبة شديدة ، حتى صار لا يقدّم عليه أحداً ، وأنس به كلّ الأنس ، وأنزله بالخلد ، بالقرب من قصره

وتباعد ما بين الفضل وجعفر ، لأن الفضل كان يلتمس من جعفر أن يعطيه بعد اختصاص الرشيد إياه من نفسه ، مثلَ ما كان يعطيه قبل ذلك ، فخرجا إلى أن صار أحدهما يسبع الآخر[١]

وكان جعفر أوصل الأصمعىّ إلى الرشيد ، فقال له الرشيد يوماً ، أخبرنى من أم فلان ؟ لإنسان من العرب . فقال له الأَصمعى ، على الخبير سقطت يا أمير المؤمنين - فقال الفضل : أسقط الله أنفك وعينيك ! أهكذا تخاطب الخلفاء ! وإنما أراد بذلك مساءة جعفر ، والقصد له .

وقلد يحيى بن خالد الفضلَ بن الربيع ديوانَ النفقات فى سنة اثنتين وسبعين ومائة . وفى هذه السنة ظهر يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب بالدَّيلم ، وقوى أمره ، فشق ذلك على الرشيد ، وأنهض إليه الفضل بن يحيى فى خمسين ألفاً ، وأنهض معه وجوه القوّاد ، وولاه كور الجبل فى سنة ست وسبعين ومائة ، وفيه يقول أبو قابوس الحيرىّ[٢] :

رأى الله تفضيل ابن يحيى بن خالد ... فنضله والله بالناس أعلم
له يوم بؤس فيه للناس أبؤُسٌ ... ويوم نعيم فيه للناس أنعم
فيمطر يوم الجود من كفه الغنى ... ويمطر يوم البؤس من كفه الدمُ

١) كتب فى الهامش بخط جديد : أى يقع فيه ٢) فى ابن خلكان : ابو قابوس الحميرى

فجعل الفضل محمد بن منصور بن زياد خليفته بباب الرشيد ، ومضى نحو الديلم ، وواصل كتبه إلى يحيى بن عبد الله ورسله ، بالرفق والأسنة ، والتحذير ، والترغيب والترهيب ، وبسط الأمل ، إلى أن أجاب يحيى إلى الصلح والخروج ، على أمان أخذه له بخط الرشيد أنفذ نسخته إلى الفضل ، فكتب بذلك إلى الرشيد ، فسره ، وحسن موقعه منه ، وكتب الأمان ليحيى وأشهد على نفسه القضاة ، وأنفذه إلى الفضل ، وقدم عليه يحيى بن عبد الله فقدم به إلى الرشيد معه ، فلقيه بكل ما أحب ، وأسنى جائزته ، وأكثر بره وعطاءه ، وأنزله منزلا سريا ، وأبر الفضل بن يحيى ، وشكر فعله .

ثم ولى الرشيد جعفر المغرب كله ، من الأنبار إلى افريقية ، في سنة ست وسبعين ومائة وقلد الفضل المشرق كله ، من النهروان إلى أقصى بلاد الترك ، وأقام جعفر بحضرة الرشيد ، وشخص الفضل إلى عمله في سنة ثمان وسبعين ومائة ، وودعه الرشيد والأشراف والوجوه ، وساروا معه ، فوصل وأعطى وأفضل .

ومدحه مروان بن أبي حفصة يوم سار فقال :

إذا أم طفل راعها جوع طفلها غذته بذكر الفضل فاستعصم الطفل

ليحيا بك الإسلام أنك عزه وأنك من قوم صغيرهم كهل

فوصله بمائة ألف درهم ، وحمله وكساه ، ووهب له جارية يقال لها : طيفور كاسية حالية ، فقيل إنه حصل له سبعمائة ألف درهم ما بين ورق وعروض .

وجدت بخط أبي عبد الله محمد بن داود : حدثني غسان بن ذكوان : قال حدثني رجل رأيته عند قبيصة المهلبي في سنة أربعين ومائة[1] قال : أنشدني إسحاق بن إبراهيم الموصلي لنفسه ، في الفضل بن يحيى وأخبرني أنه قال هذا الشعر ، وعمل فيه لحنا ، وغناه به ، وأنه أمر له بشيء ذهب عني مبلغه

١) يقول ابن خلكان إن اسحاق الموصلي أنشده الشعر في آخر سنة ١٧٨ فكيف يصح أن يروى في ١٤٠

وقائل قال لى لما رأى زمنى ... يبرى عظامى برى القدح بالسفن (1)

هل كان بينكما فيما مضى ترة ... فصار يبغيك بالأوتار والإحن

لو كان بينى وبين الفضل معرفة ... فضل ابن يحيى لأعدانى على الزمن

هو الفتى الماجد الميمون طائره ... والمشترى الحمد بالغالى من الثمن

ولما صار الفضل إلى خراسان أزال سيرة الجور، وبنى الحياض والمساجد والرباطات، وأحرق دفاتر البقايا، وزاد الجند والقواد؛ ووصل الزوار والكتاب فى سنة تسع وسبعين ومائة بعشرة آلاف ألف درهم (2) وأمر بهدم البيت المعروف بالنوبهار (3) فلم يقدر على هدمه لوثاقته، وعظم المؤونة عليه، فهدم منه قطعة، وبنى فيها مسجداً. واستخلف عمر بن جميل على خراسان، وانصرف فى آخر هذه السنة إلى العراق، فتلقاه الرشيد ببستان أبى جعفر لما ورد، وجمع له الناس وأكرمه غاية الاكرام، وأمر الرشيد الشعراء بمدحه، والخطباء بذكر فضله، فكثر المادحون له فأمر الفضل بن يحيى أحمد بن سيار الجرجانى أن يميز أشعار الشعراء، ويعطيهم على قدر استحقاقهم، فمشى داود بن [أبى] رزين (4)، ومسلم بن الوليد، وأبان اللاحقى، وأشجع السلمى، وجماعة من الشعراء إليه، فسألوه أن يضع من شعر أبى نواس، ولا يلحقه بنظرائه منهم، وتحملوا عليه بغالب ابن السعدى، وكان يتعشقه، فلما عرض أبو نواس شعره على الجرجانى رمى به، وقال: هذا لا يستحق قائله درهمين، فهجاه أبو نواس فقال:

بما أهجوك لا أدرى ... لسانى فيك لا يجرى!

إذا فكرت فى قدرك ... أشفقت على شعرى!

واتصل الخبر بالفضل، فوصل أبا نواس وأرضاه، وصرف الجرجانى عن

---

1) فى القاموس السفن محركة سمكة يسحج بها القدح حتى تذهب عنه آثار المبراة

2) فى ابن خلكان بعشرة آلاف درهم فقط 3) فى الأصل النوبهان والتصحيح عن ياقوت

4) فى الأصل داود بن زرين والتصحيح والزيادة عن الأغانى ج ١٨ ص ٤٤

تمييز الشعر .

وكان شخص مع الفضل إبراهيم بن جبريل على شرطه ، فوجهه إلى كابل ، فافتتحها وأفاد مالا عظيما، ثم ولاه سجستان، فوصل إليه سبعة آلاف ألف درهم وحصل في يده من خراجها أربعة آلاف ألف درهم ، وانصرف إلى العراق، فلحق به إبراهيم بن جبريل ، وبنى داره فى البغيين[1] ، وسأل الفضل أن يزوره ليريه نعمته عليه ، وأعدّ له من كل صنف ، وأحضر الأربعة الآلاف ألف درهم ، فلما حضر الفضل وتغدى . عرض عليه ما أعدّ له ، وذكر له حال المال . فأبى أن يقبل منه شيئاً ، وقال له : لم آتك لأسلبك ! فقال : أيها الأمير ، نعمتك علىّ ظاهرة متظاهرة . فقال له : ولك عندى مزيد . ولم يزل يسأله أن يكرمه بقبول شيء منه . فقبل سوطا سِجِزّيا[2] . وقال هذا يصلح للفرسان . فذكر له أمر المال . فقال : أما لك بيت يسعه ! ووهبه له .

وكان أبو الهول الحميرى هجا الفضل بن يحيى ، ثم أتاه بعد راغبا ، فقال له الفضل : ويلك ! بأى وجه تلقانى ؟ فقال له : بالوجه الذى ألقى به الله عز وجل وذنوبى إليه أكثر وأعظم ، فضحك ووصله .

وكان محمد بن الرشيد فى حجر جعفر بن محمد بن الأشعث ، وكان يكتب على الزمام محمد بن يحيى بن خالد ، ثم صرف الرشيد [جعفر بن] محمد بن الأشعث ، وجعل محمدا فى حجر الفضل بن يحيى ، وأسكنه معه فى قصره المعروف بالخلد ، وضم إليه أعماله ودواوينه ، وشخص إلى الرقة .

وأنفذ الفضل مع الرشيد محمد بن منصور بن زياد يخلفه بحضرة الرشيد .

وذكر محمد بن الحسن بن مصعب : أن الفضل بن يحيى لما صار إلى خراسان فرق فيهم [أموالا][3] قد ذكرناها ، وأخذ البيعة لمحمد بالعهد بعد الرشيد وسماه

١) وردت مهملة عن النقط ٢) فى الأصل شجريا ولعل الصواب ما ذكرناه والسجزى نسبة إلى سجستان ٣) الزيادة عما تفهمه القصة فى الطبرى

الأمين ، فبايع الناس له

وفسدت نية جعفر بن محمد بن الاشعث ليحيى بن خالد ، وأضب عداوته ، مع عظيم إحسانه إليه .

وكان يحيى بن خالد يقول أبدا : ما أريد الدنيا إلا لثلاثة ، جعفر بن محمد بن الأشعث ، وعلى بن عيسى بن يزدانيروذ[1] ، ومنصور بن زياد ، وكلهم انقلب عليه وأساء به ، فلقى يحيى وأسبابه منهم ما يكرهون .

ولوزبر العروضى شعر يهجو به محمد بن الأشعث «مكلم الذئب» الخزاعى ، وهو[2] :

تهيتم علينا بأن الذئب كلمكم فقد لعمرى أبوكم كلم الذيبا
فكيف لو كلم الليث الهصور إذاً تركتم الناس مأكولا ومشروبا
هذا «السويدى» ما يسوى إتاوته يكلم الفيل تصعيدا وتصويبا[3]

ويروى : «هذا السيدى ما تخشى معرته» فضربه محمد بن الأشعث ثلاثمائة سوط .

وكان لجعفر بن محمد بن الاشعث ابن يقال العباس ، شاعر كاتب ظريف

وكان الحسن بن البحباح البلخى ، كاتب الفضل بن يحيى ، ويكنى أبا على شاعرا أديبا ، وكان أخوه الفضل بن البحباح الحاجب

وكان الحسن قد خدم المهدى وموسى ، وتقلد فى أيام موسى مصر ، وخدم بعده الرشيد ، وفارق عند توسط أيام البرامكة السلطان ، وتخلى من الدنيا ، وجاور بمكة فكتب إليه أبو يعقوب الخزيمى[4] قصيدته الطويلة التى يقول فيها :

ألا بكرت لُبنى عليه تعاتبه تحدثه طوراً وطوراً تلاعبه

---

١) لعل الصواب بن يزداد وقد سموا به كثيرا ٢) القصة فى الأغانى ج ١٨ ص ٣٧ والشعر يروى لدعبل بن على يهجو بنى مكلم الذئب

٣) فى الأغانى هذا السنيدى لا أصل ولا طرف — والسويدى تصغير سيد اسم الذئب ٤) فى معاهد التنصيص : هو إسحاق بن حسان الخزيمى مولى ابن خزيم الناعم

وأكب على سماع الحديث ، وكان لازم سفيان بن عيينة ، ولزم معه حاتم وحسين بن ثابت وخاقان ، وأكثروا السماع منه ، حتى لم يكن فيه للعامة فضل عنهم ، فقال محمد بن مناذر وأسمع سفيان :

بعمرو وبالزهرى والزمر الألى بهم ثبتت رجلاك عند المقادم
جعلت طوال الدهر ، يوما لثابت ويوما لخاقان ، ويوما لحاتم
وللحسن البجباح يوما وبعده خصصت حسينا ، دون أهل المواسم
نظرت وطال الفكر فيك فلم تكن تدير الرحا إلا لأخذ الدراهم

فعدل سفيان عنهم إلى العامة .

وكان الفضل لا يشرب النبيذ ويقول : لو علمت أن الماء ينقص مروءتى ما شربته أبداً .

وركب الفضل يوما من منزله بالخلد يريد منزله بالشماسية ، فلقاه فتى من الأبناء مُمَـلَّك[1] ومعه جماعة من الناس ركبان ، وقد تحملوا للإملاك ، فلما رآه نزل فقبل يده ، ولم يكن يعرفه ، فسأله عن نسبه فعرفه ، فسأل عن مبلغ الصداق ، فعرفه أنه أربعة آلاف درهم

فقال الفضل لقهرمانه : أعطه أربعة آلاف درهم لزوجته ، وأربعة آلاف درهم ثمن منزل يسكنه ، وأربعة آلاف درهم للنفقة على وليمته ، وأربعة آلاف درهم يستعينها على العقد الذى عقده على نفسه .

ومدح بعض الشعراء الفضل ، فقال :

مالقينا من جود فضل بن يحيى ترك الناسَ كلهم شعراء

فاستجيد البيت واستحسن ، وعيب بأنه بيت مفرد ، فقال أبو العُذافر وَرْدُ ابن سعد العمى :

علم المفحمين أن ينطقوا الأشعار منا والباخلين السخاء

١) مملك أى مزوج من الإملاك وهو التزوج

وكان ركب محمدَ بن ابراهيم الامام دينٌ ، فركب إلى الفضل بن يحيى ، ومعه حق فيه جوهر ، فقال له : قصرت بنا غلاتنا ، وأغفل أمرَنا خليفتنا ، وتزايدت مؤونتنا ، ولزمنا دين احتجنا لأدائه إلى ألف ألف درهم ، فكرهت بذل وجهي للتجار ، وإذالة عرضي بينهم ، ولك من يعطيك منهم ، ومعي رهن ثقة بذلك ، فان رأيت أن تأمر بعضهم بقبضه ، وحمل المال إلينا . فدعا الفضل بالحق ، فرأى ما فيه . وختمه بخاتم محمد بن ابراهيم . ثم قال له : نجح الحاجة أن تقيم في منزلك عندنا اليوم . فقال له إن في المقام عليَّ مشقة فقال ما يشق عليك من ذلك ، إن رأيت أن تلبس شيئا من ثيابنا دعوت به ، وإلا أمرت باحضار ثياب من منزلك . فأقام ونهض الفضل فدعا بوكيله . وأمره أن يحمل المال ، ويسلمه إلى خادم محمد بن ابراهيم . وتسليم الحق الذي فيه الجواهر بخاتمه ، وأخذ خطه بذلك . ففعل الوكيل ذلك . وأقام محمد عنده إلى المغرب وليس عنده شيء من الخبر . ثم انصرف إلى منزله فرأى المال . وأحضر الخادم الحق . فغدا على الفضل ليشكره . فوجده قد سبقه بالركوب إلى دار الرشيد . فوقف منتظرا له . فقيل : قد خرج من الباب الآخر . فاتبعه فوجده قد دخل إلى أبيه ، فوقف ينتظره . فقيل له قد خرج من الباب الآخر قاصداً منزله . فانصرف عنه . فلما وصل إلى منزله وجه الفضل إليه ألف ألف درهم أخر . فغدا عليه فشكره وأطال . فأعلمه أنه بات ليلته : وقد طالت عليه غما بما شكاه . إلى أن لقي الرشيد فأعلمه حاله ، فأمره بالتقدير له . ولم يزل يماكسه إلى أن تقرر الأمر معه على ألف ألف درهم وأنه ذكر أنه لم يصلك بمثلها قط . ولا زادك على عشرين ألف دينار ، فشكرته وسألته أن يصك بها صكا بخطه ؛ ويجعلني الرسول ، فقال له محمد : صدق أمير المؤمنين ، إنه لم يصلني قط ، بأكثر من عشرين ألف دينار ، وهذا فانما تهيأ بك ولك ، وعلى يديك ، وما أقدر على شيء أقضي به حقك ، ولا على شكر أجازي به معروفك ، غير أنه عليَّ وعليَّ ، وحلف أيمانا مؤكدة ،

إن وقفت على باب أحد سواك ، ولا سألته حاجة أبداً ، ولو سففت التراب .

وكان لا يركب إلى غير الفضل ، إلى أن حدث من أمرهم ما حدث ، فكان لا يركب إلى غير دار الخليفة ، ويعود إلى منزله فعوتب بعد تقضى أيامهم فى ترك إتيان الفضل بن الربيع ، فقال : والله لو عمرت ألف عام ، ثم مصصت الثماد ، ما وقفت بباب أحد بعد الفضل بن يحيى ، ولاسألته حاجة حتى ألقى الله جلّ وعزّ ، فلم يزل على ذلك حتى مات

قال عبد الله بن ياسين ، حدثنى أبى ، قال : كنا عند الفضل بن يحيى ، فخضنا فى الشعر ، فإذا هو من أروى الناس له ، وأجودهم طبعاً فيه ، فقلت له أصلحك الله ! لو قلت شيئاً من الشعر ، فإنه يزيد فى الذكر ، ويُنبه . فقال هيهات ! شيطان الشعر أخبث من أن أسلطه على عقلى .

وكان الفضل شديد الكبر ، فعوتب على ذلك ، فقال هيهات ! هذا شىء حملت عليه نفسى ، لِما رأيته من عُمارة بن حمزة ، فإنَّ أبى كان تضمن فارسَ من المهدى ، فحل عليه ألفا ألف درهم ، فأخرج ذلك كاتبُ الديوان

فأمر المهدى أبا عون عبد الله بن يزيد بمطالبته ، فقال له إن أدى يحيى المال قبل أن تغرب الشمس من يومنا هذا ، وإلا فأْتنى برأسه ، وكان متغضباً عليه ، وكانت حيلتنا لاتبلغ عشر المال . فقال يابنى : إن كانت لنا حيلة ، فمن قِبلِ عمارة بن حمزة ، وإلا فأنا ميت ، فامض إليه . فمضيت إليه ، فلم يعرنى الطرْف ثم تقدم من ساعته بحمل المال إلينا ، فحمل ، فلما مضى له شهران جمعنا المال ، فقال لى أبى : امض إلى الشريف الحرّ الكريم ، فصرت به إليه ، فلما عرّفته خبر المال غضب وقال : أكنت قسطاراً (١) لأبيك ! فقلت لا ، ولكنك أحييته ومننت عليه ، وهذا المال قد استغنى عنه ، فقال هو لك ، فعدت إلى أبى ، فقال لا ، والله ، ما تطيب نفسى لك به ، ولكن لك منه مئتا ألف درهم ، فتشبهت

---

١) القسطار والقسطرى والقسطر منتقد الدراهم وهو الصيرفى

به ، حتى صار خلقاً لا تتهيأ لى مفارقته

قال الواقدى : دخل الفضل بن يحيى بن خالد على أبيه يتبختر فى مشيته ، وأنا عنده ، فكره ذلك منه ، فقال لى يحيى يا أبا عبد الله ، أتدرى ما أبقى الحكيم فى طِرسه قلت لا ، قال بَقّى الحكيم فى طرسه : إن البخل والجهل مع التواضع أزين بالرجل من الكبر مع السخاء والعلم ، فيالها حسنة غطت على عيبين عظيمين ! ويالها سيئة غطت على حسنتين كبيرتين ! ثم أومأ إليه بالجلوس .

قال أبو النجم القائد أحد الدعاة : قلت لإبراهيم الموصلى : صف لى ولدَ يحيى بن خالد ، فقال لى أما الفضل فيرضيك بفعله ، وأما جعفر فيرضيك بقوله ، وأما محمد فيفعل بحسب مايجد ، وأما موسى فيفعل ما لا يجد .

وكان يكتب ليحيى بن خالد عبد الله بن سَوّار بن ميمون ، قال فدعانى يحيى يوماً ، فقال لى اجلس فاكتب ، فقلت ليس معى دواة ، فقال لى أرأيت صاحب صناعة تفارقه آلته ! وأغلظ لى فى حرف أراد به حضى على الأدب ، ثم دعا بدواة ، فكتبت بين يديه كتاباً إلى الفضل ، فى شىء من أموره ، فظن أنى متثاقل عن الكتاب بسبب تلك المخاطبة ، فأراد إزالة ذلك ، فقال لى أعليك دين ؟ قلت نعم ، قال كم ؟ قلت ثلاثمائة ألف درهم ، فأخذ الكتاب فوقع فيه بخطه :

وكلكمُ قد نال شِبْعاً لبطنه وشِبع الفتى لؤم إذا جاع صاحبه

إن عبد الله يذكر أن عليه ديناً يخرجه منه ثلاثمائة ألف درهم ، فقبل أن تضع كتابى من يدك ، فأقسمت عليك لما حملت ذلك إلى منزله ، مِن أحضر مال قبلك ، إن شاء الله . قال فحملها الفضل إلىّ ، وما أعرف لها سبباً غير تلك الكلمة .

وهذا الشعر لبشر بن المغيرة [بن المهلب] بن أبى صفرة ، كتبه إلى عمه ، وأوله

جفاني الأميرُ والمغيرةُ قد جفا وأمسى يزيد لى قد ازْوَرَّ جانبه

وكأنكم قد نال شبعاً لبطنه وشبع الفتى لوم إذا جاع صاحبه

فيا عم مهلاً واتخذني لنوبة تنوب ، فإن الدهر جم نوائبه

أنا السيف إلا أن للسيف نبوة ومثلي لا تنبو عليك مضاربه

ومما يشبه خبر هذا عبد الله بن سوار ، ما حدثني عبد الواحد بن محمد الحصيني : قال حدثني عبد الله بن محمد بن أحمد بن المدبر : قال سمعت جدي أحمد بن المدبر يقول :

كنت أتقلد مجلس الأسكدار في ديوان الخراج ، وكانت نفسي تنازعني على أشياء لم تكن تنالها ، وكنت أرفع نفسي عن التعرض لكسب الخسيس ، فلما خرج المأمون إلى بلاد الروم ، سألني جعفر الخياط الخروج معه ، لأكتب بين يديه ، ففعلت على كره من أبي لذلك ، وجهد ألا أخرج فلم أطعه ، فدفع إلى بعض إخوانه الذين يثق بهم ، من حيث لا أعلم ، خمسة آلاف درهم ، وقال له تكون هذه الدراهم معك من حيث لا يعلم بها أحد ، فإن اختلت حاله ، أو رأيت به خصاصة ، عرضت عليه القرض ، وأسلفته حسب ما تراه صواباً ، على حسب ما تشاهد من حاله ، قال فكنت يوما بين يدي جعفر أعمل ، حتى دخلت عريب الكبيرة إليه ، وكنت قد اكتحلت . فنظرت إلى فأطالت النظر ، وكنت غلاماً ، فقالت لجعفر من أين لك هذا الطير المراري(1)؟ فاستحييت وخجلت ونهضت فتنحيت وخرجت عريب ، فدعاني جعفر ، فقال : لعل ما كلمتك به هذه العيارة قد غمك ! وأمر لي بعشرة آلاف درهم ، وما كنت رأيتها مجتمعة قط في ملكي ، فخرجت وما أعقل فرحاً ، فاستبدلت بدابتي ، واشتريت بغلا يركبه غلامي خلفي ، فلما كان بعد أيام لقيني ذلك الصديق الذي كان أودعه أبي الدراهم ، فسألني عن خبري ، ورأى أثر حسن حالي ، فشرحت له أمري ، فخبرني بخبر المال الذي دفعه إليه أبي ، وقال ما لمكانه الآن

(1) المراري بضم الميم نسبة إلى شجر مر من أفضل العشب وأطيبه

عندى وجه ، فوجّه به إلىّ ، فرأيت حين جاءنى أنى فى ذلك العسكر أجل من المأمون ، وكان ذلك أول مال اعتقدته ، ثم أتانا الله بما نحن فيه ، ولم يكن لذلك سبب غير كلمة عريب .

وكان يحيى بن خالد يقول : التعزية بعد ثلاث تجديد للمصيبة ، والتهنئة بعد ثلاث استخفاف بالمودة .

وكان يحيى يقول : الناس يكتبون أحسنَ ما يسمعون ، ويحفظون أحسن ما يكتبون ، ويتحدثون بأحسن ما يحفظون .

وكان يحيى يقول: رسائل المرء فى كتبه أدل على مقدار عقله ، وأصدق شاهداً على عيبه لك ، ومعتقده فيك ، من أضعاف ذلك على المشافهة والمواجهة .

وكان يقول الكريم إذا تقرّأ(١) تواضع ، واللئيم إذا تقرّأ تكبر ، والخسيس إذا أيسر تجبر .

وكان يقول:مطال الغريم ، أحسن من مطال الكريم ، لان الغريم لا يُسلف إلا من فضل ، والكريم لا يطلُب إلا من جَهْد .

وقيل ليحيى بن خالد ألا تؤدّب غلمانك ؟ قال هم أمناؤنا على أنفسنا ، فإذا أخفناهم فكيف نأمنهم ؟

وكان يقول : البلاغة أن تكلم كلّ قوم بما يفهمون .

وكان يقول لكُتّابه :إن استطعتم أن تكون كتبكم كالتوقيعات اُختصاراً ، فافعلوا .

وكان يقول : لست ترى أحداً تكبر فى إمارة إلا وقد دلّ على أن الذى نال فوق قدره ، ولست ترى أحدا تواضع فى إمارة إلا وهو فى نفسه أكبر مما نال فى سلطانه .

وكان يحيى يقول : لا أرحام بين الملوك وبين أحد

---

١) هكذا الأصل فى الموضعين : ومعنى تقرأ تفقه

وكان يقول : لو كلف الله العباد الجزَع دونَ الصبر ، كان قد كلفهم أشد المعنيين على القلوب ، فجعل بعض الشعراء هذا فى شعر ، فقال :

فلو جعل الإله الحزن فرضاً　　كما أُفترض التصبر فى الخطوبِ
لكان الحزن فيها غيرَ شكٍّ　　أشدَّ المعنيين على القلوبِ

وهذا خلاف قول القائل ، من إنشاد الزبير بن بكار :

فقالوا أنت فاختر من الصبر والبكا　　فقلت البكا أشفى إذاً لغليلى

قال أبو القاسم بن المعتمر الزُّهرىّ : كنت أسير مع يحيى بن خالد وهو بين أُبنيه الفضل وجعفر ، فإذا أبو الينبغىّ العباس بن طرخان واقف على الطريق ، فنادانى يازُهرى ، يازُهرى فاستشرفت له ، فقال :

صحبت البرامك عشراً وِلاَ　　وبيتى كِراءٌ وخبزى شِرا

قال : فسمعه يحيى ، فالتفت إلى الفضل وجعفر ، فقال أفٍّ لهذا العقل ، أبو الينبغى ممن يحاسب ! فلما كان من الغد جاءنى أبو الينبغى ، فقلت له ويحك ! ماهذا الذى عرّضت له نفسك بالأمس ؟ فقال اسكت ماهو إلا [أن] انصرفت إلى منزلى ، حتى جاءنى من قبل الفضل بَدرة ، ومن قبل جعفر بدرة ، ووهب لى كل واحد منهما داراً ، وأجرى لى من مطبخه ما يكفينى

وكان يحيى بن خالد يقول : الدالة تفسد الحرمة القديمة ، وتضر بالمحبة المتأكدة .

وكان يقول : أنا مخير فى الإحسان إلى من أحسن ، ومرتهن بالإحسان إلى من أحسنت إليه ، لأنى إذا لم أستتم إحسانا فقد أهدرته .

وكان يقول : ماوقع غبار مركبى على لحية رجل قطّ ، إلا أوجبتُ له على نفسى حفظه ، وألزمتها حقه .

وكان ليحيى قبل الوزارة حاجب ، يقال له سماعة ، فلما تقلد الوزارة رأى بعضُ إخوانه أن سماعة يقل عن حجابته ، فقال له لو اتخذت حاجبا غيره ، فقال

كلا ! هذا يعرف إخوانى القدماء .

ووقع يحيى إلى رجل ظن به تغيراً عليه : ينبغى أن تكون على يقين أنى بك ضنين ، أريدك ما أردتنى ، [و] إن نبوت عنى ماكان ذلك بى وبك جميلا ، فإن وقت المقادير بخلاف ذلك لم أعدُ ما يجب ، والذى هاجنى على الكتاب إليك أن أبا نوح معروف بن راشد سألنى أن أبوح لك بما عندى ، والله يعلم أنى ما تبدّلت ! ولا حُلت عن عهد ، جمعنا الله وإياك على طاعته ، ومحبة خليفته ، بجوده وقدرته .

وقال يحيى لجعفر ابنه : يابنى انتف[1] من كلّ علم شيئا ، فانه من جهل شيئا عاداه ، وأنا أكره أن تكون عدواً لشىء من الأدب

وكان يحيى أنكر على ابراهيم بن سيابة[2] الشاعر شيئاً ، فكتب إليه رسالة طويلة مشهورة ، وكتب فى آخرها :

أسرعت بى إليك منى خطيئا — تى فجاءت بمذنب ذى رجاء
راهب راغب إليك يُرجّى — منك عفوا عنه وفضل عطاء
ولعمرى مامن أصر ومن تا — ب مقرا بذنبه بسواء

فعفا عن جرمه ورضى عنه .

وكان يحيى إذا رأى من الرشيد شيئا ينكره لم يستقبله بالانكار ، وضرب له أمثالا ، وحكى له عن الملوك والخلفاء ما يوجب مفارقة ما أنكره ، ويقول : فى النهى إغراء ، وهو من الخلفاء أحرى ، فانك وإن لم تقصد إغراءه ، إذا نهيته أغريته .

قال عبد الصمد بن على : ما رأيت أكرم من يحيى نفسا ، ولا أحلم منه ، جعل

١) هو من النتفة وفى القاموس النتفة بالضم ما تنتفه باصبعك من النبت وغيره وكهمزة بضم الهاء من ينتف من العلم شيئا ولا يستقصيه ٢) فى الاصل شبابة والمشهور ماذكرناه وهو كذلك فى الاغانى ج ١١ ص ٥ وما بعدها

على نفسه أن لا يكافئ أحداً بسوء ، فوفى ، فقال أبو الحجناء نصيب الأصغر :

عند الملوك مضرة ومنافع ... وأرى البرامك لا تضر وتنفع
[إن كان شر كان غيرهم له ... والخير منسوب إليهم أجمع](١)
إن العروق إذا استسر بها الثرى ... أشر النبات بها ، وطاب المزرع
وإذا جهلت من امرئ اعراقه ... وقديمه ، فانظر إلى ما يصنع

وأخذ أبو الحجناء نصيب بيته الآخر من سلم الخاسر ، حيث يقول :

لا تسأل المرء عن خلائقه ... فى وجهه شاهد عن الخبر

قال الأصمعي: سمعت يحيى بن خالد يقول : الدنيا دول ، والمال عارية ، ولنا بمن قبلنا أسوة ، وفينا لمن بعدنا عبرة .

ودخل محمد بن زيدان على الفضل بن يحيى ، فقال له : من الذى يقول :

سأرسل بيتا قد وسمت جبينه ... يقطع أعناق البيوت الشوارد
أقام الندى والجود فى كل منزل ... أقام به الفضل بن يحيى بن خالد

فقال له سلم الخاسر ، فقال لا تسمه خاسراً وسمه سلما الرابح ، وأمر له بألف دينار .

ثم غلب سلم على الفضل بن يحيى ، و كثرت فيه مدائحه ، وعظم إحسان الفضل إليه حتى قال فيه أبو العتاهية :

إنما الفضل لسلم وحده ... ليس فيه لسوى سلم درك

وكان الرشيد يسمى جعفراً أخى ، ويدخله معه فى ثوبه ، وقلده بريد الآفاق ودور الضرب والطرز فى جميع الكور .

وكان جعفر بليغا كاتبا ، وكان إذا وقع نسخت توقيعاته ، وتدروست بلاغاته فحكى على بن عيسى بن يزادنيروذ(٢) أنه جلس للمظالم . فوقع فى ألف قصة ونيف .

---

١) الزيادة عن ابن خلكان ج ١ ص ٥٢٠ والأبيات فيه مع تقديم وتأخير وهو يروى أيضا أنها لمروان بن أبى حفصة ٢) لعل الصواب بن يزداد وهو اسم فارسى

ثم أخرجت فعرضت على العمال والقضاة والكتاب و كتاب الدواوين ، فما وجد فيها شيء مكرر ، ولا شيء يخالف الحق .

قال ثمامة بن أشرس : كان جعفر بن يحيى أنطقَ الناس ، قد جمع الهدو والتمهل والجزالة والحلاوة . وإفهاما يغنيه عن الاعادة . ولو كان فى الارض ناطق يستغنى عن الاشارة لاستغنى عن الاشارة[1] . وفيه تقول عنان جارية الناطف[2]

بديهته وفكرته سواء إذا التبست على الناس الامور
وصدر فيه للهم اتساع إذا ضاقت من الهم الصدور
وأحزم ما يكون الدهر رأيا إذا عجز المشاور والمشير

ورفع رجل إلى جعفر رقعة ذكر فيها قصده إياه بأمل طويل ، ورجاء فسيح . فوقع على ظهرها :

هذا يمت بحرمة الامل ، وهى أقرب الوسائل ، وأثبت الوصائل . فليعجل له من ثمرة ذلك عشرون ألف درهم . وليمتحن ببعض الكفاية ، فان وجدت عنده فقد ضم إلى حقه حقا ، وإلى حرمته حرمة . وإن قصر عن ذلك فعلينا معوله ، وإلينا مؤنته ، وفى مالنا سعة له .

ورفع رجل إلى جعفر قصة يسأله الاستعانة به . وكان يعرفه ويخبره . فوقع :

قد رأيناك فما أعجبتنا وبلوناك فلم نرضَ الخبر

وكان جعفر بن يحيى يقول الخط سِمط الحكمة ، به تفصل[3] شذورها ، وينظم منثورها .

---

١) روى فى البيان والتبيين بزيادة وهى : ولو كان فى الأرض ناطق يستغنى بمنطقه عن الاشارة لاستغنى جعفر عن الاشارة كما استغنى عن الاعادة .

٢) هكذا الأصل والمعروف الناطفى

٣) فى الاصل تفضل والمناسب ما ذكرناه

ووقع على كتاب لعلى بن عيسى بن ماهان ، وقد كتب إليه رقعة معتذرا من أشياء بلغته عنه :

كأنا وقد كنا صديقا مصافيا تباعد بيننا فدام إلى الحشر

ووقع على كتاب آخر لعلى بن عيسى : حبب إلينا الوفاء الذى أبغضته ، وبغض الغدر الذى أحببته ، فما جزاء الأيام أن تحسن ظنك بها ، وقد رأيت غدراتها . ووقعاتها عيانا وإخبارا . والسلام .

ووقع على رقعة لمحبوس : العدوان أوبقه ، والتوبة تطلقه .

وكان الأصمعى يألف جعفر بن يحيى ويختص به ، وله فيه مديح كثير وحكايات توصف وتقريظ وتفضيل ، فمن شعره فيه

إذا قيل من للندى والعلى من الناس قيل الفتى جعفر

وما إن مدحت فى قبله ولكن بنو برمك جوهر

وقال يوما جعفر لخادم له احمل معنا ألف دينار . فانى أريد أن أمر بالأصمعى . فاذا حدثنى وأضحكنى . فضع الكيس فى حجره ، ثم صار إليه ومعه أنس بن أبى شيخ ، فحدثه الأصمعى بكل شىء فلم يضحك وانصرف ، فقال له أنس إنه قد أضحكك بجهده فلم تضحك وليس عادتك رد شىء قد أمرت باخراجه من بيت مالك ، فقال له جعفر : ويلك ! قد وصلنا هذا بخمسمائة ألف درهم[1] . ولم ادخل له بيتاً قبل هذه الدفعة ، ورأيت حبه[2] مكسورا وعليه برنكان[3] منجرد ، وتحته مصلى وسخ ، وكل ما عنده رث ، وأنا أرى أن لسان النعمة أنطق من لسانه ، وأن ظهور الصنيعة أمدح وأهجى من مديحه وهجائه . فعلام أعطيه الأموال ، إذا لم تظهر الصنيعة عنده ، ولم تنطق النعمة بالشكر عنه ؟

ثم أنشد بيت نصيب :

---

١) فى المسعودى : مائة ألف درهم قبل هذه المرة فرأيت حبه ٢) الحب الجرة أو الضخمة من الجرار ٣) البرنكان ضرب من الثياب وفى القاموس هو الكساء الأسود

فاجوا فأتوا بالذى أنت أهله ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب

وكان الأصمعى هجا البرامكة فيما بعد وكفر نعمتهم ، فقال عند نكبتهم :

إذا ذكر الشرك فى مجلس أضاءت وجوه بنى برمك

ولو تليت بينهم آية أتوا بالأحاديث عن مزدك

وكان الرشيد قد أحب الغزو ، وكان من رسمه أن يحج سنة ويغزو سنة ، وكان يلبس دُرَّاعة قد كتب من خلفها «حاج» ومن قدامها «غاز» فطلب نقفور الهدنة على أن يؤدى إليه عن كل حالم ممن عنده من الروم دينارا ، سواه وسوى ابنه ، فأبى الرشيد ذلك ، ثم تراضيا على الصلح ، وأشار عليه يحيى بن خالد بقبوله إياه ، فصالحه وهادنه ، فانصرف عنه ؛ ولما صار بالرقة نكث نقفور وغدر ، فكره يحيى بن خالد أن يعرفَ الرشيدُ ذلك فيغتم له ، ويرجع باللوم عليه ، لما كان من مشورته عليه بمصالحته ، فأمر عبد الله بن محمد الشاعر المعروف بالمكى ، أن يقول فى ذلك شعراً ، وينشده الرشيد ، فقال :

نقض الذى أعطيته نَقَفور فعليه دائرة البوار تدور

أبشر أمير المؤمنين فانه فتح أتاك به الإله كبير

فقال الرشيد ليحيى : قد علمت أنك احتلت فى إسماعى هذا الخبر على لسان المكىّ ونهض نحو الروم ، فافتتح هِرَقلة .

وأحب الرشيد تقليد جعفر الخاتم ، وكان إلى الفضل ، فقال ليحيى بن سليمان أريد أن أوقع بهذا توقيعا لا يجرى مجرى العزل للفضل ، فكتب عنه إلى يحيى بن خالد : إن أمير المؤمنين رأى أن ينقل خاتم الخلافة من يمينك إلى شمالك .

وردّ الرشيد إلى هِرثمة بن أعين الحرس ، وكان إلى جعفر ، فقال له جعفر : ما انتقلت عنى نعمة صارت إليك .

وأمر الرشيد جعفرا أن يتخذ خيلا يجريها فى الحلبة ، فأجرى جعفر يوما خيله بالرقة ، فسبقت خيلَ الرشيد ، فغضب الرشيد ، فقال العباس بن محمد الهاشمى

لجعفر : يا أبا الفضل ، ما أحسن الشكر ، وأدعاه للمزيد ! من أين لك هذا الفرس السابق ؟ فقال له : أمه من خيلك . فقال : والله لأرضينك ، ثم أقبل على الرشيد فقال : كنت يا أمير المؤمنين ، مع أمير المؤمنين أبي العباس ، ونحن فى المدائن وقد أرسلت الخيل ، فبينا نحن ننظر طلع فرس سابق ، قد حصل فى الغبار ، فما ترى علامته ، فقال عيسى بن على : لى ، وقال غيره : لى ، ثم طلع آخر على تلك الصفة ، ثم طلع ثالث على تلك الصفة ، فنظروا فاذا هى لخالد بن برمك ، وقد أخذ قصبات السبق ، فقال خالد : يا أمير المؤمنين ، مر بقبضها ؟ فقال : هى لنا عندك ، فانك عدة من عددنا ، فسرى عن الرشيد ، وزال الغضب عنه .

وهاجت بالشأم عصبة فى سنة ثمانين ومائة ، فقال الرشيد لجعفر : إما أن تخرج أنت إليها ، وإما أن أخرج أنا . قال : فشخص جعفر من الرقة يريد الشأم بشيعة[1] الرشيد وخرج معه من بحضرته من الوجوه والأشراف ، وفيهم عبد الملك بن صالح ، فلما ودعه قال له جعفر : اذكر حاجتك فقال له : حاجتى أعز الله الأمير أن تكون كما قال الشاعر :

وكونى على الواشين لدّاء شغبة كما أنا للواشى[2] ألدُّ شغوبُ

فقال جعفر . بل أكون كما قال الآخر :

وإذا الواشى أتى يسعى بها نفع الواشى بما جاء يضر

ثم سار جعفر إلى الشأم فأصلحها ، وظفر بجماعة ممن سعى بالفساد ، وشرّد آخرين ، حتى استقامت أمورها أحسن استقامة .

وله خطبة خطبها وهى :

الحمد لله الذى لم يمنعه غناه عن الخلق من العائدة عليهم ، ولم تمنعه إساءتهم من الرحمة لهم ، دعاهم من طاعته لما ينجيهم ، وذادهم من معصيته عما يرديهم

١) هكذا فى الاصل ولعل الصواب يشيعه الرشيد

٢) فى الاصل للواشين والتصحيح عن هامش الأصل

كثيرٍ من السبل دون طاقتهم ، وأعطاهم من النعم فوق كفايتهم ، فهم فيما خولوا عقلت حيث ، رحيماً حليماً ، واسعاً عليماً ، وصلى الله على محمد نبي الرحمة ، والمبعوث إلى كافة الأمة(١) ، وعلى أهل بيته الطاهرين ، وسلم تسليما .

أما بعد ، فإني أوصيكم بالألفة ، وأحذركم الفرقة ، وآمركم بالاجتماع ، وأنهاكم عن الاختلاف ، قال الله جل وعز « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » فأمر بالجماعة في أول الآية ، ثم لم ينقض حتى نهى فيها عن الفرقة ، توكيداً للمحبة وتقبيحاً للمعذرة . إن الفرقة تنشىء بينكم إحناً يطلبُ بها بعضكم بعضاً ، وإن الجماعة تعقد بينكم ذمماً ، يحتمي بها بعضكم بعضاً ، حتى يكون الكثير الواحد منكم كالكثير جماعتكم ، فمتى يطمع عدو فيكم إذا كانت النائبة تعمكم ، إن نال بعضكم حرمه يغشيكم ، وإن عزبت(٢) طائفة منكم منعها تألفكم . إنه لم يجتمع ضعفاء قط إلا قووا حتى يمتنعوا ، ولم يفترق أقوياء قط إلا ضعفوا حتى يخضعوا . واجتماع الضعيفين قوة ، وافتراق القويين مهانة تمكن منهما ، غافل الجماعة لاتقصره غفلته الكثرة من يحفظه ، ومستيقظ الفرقة لا ينفعه تيقظه لكثرة من يطلبه ، وصاحب الجماعة يدرك أرشه(٣) في الخدش والشجة ، وصاحب الفرقة يذهب حقه في النفس والحرمة .

وفي جعفر يقول مسلم بن الوليد في قصيدة طويلة :

لتنشد الشعر أقوالاً تصالحهم ... مُحمّلٌ نكبات الدهر مُحتمِل
به تعارفت الأحياء وائتلفت ... إذ ألفتهم إلى معروفه السبل
كأنه قمر وَضيغم هَصِرٌ ... وَحيةٌ ذكرٌ وَعارض هطل(٤)

---

١) خطأ علماء اللغة استعمال كافة مجرورة كما وردت هنا ، وحجتهم أنها لم ترد إلا منصوبة في القرآن والحديث وما يحتج به من الشعر

٢) عزبت فارقت الجماعة وبعدت عنها .   ٣) الأرش الدية .

٤) في ديوان مسلم بن الوليد :

قال الجاحظ : دخل أبو قابوس النصرانى الحيرى ، وكان منقطعا إلى البرامكة ، على جعفر بن يحيى فى يوم بارد ؛ فتبين عليه جعفر أثرَ البرد ، فألقى إليه مِطرَف خز ، كان شِراه بجملةٍ كبيرة ، وانصرف أبو قابوس ، فحضره عيد لهم ، والتمس فى ثيابه مايشاكل ذلك المطرف فلم يجده ، فقالت له ابنته : لو كتبت إلى جعفر فعرَّفته حالك ، لوجَّه إليك ماتلبسه مع هذا ، فكتب إليه :

أبا الفضل لو ابصرتنا يومَ عيدنا ... رأيت مباهاةً لنا فى الكنائسِ
فلو كان هذا المطرف الخزُّ جبة ... لباهيت أصحابى به فى المجالسِ
فلابد لى من جبة من جِبابكم ... ومن طيلسان من جياد الطيالس
ومن ثوب قوهىٍّ (١) وثوب غلالة ... ولا بأس لو اتبعتَ ذاكَ بخامس
إذا تمت الأثوابُ فى العيد خمسة ... كفتك فلم تحتج إلى لبس سادس
لعمرُكَ ما أفرطتُ فيما سألتـه ... ولا كنت لو أفرطت فيه بيائس
وذاك لأن الشعر يزداد جِدَّة ... إذا ما البلى أبلى جديد الملابس

فوجه إلى أبى قابوس من كل صنف ذكره عشر قطع

ولم تزل كتب الملوك والرؤساء تجرى فى التوقيعات على أن يوقع الرئيس فى القصة بما يجب فيها ، ويذكر المعانى التى يأمر بها ، ولم يكن للكتاب فى ذلك الأمر شىء أكثرُ من أن يكتبوا تلك الجملة فى التوقيع ألفاظا بشرحها ، وتقرِّب من العامة فهمها ، ولاتخرجها عن معنى قصد الرئيس ، إلى أيام الرشيد ، فإن المتظلمين كثروا على باب جعفر ، وتأخر جلوسه أياما ، ثم جلس ، وكانت القصص قد كثرت ، فنفَضَ (٢) أكثرها

كأنه قمر أو ضيغم هصر ... أو حية ذكر أو عارض هطل

١) فى الأصل فوهى بالفاء الموحدة ، وقوهى منسوب إلى قوهستان وهو تعريب كوهستان ومعناه موضع الجبال

٢) فى اقاموس نفض السور قرأها والكلمة فى الأصل خالية من النقط

وجاءه رسول الرشيد يأمره بالمصير اليه ، فقال للرسول : قل له ، ياسيدى ، الساعة أجىء ، ونظر فيما بقى ، فجاءه الرسول ثانية يستحثه

وكان فى القصص قصة طويلة ، دقيقة الخط رديئته ، فوافاه الرسول وهى فى يده وأعجله أن يستتمها ، وكان يحتاج فى فهمها الى مدة ، وكره - وقد نظر اليها فى يده - أن تطرح فيما لم ينظر فيه ، فوقع على ظهرها : يعمل فى ذلك بما يعمل فى مثله على سنن الحق وقصده ، وجهة الانصاف وسبيله إن شاء الله . فورد على الكتاب من ذلك مالم يرد مثله ، وامتثلوه ، ثم صار ذلك رسما للرؤساء

وكان المأمون فى حجر محمد بن خالد بن برمك ، فنقله الرشيد إلى حجر جعفر فأشار الرشيد ببيعته للعهد بعد محمد ، وقام بالأمر حتى عقده له ، وشخص به معه من الرقة الى مدينة السلام ، حتى أكد البيعة له ، وأخذ الأيمان على بنى هاشم والوجوه بها ، وكاتب العمال فى جميع النواحى بذلك ، ثم انصرف الى الرقة .

وصنع أبان بن عبد الحميد بن لاحق ، مولى الرقّاشيين ، كتابَ كليلة ودمنة شعراً ، وأهداه إلى جعفر . فوهب له مائة ألف درهم ، وقد ذكر محمد بن داود فى طبقات الشعراء . أن يحيى بن خالد اشتهى حفظ كتاب كليلة ودمنة ، فقلبه له أبان شعراً ، ليسهل عليه حفظه ، وذكر أنه أربعة عشر ألف بيت .

وكان أبان خاصا بجعفر وبيحيى بن خالد ، وكان يحيى قلده ديوان الشعر ، فكان الشعراء يرفعون اليه أشعارهم فى البرامكة ، فيسقط مايرى اسقاطه ، ويعرض مايرى عرضه ، فأسقط مرة شعر ابى نواس فيما أسقط ، فقال فيه :

صحفت أمك إذ سمـ ... ـتك فى المهد أبانا
قد علمنا ما أرادت ... لم ترد الا أتانا
صيرت باء مكان الـ ... ـتاء والله اعانا
قطع الله وشيكا ... من مسميك اللسانا

وذكر اسحاق الموصلي : ان جعفر بن يحيى استبطأه فى زيارته ، وشكاه الى يحيى والده وكان شديد الحجاب ، قال فاعتذرت إليه وقلت : إنى ما أخل بحضور دارك ، ولكن نافذاً خادمك يحجبنى ، فقال لى وهو يمازحنى : إذا حجبك فنكه ، قال فقصدته يوما بعد ذلك ، فعاود نافذ حجابتى ، فكتبت إليه :

جعلت فداءك من كل سوء ... إلى حسن رأيك أشكو أناسا
يحولون بينى وبين السلام ... فما إن اسلم الا اختلاسا
وانفذتُ رأيك فى نافذ ... فما زاده ذاك إلا شماسا !

فلما وصلت رقعتى إليه ضحك ، وأمر بإزالة الحجاب عنى ، وكَثُرتُ عنده .

وذكر اسحاق بن ابراهيم الموصلى قال : قال لى ابراهيم بن المهدى : خلا جعفر بن يحيى فى منزله يوما ، وحضر ندماؤه ، وكنت فيهم فتضمخ بالخلوق ولبس الحرير ، وفعل بنا مثل ذلك ، وتقدم إلى الحاجب بحفظ الباب الا من عبد الملك بن بحران [1] كاتبه ، فوقع فى أذن الحاجب « عبد الملك » ومضى صدر من النهار ، وبلغ عبد الملك بن صالح [2] مقام جعفر فى منزله ، فركب اليه .

١) فى ابن خلكان بحران - والقصة فيه وقد نقلها عن كتاب الأماثل والأعيان للصابى

٢) كتب فى هامش الاصل بخط مغاير ، بمناسبة ذكر عبد الملك بن صالح ، هذا الخبر :

وحسده أقرانه لفصاحته ، وقالوا للرشيد إنه يعد لهذا المقام مقالا فقال امتحنوه فقالوا [له] إن أمير المؤمنين رزق الليلة ابناً ، وأصيب بابن فقال : سرك الله فيما ساءك يا أمير المؤمنين ولا ساءك فيما سرك ، وجعلها واحدة بواحدة ثواب الشاكر وأجر الصابر فعلم أنه مبغى محسود - وهذه الكلمة مشهورة ، وقد وردت منسوبة لعبد الملك بن صالح (انظر المسعودى عند موت الرشيد)

توجه الحاجب إلى جعفر : قد حضر عبد الملك ، فقال يؤذن له ، وهو يظنه ابن بحران ، فدخل عبد الملك بن صالح فى سواده ورُصافيته ، فلما رآه جعفر اسودَّ وجهه ، ورآنا على حالنا ، وكان عبد الملك لا يشرب النبيذ ، وكان ذلك سبب موجدة الرشيد عليه ، لأنه كان يلتمس ندامه فيأبى عليه ، فوقف عبد الملك على ما رأى من جعفر ، فدعا غلامه ، فناوله سواده وقلنسوته ، وأقبل حتى وقف على باب المجلس الذى نحن فيه ، فسلم وقال : افعلوا بنا ما فعلتم بأنفسكم ، فدنا منه خادم ، وألبسه حريرة ، وجاء فجلس ، ودعا بطعام فأكل ، ودعا بنبيذ ، فأتوه برطل فشربه ، وقال لجعفر : والله ما شربته قبل اليوم ، فليخفف عنى ، فدعا له بر طلية جعلت بين يديه ، وجعل كلما فعل من ذلك شيئا سرّى عن جعفر فلما أراد الانصراف قال له جعفر : سل حاجتك ، فما تحيط مقدرتى بمكافأة[1] ما كان منك ، فقال : إن فى قلب أمير المؤمنين هنة ، فتسأله الرضا عنى ، فقال ، قد رضى عنك أمير المؤمنين ، قال وعلى أربعة آلاف ألف درهم[2] تقضى عنى قال ، إنها لعندى حاضرة ، ولكن أجعلها من مال أمير المؤمنين ، فانها أنبل لك ، وأحب إليك ، قال وإبراهيم ابنى أحب أن أشد ظهره بصهر من أولاد الخلافة ، قال ، قد زوجه أمير المؤمنين العالية[3] قال وأحب أن يخفق لواء على رأسه ، قال قد ولاه مصر ، وانصرف عبد الملك ، ونحن نتعجب من إقدام جعفر على قضاء الحوائج من غير استئذان ، وقلنا : لعله أن يجاب إلى ما سأل من الحوائج ، فكيف بالتزويج ! هل يطلق لجعفر أن يغره ! فلما كان من الغد ، وقفنا على باب الرشيد

---

١) فى الاصل بمكافأته

٢) هكذا فى ابن خلكان أيضا وفى الفخرى ألف ألف درهم وفى العقد الفريد أربعة آلاف درهم

٣) هكذا فى ابن خلكان وفى العقد الفريد عائشة الغالية ، وعدّ الطبرى أم العالية فى بنات الرشيد

ودخل جعفر ، فلم يلبث أن دعى بأبى يوسف القاضى ومحمد بن الحسن ، وإبراهيم ابن عبد الملك ، وخرج إبراهيم وقد خلع عليه وزوج ، وحملت البدر إلى منزل عبد الملك ، وخرج جعفر ، وأشار إلينا باتباعه إلى منزله ، فلما صرنا إليه ، قال : تعلقت قلوبكم بأول الحديث من أمر عبد الملك ، فأحببتم علم آخره ، وإنى لما دخلت على أمير المؤمنين ، فقمت بين يديه ، ابتدأت القصة كيف كانت ، من أولها إلى آخرها ، فجعل يقول : أحسن والله ، حتى إذا أتممت خبره ، قال : ما صنعتَ به ؟ فأخبرته بما سأل ، فجعل يقول فى ذلك . أحسنتَ ! أحسنتَ !

قال مخارق : غدوت يوما على إبراهيم بن ميمون الموصلى ، وكان يومُ دَجنٍ طيب ، فأصبت بين يديه قدورا تغرغر ، وأباريق تزهر ، وهو كالمهموم ، فسألته عن حاله ، فقال : لى ضيعة ، وإلى جانبها ضيعة يبلغ ثمنها مائتى ألف درهم وإن دخلتها يد غيرى أفسد على ضيعتى ، وما أقول إن ثمنها ليس يمكننى ولكنى لست أسمح بإخراج كل ما فى يدى . قال . فأمسكت عنه ، واستتممت يومى عنده ، وغدوت على يحيى بن خالد فلقيته ، فسألنى عن خبرى فى أمس يومى ، فخبرته الخبر فأضحكه . قال مخارق : فانصرفت إلى إبراهيم لأُعرفه الخبر ، فوجدت المال قد سبق اليه ، فقلت له : اشتر الآن الضيعة ، فقال : لكل جديد لذة ، وهذا مال جديد ، ولست أحب اخراجه ، قال . فحدثت جعفراً بالخبر كله فأضحكه ، وبعث بالمال اليه . قال . فصرت إليه ، فقلت له . اشتر الآن الضيعة ، فقال . العجلة من عمل الشيطان ، دعنى استمتع بهذا المال مدّة . وصرت إلى الفضل ابن يحيى ، فحدثته . فابتاع الضيعة ووزن ثمنها ووجه اليه بمثل الثمن ، ووجه اليه بالصك .

وكان جعفر طويلَ العنق ، وهو أول من عرّض الجُربّانات ، وحشاها بالقطن ، ومازال الناس ينسبونها إلى ابن برمك[1] ، ويقولون : جُربّانات برمكية

1) لعل الصواب آل برمك

وفيه يقول أبو نواس :

ذاكَ الوزيرُ الذى طالت علاوتُه كأنّه ناظر فى السيف بالطُّول

وأوّل هذه الأبيات :

قالوا امتدحتَ فماذا اعتضتَ قلتُ لهم خرقَ النعال وإخلاقَ السراويل

قالوا : فسمِّ لنا هذا ، فقلت لهم وصفى له يعدل التفسير فى القيل

ذاك الوزير الذى طالتْ علاوته كأنّهُ ناظر فى السيف بالطُّول

وله فيه :

لقد غرّنى من جعفر حُسن بابه ولم أدرِ أنّ اللُّؤمَ حشو إهابه

ولست وإن بالغت فى مدح جعفر بأوّل إنسان خَرِى فى ثيابه

وفى جعفر يقول أشجع السلمى يمدحه :

يُحبُّ الملوكُ ندى جعفرٍ ولا يصنعونَ كما يصنعُ

وليسَ بأوسعهم فى الغنى ولكنَّ معروفهُ أوْسعُ

وكيفَ ينالونَ غاياتِه وهمْ يجمعونَ ولا يجمعُ (١)

وحكى أن المأمون قال يوماً لمحمد بن عبّاد المهلبى : بلغنى أن فيك سرفاً ؟ فقال يا أمير المؤمنين : البخلُ مع الوجود سوء ظنٍّ بالله عزّ وجلّ ، وإنى لأهمّ بالإمساك ، فاذكر قول أشجع فى جعفر بن يحيى ، وذكر هذه الأبيات ، فأمر له بمائة ألف دينار ، وقال له استعن بها على مروءتك .

وحكى أن الرشيد قام عن مجلسه يريد الدخول إلى بعض حجر قصره ، وأن جعفراً أسرع فرفع له الستر ، وأن الرشيد جعل يتأمل عنقه تأملا شديداً ، فرآه جعفر وهو يتأمل ، فقال : ما متأمل أمير المؤمنين ؟ قال حسن عنقك ، وحسن موقع الجُربّان منه . فقال له : لا والله ، ما تأملتَ إلا موضع سيفك منه ، فقال له أعيذك بالله من هذا القول . واعتنقه وقبّله ، ثم قال للفضل بن الربيع

(١) انظر القصيدة فى كتاب الأوراق للصولى (قسم أخبار الشعراء المحدثين)

قاتل الله جعفراً ! وذكر له هذا الخبر، وقال ما تأملت عنقه إلا لموضع السيف منه

وتنازع الفضل بن الربيع وجعفر بن يحيى يوماً بحضرة الرشيد، فقال جعفر للفضل : يا لقيط ! فقال له أشهد يا أمير المؤمنين ، فقال جعفر للرشيد تراه عند من يقيمك هذا الجاهل شاهداً يا أمير المؤمنين ، وأنت حاكم الحكام !

قال إسحاق بن سعد القُطْرُبُّلِيّ : أخبرنا عمر بن فرج ، قال انصرفت مع عمرو بن مَسعدة يوماً من الشماسية ، والمأمون بها في زلال لعمرو بن مسعدة ، فلما صرنا بإزاء قصر جعفر ، قال عمرو : يا أبا حفص سرت أنا وجعفر يوماً كمسيرنا هذا ، فلما نظر إلى البناء قال لي : يا أبا الفضل والله إني لأعلم أنه ليس من بناء مثلي ، ولكن قلت إن بقي لي فهو قصر جعفر ، وإن شَرِهَ السلطان في وقت من الأوقات فهو قصر جعفر ، وإن مضت عليه الأيام فهو قصر جعفر ، ويبقى اسمه وذكره ، ولعله أن يمر به بعض من لنا عنده إحسان فيترحمَ علينا ! قال عمرو فوالله لكأن جعفرا كان ينظر إلى ما آلت إليه الحال فيه .

وحكى أن السبب — كان — في بناء هذا القصر أن متظلما من أهل أصبهان تظلم إلى يحيى بن خالد من عامله بها ، فقال له إنه ظلمني وأساء معاملتي ، وأخذ ما لا يجب له مني ، وهدم شرفي ، فقال يحيى قد عرفتُ جميع ما تظلمت خلا قولك « هدمَ شرفي » ففسر لي ذلك ، فقال له المتظلم : أنا من بني رجل كان بنى القصر المهدوم ، وكان ينسب إليه ، وكان الرائي إذا رأى القصر وجلالته : وعلم أني من ولد الباني له ، عرف بذلك قديم نعمتي ، وجلالة أوّلي . فاستحسن ذلك يحيى منه ، وقال للفضل وجعفر لا شيء أبقى ذكرا من البناء ، فاتخذوا منه ما يبقى لكم ذكراً ، فاتخذ جعفر قصره ، وكذلك الفضل ، وأمر يحيى بإنفاذ مستحثّ مع المتظلم ، يطالب العامل بإعادة بناء قصره ، وإنصافه من ظلامته .

وحكى أن جعفرا لما عزم على الانتقال إلى قصره هذا ، جمع المنجمين لاختيار

وقت ينتقل فيه إليه ، فاختاروا له وقتاً من الليل . فلما حضر الوقت خرج على حمار من الموضع الذى كان ينزله إلى قصره ، والطرق خالية ، والناس ساكنون فلما سار إلى سوق يحيى رأى رجلا قائما وهو يقول :

تدبّرَ بالنجوم وليس يدرى وربُّ النجم يفعل ما يريدُ

فاستوحش ووقف ، ودعا بالرجل ، فقال له أعِدْ ما قلت ، فأعاده ، فقال له ما أردتَ بهذا ؟ قال والله ما أردتُ به معنى من المعانى ، ولكنه شىء عرض لى ، وجاء على لسانى فى هذا الوقت . فأمر له بدنانيرَ ، ومضى وقد تنغص عليه سروره .

وكان موسى بن عيسى الهاشمى يتقلد للرشيد مصر ، وكثر التظلم منه ، واتصلت السعايات به ، وقيل إنه قد استكثر من العبيد والعـدَّة ، فقال الرشيد ليحيى اطلب لى رجلا كاتباً عفيفاً يكمل لمصر ، ويستر خبرَه ، فلا يعلم موسى ابن عيسى به حتى يفجأه ، قال قد وجدته ، قال من هو ؟ قال عُمرُ بن مِهـران وكان عمر يكتب للخيزران ، ولم يكتب لغيرها قط ، وكان رجلا أحولَ من عينيه ، مُشوَّه الخَلق ، خسيس اللِّباس ، فأمر بإحضاره ، قال عمرُ بن مهران فلقيت يحيى بن خالد ، فعرفنى ماجرى ، وراح بى إلى دار الرشيد ، فلما صلى المغـرب دعانى ، فوصلت إليـه وهو خالٍ ، وبين يديه يحيى بن خالد ، فاستدنانى ، ونحى الغلمان ، وأعلمنى ما ندبنى إليـه ، وأمرنى أن أستر خبرى ، حتى أفاجئ موسى بن عيسى ، فأتسلمَ العمل منه ، فأعلمته أنه لا يقرأ لى ذكراً فى كتب أصحاب الأخبار حتى أوافِيَ مصر .

ثم كتب لى كتاباً بخطه إلى موسى بن عيسى بالتسليم وودعته ، وودعت يحيى ، وعدت إلى منزلى ، فخرجت منه من غد بكراً على بغلة لى ، ومعي غلام أسود ، يقال له أبو درة ، على بغل استأجرته ، معه خرج فيه قميص ومبطنة وطيلسان وشاشية وخف ومفرش صغير ، واكتريت لثلاثة من أصحابى أثق بهم ، ثلاثة أبغل

مياومة . وأظهرت أنى وجهت ناظرا فى أمور بعض العمال ، حتى بلغت الأنبار ، ثم تجاوزتها بلدا بلدا ، كلما وردت بلداً توهم من معى أنى قصدته ، وليس يعرف خبرى أحد من أهل البلدان التى أمرُّ بها فى نزولى ونفوذى . حتى وافيت الفسطاط ، فنزلت جناناً . وخرجت منه وحدى فى زِىّ مُتظلم أو تاجر فدخلت دارَ الإمارة وديوانَ البلد وبيتَ المال ، وسألت وبحثت عن الأخبار.

وجلست مع المتظلمين وغيرهم ، فمكثت ثلاثة أيام أفعل ذلك ، حتى عرفت جميع ما احتجت إليه .

فلما نامَ الناس فى ليلة اليوم الرابع دعوت أصحابى ، فقلت للذى أردت استكتابه على الديوان قد رأيتَ مصر ، وقد استكتبتك على الديوان ، فبكر إليه فاجلس فيه ، فإذا سمعتَ الحركة فاقبض على الكاتب ، ووكل به وبالكتاب والأعمال ، ولا يخرج من الديوان أحد حتى أوافيك

ودعوت بآخر ؛ فقلدته بيت المال ، وأمرته بمثل ذلك ؛ وكان بيت المال فى دار الإمارة ، وقلدتُ الآخرَ عملا من الأعمال بالحضرة ، وأمرتهم أن يبكروا ، ولا يظهروا أنفسهم حتى يسمعوا الحركة ، وبكرت فلبست ثيابى ، ووضعت الشاشية على رأسى ، ومضيت إلى دار الامارة فأذن موسى للناس إذنا عاما ، فدخلت فيمن دخل ، فاذا موسى على فرش ، والقواد وقوف عن يمينه وشماله ، والناس يدخلون فيسلمون ويخرجون ، وأنا جالس بحيث يرانى وحاجبه ساعة بساعة يقيمنى ، ويقول لى : تكلم بحاجتك ، فأعتل عليه ، حتى خف الناس ، فدنوت منه ، وأخرجت إليه كتاب الرشيد ، فقبله ، ووضعه على عينه ، ثم قرأه ، فامتقع لونه ، وقال : السمع والطاعة تقرى أباحفص السلامَ ، وتقول له : ينبغى أن تقيم بموضعك ، حتى نعدّ لك منزلا يشبهك ، ويخرج غدا أصحابنا يستقبلونك ، فتدخل مدخل مثلك ، قال : فقلت له ، أنا أعزك الله عمر بن مهران ، وقد أمرنى أمير المؤمنين باقامتك للناس ، وإنصاف المظلوم

منك ، وأنا قاتل ذلك ، فمن أوضح ظلامته ، ووجب له عليك حق ، غرمته عنك من مالى ، ومن وجدته كاذبا عاملته بحسب مايستحقه ، فقال لى موسى : أنت عمر بن مهران ؟ قلت : نعم ، فقال : لعن الله فرعون حيث يقول : « أليس لى ملك مصر ! » واضطرب الصوت فى الدار ، فقبض كاتبى على الديوان ، وصاحبى الآخر على بيت المال ، وختما عليهما ، ووردت عليه رقاع اصحاب أخباره بذلك ، فنزل عن فرشه ، وقال لا إله إلا الله ، هكذا تقوم الساعة! ماظننت أن أحداً بلغ من الحزم والحيلة مابلغت ، قد تسلمت الأعمال وأنت فى مجلسى ! ثم نهضت إلى الديوان ، فقطعت أمورَ المتظلمين منه ، وأزلت ظلاماتهم وقطعتها وأحسنت إلى موسى بن عيسى ، وانصرفت من مصر على بغلتى التى دخلتها عليها ، ومعى غلامى الأسود ، ولم أزد على ذلك شيئا ، وكان ذلك فى سنة ست وسبعين ومائة .

وكان بمصر قوم يدفعون[1] بالخراج ، ويكسرون بعضه ، فأحضر عمر أشدهم مدافعة وإلطاطاً فطالبه ، فاستمهله مدة فأمهله ، ثم طالبه ثانية ، فاستمهله فأمهله مدة ، ثم فعل ذلك فى الثالثة ، فلما حل الأجل دافعه أيضا ، فحلف بأيمان مؤكدة أنه لايستأديه إلا فى بيت المال بمدينة السلام ، ثم أشخصه إلى الرشيد ، وكتب إليه بخبره ، فبذل له الرجل أداء المال ، فأبى عليه أن يقبضه منه ، وأقام على ألا يؤديه إلاَّ فى بيت المال ، فخاف الناس جميعا منه مثل ذلك ، وسارعوا إلى الأداء فلم ينكسر له ، ولا تخلف درهم واحد .

وحكى أنه قال لغلامه أبى درة — وقد أهدى له أهل مصر هدايا كثيرة — لاتقبل[2] منها إلا مايدخل فى جراب ، لاتقبل[2] حيوانا ، فقبل من هدايا الناس الثياب والطيب والعين والورق ، وجعل يعزل كل هدية على حدتها ، ويكتب

---

١) فى القاموس الدفع المماطلة كالمدافعة ودفع ودافع بمعنى واحد .

٢) فى الاصل لايقبل فى الموضعين

عليها اسم صاحبها ، وجد فى استخراج مال مصر ، فزجا[١] منه نجمان ، وتأخر النجم الثالث وثلج[٢] أصحابه فجمعهم وقال لهم إنى قد حفظت عليكم ما أهديتموه إلىّ ، وأمر باحضاره وإحضار الجهبذ ، فما كان من عين أو ورق أجراه عمن أهداه اليه ، وما كان من ثوب أو غيره باعه وأخذ ثمنه ، حتى استغرق الهدايا كلها ونظر فيما بقى بعد ذلك فطالب به فسارع الناس إلى الاداء ، فيقال إنه عقد جماعة مصر من غير أن يبقى فيها درهم ، ولم يعهد ذلك من قبله .

وكتب عمر بن مهران إلى الخيزران بما كان منه ، وأكثر الاعتداد ، فكتبت اليه : قد وصل كتابك تذكر وتذكر . ولا تستكثرن شيئا يكون منك واستدم أحسن ما أنت عليه يدم أحسنُ ماعندى لك . واعلم أنه قل شىء لم يزد إلا نقص والنقصان يمحق الكثير كما ينمى على الزيادة القليل .

وكان عمر بن مهران وهو يكتب للخيزران فى ديوانها فى بعض الأيام فحضر الهيثم بن مطهَّر الفأفاء الشاعر بابها . فوقف على دابته ينتظر الاذن . فبعث اليه عمر : انزل عن دابتك . فقد جاء فى الحديث الكراهة لهذا . فقال : أنا رجل أعرج . وإن خرج من أنتظره خفت أن يفوتنى ولا أدركه . فبعث إليه . إن نزلت وإلا أنزلناك . فقال هو حبس فى سبيل الله إن أقضمته شعيراً شهراً إن أنزلتنى عنه . فأيما خير له . كد ساعة ، أو جوع شهر ؟ فقال هذا شيطان . وكف عنه .

وكان عمر بن مهران يأمر الوكلاء والعمال الذين يعملون معه أن يكتبوا على الرُّشوم التى يرشمون بها الطعام[٣] . اللهم احفظه ممن يحفظه[٤] .

---

١) فى القاموس : زجاه ساقه ودفعه ، وزجا الخراج تيسر جبايه والزجاء النفاذ فى الأمر ٢) ثلج كنصر وفرج ، اطمأنت نفوسهم واستراحوا والمراد بالأصحاب اصحاب النجم الثالث ٣) رشم الطعام ختمه . والراشوم والرَّوْشم الطابع ٤) لعله يريد حفظه ممن يحتكره ويمنعه الناس

ثم حج الرشيد وحج معه ابناه محمد وعبد الله وحج معه يحيى والفضل وجعفر فلما صار بالمدينة جلس ومعه يحيى فأعطى أهلها العطاء ، ثم جلس محمد بعده ومعه الفضل بن يحيى . فأعطاهم العطاء . ثم جلس بعده عبد الله ومعه جعفر ، فأعطاهم العطاء ، فأعطوا فى تلك السنة ثلاثة أعطية ، فكان أهل المدينة يسمون ذلك العام عامَ الثلاثة الأعطية ، ولم يروا مثل ذلك قط إلا فى أيام البرامكة .

وكان جعفر بن يحيى طالب محمداً لما حلف المأمون فى البيت الحرام أن يقول « خذلنى الله إن خذلته » فقال ذلك ثلاث مرات . فحكى الفضل بن الربيع ، فيما حدث ميمون بن هارون أن محمداً قال فى ذلك الوقت عند خروجه من بيت الله يا أبا العباس ، هو ذا أجد فى نفسى أن أمرى لا يتم ، فقال له . ولم ذاك أعز الله الأمير ؟ قال : لأنى كنت أحلف وأنا أنوى الغدر ، فقلت له سبحان الله ! أفى هذا الموضع ! فقال لى : هو ما قلت لك .

وفرغ الرشيد من توكيد ما قصد له من بيعة ابنيه ، وأخذ الأيمان لكل واحد منهما على صاحبه ، وعلى الناس لهما .

قال موسى بن يحيى : خرج أبى إلى الطواف وأنا معه من بين ولده فجعل يتعلق بأستار الكعبة ، ويردد هذا الدعاء : اللهم إن ذنوبى جمة لا يحصيها غيرك ، ولا يعرفها سواك ، اللهم إن كنت معاقبى فاجعل عقوبتى فى هذه الدنيا وإن أحاط ذاك بسمعى وبصرى ، ومالى وولدى ، حتى تبلغ منى رضاك .

وعلق الرشيد الكتب فى البيت الحرام ، وانصرف ، فنزل الأنبار ودعا الرشيد صالحاً صاحب المصلى حين تنكر للبرامكة ، فقال له : اخرج إلى منصور ابن زياد فقل له : قد صحت عليك عشرة آلاف ألف درهم ، فاحملها إلى فى يومك هذا ، فان هو دفعها إليك كاملة قبل مغيب الشمس من يومك هذا ، وإلا فاحمل رأسه إلىَّ ، وإياك ومراجعتى فى شىء من أمره . قال صالح : فخرجت إلى منصور ، وهو فى الدار ، فعرفته الخبر ، فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ! ذهبت

والله نفسي ! ثم حلف أنه لا يعرف موضع ثلاثمائة ألف درهم ، فكيف عشرة آلاف ألف درهم ، فقال له صالح : خذ في عملك ، فقال له : امض بي إلى منزلي ، حتى أوصي وأتقدم في أمري . فمضى ، فما هو إلى أن دخل ، حتى ارتفع الصراخ من منازله وحجر نسائه ، فأوصى وخرج وما فيه لحم ولا دم ، فقال صالح امض بنا إلى أبي علي يحيى بن خالد ، لعل الله أن يأتينا بفرج من جهته ، فمضى معه ، فدخل على يحيى وهو يبكي ، فقال يحيى : ماوراءك ؟ فقص عليه القصة ، فقلق يحيى بأمره ، وأطرق مفكراً ، ثم دعا خازنه ، فقال : كم عندك من المال ؟ قال : خمسة آلاف ألف درهم ، قال : أحضرني مفاتيحها ، فأحضرها ، ثم وجه إلى الفضل إنك أعلمتني أن عندك ، فداك أبوك ، ألفي ألف درهم ، قدرت أن تشتري بها ضيعة ، وقد أصبت لك ضيعة يبقى ذكرها وشكرها ، وتحمد ثمرتها . فوجه إلينا بالمال ، فوجه به . ثم قال للرسول : امض إلى جعفر ، فقل له : ابعث إلي ، فداك أبوك ، ألف ألف درهم لحق لزمني ، فوجه إليه ، فقال صالح : هذه ثمانية آلاف ألف درهم ، ثم أطرق إطراقه لأنه لم يكن بقي عنده شيء ، ثم رفع رأسه إلى خادم على رأسه ، وقال . امض إلى دنانير فقل لها . وجهي إلي بالعقد الذي كان أمير المؤمنين وهبك إياه . فجاء به ، فاذا عقد كمُعظم الذراع . فقال لصالح : اشتريت هذا لأمير المؤمنين بمائة ألف وعشرين ألف دينار ، فوهبه لدنانير ، وقد حسبناه عليك بألفي ألف درهم ، وهذا تمام المال ، فانصرف وخل عن صاحبنا . قال صالح . فأخذت ذلك ورددت منصوراً معي ، فلما صرنا بالباب أنشد منصور متمثلا .

فما بقيا عليَّ تركتماني ولكن خفتما صردَ النبال

فقال صالح : ما على ظهر الأرض كلها رجل هو أنبل من رجل خرجنا من عنده ولا سمعت بمثله فيمن مضى ، ولا يكون مثله فيمن بقي ، ولا على ظهر الارض رجل أخبث سريره ، ولا أردأ طبعا من هذا النبطي ، إذ لم يشكر من أحياه .

قال : وصرت إلى الرشيد فقصصت عليه قصة المال ، وطويت عنه ماقال منصور ابن زياد لأنى خفت إن سمعه أن يقتله ، فقال لى الرشيد . أما إنى قد علمت أنه إن نجا لم ينج إلا بأهل هذا البيت .

وقال اقبض المال ، واردد العقد على دنانير فانى لم أكن لأهب هبة وترجع إلى . قال صالح : فلم أطب نفسا بترك تعويف يحيى ماقاله منصور ، فقلت لما رأيته ، بعد أن أطنبت فى شكره ، ووصف ماكان منه ، ولقد أنعمت على غير شاكر ، قال لى أكرم فعل وألأم قول ، قال وكيف ذاك ؟ فأخبرته بما قال وما كان منه ، فجعل والله يطلب له المعاذير ويقول يا أبا على ، إن المنخوب القلب ربما سبقه لسانه بما ليس فى ضميره ، وقد كان الرجل فى حال عظيم فقلت : والله ماأدرى من أى أمريك أعجب ، امن الاول ؟ أم من الثانى ؟ ولكنى أعلم أن الدهر لايخلف مثلك أبداً .

وكان أبو الشمقمق صار إلى منصور بن زياد يسأله أن يبره ، وكان منصور ضيقا بخيلا ، فوهب له عشرات[1] الدراهم وبلغ الخبر محمد بن منصور ، فأرسل إليه محمد بمائة درهم ، وامره بالعودة اليه ليبره فأخذها وقام وهو يقول

لولا ابن منصور وإفضاله ٭ سلحت فى لحية منصور

فبلغ ذلك محمدا فقال : إنما خفنا هذا ، وما أفلتنا منه .

وكان جعفر يساعد الرشيد على كل شيء ، وكان يحيى يعتب على جعفر من دخوله مع الرشيد فيما يدخله فيه ، ويتخوف عليه من عاقبته ، فذكر ان يحيى كتب الى جعفر يوما فى شيء عتب عليه منه من هذا الجنس

« إنى إنما أهملتك ليعثر الزمان بك عثرة تعرف بها أمرك ، وإن كنت أخشى أن تكون التى لاشَرْوَى[2] لها »

١) فى الاصل عشرة الدراهم

٢) الشروى النظير . وهذا مثل قولهم لالعالها

وقال يحيى لهارون غير مرة : يأمير المؤمنين ، إنى أكره مداخل جعفر ، ولست آمن أن ترجع العاقبة علىّ فى ذلك منك ، فلو أعفيته ، واقتصرت على مايتولاه من جسيم أعمالك ، لكان أحب إلى وأولى بتفضلك ، وآمن عليه عندى ؛ فقال له الرشيد : ليس بك هذا ، ولكن بك أن تقدّم عليه الفضل ، وكان الفضل لايشرب النبيذ ، فظن الرشيد أنه يتيه عليه ، فكان يعتب عليه

حدثنى أبو الفرج محمد بن جعفر بن حفص ؛ قال : حدثنى أبى قال حدثنى بختيشوع بن جبريل ؛ قال : حدثنى أبى ، وكان صنيعة البرامكة ـ أنه دخل على الرشيد يوما وهو جالس على بساط ، على مشرعة باب خراسان ، فى بين الخلد والفرات[1] وأم جعفر من وراء ستر ، فقال لى : قد وجدت أم جعفر شيئا ، فأشر عليها بما تعمل به ، قال : فبينا أنا أنظر فى ذلك ارتفعت صيحة عظيمة ، فسأل عنها ، فقيل له : يحيى بن خالد ينظر فى أمور المتظلمين ، فقال : بارك الله عليه وأحسن جزاءه ، فقد خفف عنى وحمل الثقل دونى ، وناب منابى ، وذكره بجميل فقعلت مثل ذلك أم جعفر ، ولم تدع شيئا يذكره أحد من جميل إلا ذكرته به . فامتلأتُ سروراً ، وقلت فى ذلك بما أمكننى ، وخرجت مبادراً إلى يحيى بن خالد ، فخبرته بذلك ، فسر به . ومضت مدة ، ثم جاءنى رسول الرشيد يوما ، فصرت إليه ، فوجدته جالسا فى ذلك المجلس بعينه ، وأم جعفر من وراء الستر أيضاً ، والفضل بن الربيع بين يديه ، وقد وجدت أم جعفر شيئا ، فأمرنى بتأمل علتها ، والمشورة بما أراه عليها ، فإنى لفى ذلك إذ ارتفعت ضجة شديدة ؛ فقال الرشيد : ما هذا ؟ فقيل يحيى بن خالد ينظر فى أمور المتظلمين ، فقال : فعل الله به وفعل ! يذمه ويسبه ، استبد بالأمور دونى ، وأمضاها على غير رأيى ، وعمل بما أحبه دون محبتى . وتكلمت أم جعفر بنحو من كلامه ، وثلبته أكثر ما يثلب به أحد . فورد علىّ من ذلك ما أقلق وأقعد ، ثم أقبل على الرشيد ، فقال

---

١) لعل الصواب دجلة

لى : ياجبريل ، إنه لم يسمع كلامى غيرك وغير الفضل ، وليس الفضل ممن يحكى شيئاً عنه ، وعلى وعلىّ لئن تجاوزك لأُتلفن نفسك

قال : فتبرأت عنده من ذكره ، وأكبرت الإقدام على حكاية شىء منه ، ومما يجرى فى مجلسه ، وانصرفت ، فلم أصبر ، وقلت : والله إن تلفت نفسى فى الوفاء لم أبال ، وصرت إلى يحيى ، فعرفته ماجرى ، فقال لى أتذكر وقد جئتنى فى يوم كذامن شهر كذا ، وأنا فى هذا الموضع ، فحكيتَ لى عن أمير المؤمنين الإحماد والثناء ، والشكر والدعاء ، وعن أم جعفر مثل ذلك ؟ فقلت نعم ، وعجبت من حفظه الوقتَ ، فقال لى إنه لم يكن منى فى هذه الحال التى ذمنى فيها شىء لم يكن منى فى ذلك الوقت الذى أحمدنى فيه ، واسكن المدة إذا آذنت بالانقضاء جعلت المحاسن مساوىء ، ومن أراد أن يتجنى قدر ، نسأله حسن الاختيار

وكان جبريل بن بختيشوع صنيعة البرامكة ، وكان يقول للمأمون كثيراً هذه النعمة لم أفدها منك ولا من أبيك ، هذه أفدتها من يحيى بن خالد وولده .

وصرف الرشيد الفضل بن يحيى عن الأعمال التى كان يتقلدها أولا أولا ، ثم ظهر من الرشيد فى سنة ثلاث وثمانين ومائة سخط على الفضل بن يحيى ، فشخص إليه الى الرقة ، ومعه أمه زبيدة بنت منير ، فرضى عنه ، وأقره مع الأمين لحضانته ، ولم يردّ إليه شيئاً من أعماله .

ولما أحس يحيى من الرشيد بالتغير ، ركب إلى صديق له من الهاشميين فشاوره فى أمره ، فقال : إن أمير المؤمنين قد أحب جمع المال ، وقد كثر ولده ، وأحب أن يعتقد (١) لهم الضياع ، وقد كثر على أصحابك عنده ، فلو نظرت إلى ما فى أيديهم من ضياع وأموال فجعلتها لولد أمير المؤمنين ، وتقربت بها إليه ، رجوت لك السلامة ولهم فى ذلك من مكروهه

١) يعتقد الضياع يقتنيها ويملكها

فقال يحيى : يا أخى ، جعلنى الله فداك ، لأن تزول عنى النعمة أحب إلىّ من أن أزيلها عن قوم كنت سبباً لهم .

ودخل يحيى على الرشيد لما ابتدأت حاله فى الفساد وهو خال فرجع ، فعرف خبره ، فقال لبعض الخدم : الحق يحيى فقل له : خنتنى فاتهمتنى ! فقال للرسول تقول له : يا أمير المؤمنين إذا انقضت المدة كان الحتف فى الحيلة ، ووالله ما انصرفت عن خلوتك إلا تخفيفاً عنك .

وهذا كلام لعلى بن أبى طالب كرّم الله مثواه ، إذا انقضت المدة كان الهلاك فى العدة . وسرق هذا المعنى ابن الرّومى فقال :

غلط الطبيب علىّ غلطة مورد عجزت محالته عن الإصدار
والناس يلحون الطبيب وإنما غلط الطبيب إصابة المقدار

وكان الرشيد بعد صرف الفضل بن يحيى عن خراسان قلد علىّ بن عيسى ابن ماهان ، لتكثير وقع عنده على الفضل فى الأموال ؛ فقتل على بن عيسى وجوه أهل خراسان وملوكها ، وجمع أموالا جليلة ، فحمل إلى الرشيد ألف بدرة معمولة من ألوان الحرير ، وفيها عشرة آلاف ألف درهم ، فلما وصلت إليه سر بها ، وأحضر يحيى بن خالد ، فقال له : يا أبة ، أين كان الفضل عن هذا ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، إن خراسان سبيلها أن تحمل إليها الأموال ، ولا تحمل منها ؛ والفضل أصلح نيات رؤسائها ، واستجاب طاعتهم ، وعلىّ بن عيسى قتل صناديد أهل خراسان وطراخنتها (١) ، وحمل أموالهم ، ولو قصدت لدرب من دروب الصيارف بالكرخ ، لوجدت فيه أضعافَ هذه ، وسينفق أمير المؤمنين مكان كلّ درهم منها عشرة ؛ فثقل هذا القول منه على الرشيد . فلما انتقض أمر خراسان ، وخرج رافع بن الليث ، واحتاج إلى النهوض إليها

١) الطراخنة جمع طرخان . بفتح الطاء وإسكان الراء الرئيس الشريف وهى لغة خراسانية

بنفسه ، حتى صار إلى طوس جعل يتذكر هذا الحديث ، ويقول صدقنى والله يحيى ونصح لى فلم أقبل منه . والله لقد أنفقت مائة ألف ألف وما بلغت شيئاً .

وذكرت بهذا الحديث ما حُكى عن عبد الملك بن مروان فى أمر الحجاج : وذلك أنه كان الحجاج حمل إلى عبد الملك هدية ومالاعظيما كثيراً ، وهو بحمص فأبرز سريره وجمع الناس ، وكان فيمن حضر خالد وأمية ، ابنا عبد الله بن أسيد . فلما نظر إلى الهدية والمال قال : هذه والله الأمانة والحزم والنصيحة ، ثم أشار إلى خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد ، فقال : إنى استعملت هذا على البصرة . فاستعمل كلّ فاسق ، فجبى عشرة ، واختان تسعة ، ورفع إلى هذا درهما ، فدفع إلى هذا من الدرهم سدسا ، واستعملت هذا — يعنى أخاه — على خراسان وسجستان ، فبعث إلى بمفتاح من ذهب ، زعم أنه مفتاح مدينة وفيل وبرذونين حطيمين [1] واستعملت الحجاج ، ففعل كذا . فاذا استعملتكم ضيعتم ، وإذا عزلتكم قلتم قطع أرحامنا ، قال : فأراح خالد إراحة الفرس ، ثم قال استعملتنى على البصرة وأهلها رجلان مطيع مناصح ، مخالف مشايح ، فأما المطيع فانى جزيته بطاعته ، فازداد رغبة ، وأما المخالف فانى داويت عداوته واستللت ضغينته ، وحشوت صدره ودا ، وعلمت أنى متى أصلح الرجال أجب الاموال ، واستعملت الحجاج فجبى لك المال ، وكنز العداوة فى قلوب الرجال ، فكأنك بالعداوة التى كنزها قد ثارت وأنفقت الأموال ، ولا مال ولا رجال ، فسكت عبد الملك .

فلما كان هيج الجماجم جلس عبد الملك على باب ذى الأكارع ومعه خالد يندب الناس إلى الفريضة ، ويتأمل خالدا ويذكر قوله ويضحك .

وأمر الرشيد يحيى بن خالد بالتقدم فى هدم إيوان كسرى ، فقال لا تهدم بناء دل على فخامة شأن بانيه الذى غلبته وأخذت ملكه ، قال هذا من ميلك إلى المجوس ،

١) الحطيم المصاب فى قوائمه والحطيم الضعيف إعياء .

لا بد من هدمه . فقدر النفقة على هدمه شيء استكثره الرشيد ، وأمر بترك هدمه فقال له يحيى لم يكن ينبغي لك أن تأمر بهدمه . وإذ قد أمرت فليس يحسن بك أن تظهر عجزا عن هدم بناء بناه عدوك ، فلم يقبل قوله ولم يهدمه .

وكان الفضل بن سهل بن زاذانفروخ من قرية من السيب الأعلى ، تعرف بصابرنيثا ، وكان له عم يدعى يزيد بن زاذانفروخ ، فتوكل يزيد بجارية لعاصم بن صبيح ، مولى داود بن علي بالسيب ، وكان ليزيد ولأهله بالسيب قطيعة وبيت ، فأحسن القيام بها ، وبما توكل فيه ووفر ماله ، وحظى عند صاحبته حظوة شديدة فاتهمه عاصم لما رأى من إفراط حظوته . فدعا به وهو سكران ، فضربه ضربة بالسيف مات منها . ووكل بضيعته ومنزله فصار سهل بن زاذانفروخ أخوه إلى باب يحيى بن خالد متظلما من عاصم بن صبيح في أمر ضيعته ومنزله ، ومطالبا بدم أخيه وهو مجوسي بعد فاتصل بسلام بن الفرج مولى يحيى بن خالد معتصما به ، ومستعينا بيده على ظلامته ، فحماه وأنفذ معه مولى له يقال مرشد الديلمي في جماعة ، حتى انتزع الضيعة والمنزل من يدي وكيل عاصم . وأقر ذلك في يدي سهل . وخالط ولده وأسبابه ، وأسلم سهل بن زاذانفروخ على يدي سلام .

وتظلم عاصم بن صبيح إلى يحيى بن خالد من سلام . فدعا به ، وأنكر عليه . فاقتص عليه القصة . وأحضره سهلا حتى قام بحجته . فتبين أن الحق له . فعاونه عليه وكف عاصما عنه . ولم يزل سلام يذب عنه . ويقوم بأمر ضيعته . وسهل يخدمه ويلزمه ، حتى خالط أسباب البرامكة . فأحضر ابنيه الفضل والحسن . فاتصل الفضل بن سهل بالفضل بن جعفر ، وتقلد قهرمته ، واتصل الحسن بن سهل بالعباس ابن الفضل بن يحيى وخدمها وعرفها يحيى بن خالد ، ورعى لهما ولايتهما ، وكان يحافظ على يسير الخدمة ، فنقل الفضل بن سهل ليحيى كتابا من الفارسية إلى

---

(1) في ياقوت صابرنيثا من قرى السيب الأعلى من أعمال الكوفة منها كان الفضل ابن سهل بن زاذانفروخ وزير المأمون وصاحب أمره .

العربية ، فأعجب بفهمه ، وبجودة عبارته ، فقال له إني اراك ذكياً ، وستبلغ مبلغاً رفيعاً فأسلم حتى أجد السبيل إلى إدخالك فى أمورنا ، والاحسان إليك ، قال نعم أصلح الله الوزير ، أسلم على يديك ، فقال له يحيى : لا ، ولكن أضعك موضعا تنال به حظاً من دنيانا ، ودعا بسلام مولاه ، فقال : خذ بيد هذا الفتى ، وامض به إلى جعفر ، وقل له يدخله إلى المأمون ، وكان فى حجر جعفر ، حتى يسلم على يديه ، فأدخله جعفر إلى المأمون ، فأسلم على يديه ، فوصله وأحسن إليه ، وأجرى عليه رزقا مع حشمه ، ولم يزل ملازما للفضل بن جعفر حتى أصيب البرامكة ، فلزم المأمون

ووجدت بخط أبي علي أحمد بن إسماعيل نطاحة ، أن جعفر بن يحيى بن لما عزم على استخدام الفضل بن سهل للمأمون قرظه يحيى بن خالد بحضرة الرشيد ، فقال له الرشيد : أوصله إلىّ . فلما وصل إليه أدركته حيرة فسكت ، فنظر الرشيد إلى يحيى نظرة منكر لاختياره ، فقال له الفضل يا أمير المؤمنين ، إن أعدلَ الشواهد على فراهة المملوك أن تملك قلبه هيبة سيده ، فقال له الرشيد لئن كنت سكتّ لتصوغ هذا الكلام ، لقد أحسنت ، ولئن كان بديهة لهو أحسن وأحسن . ولم يسأله بعد ذلك عن شيء إلا أجابه بما يصدّق تقريظَ يحيى له .

وذكر الفضل بن مروان أنه كان بالبَرَدان ، وكان معه إسحاق بن سورين ، قال فمرّ بنا الفضل بن جعفر بن يحيى بن خالد على فرس عُرْي ، وعليه جبة وشي ، وهو بغير سراويل ولا خف ، وبيده سيف مشهر ، وخلفه مجوسي طويل العنق ، فوقف المجوسي علينا . فاستسقى ماء . فأتي بماء فى كوز خزف أخضر . فقال المجوسي إنكاراً للكوز الخزف : أوشك أن تذهب الدهقنة حتى لا يبقى لشيء منها أثر ! أين الفضة ؟ فقال له إسحاق : حظرها الإسلام . قال فأين الزجاج ؟ قال منع منه غلظ الهواء ، فأخذ الكوز ، فشربه ، ثم قال له إسحاق

أما ترى إلى صاحبكم هذا مايصنع بنفسه ؟ فقال اجتمع له سكر الشباب، وسكر الشراب، وسكر السلطان، وسكر الجدة، وسكر السخاء. ومضى بتيمه. فسألنا عنه. فقيل هذا الفضل بن سهل كاتبه.

وقد حكى مثل هذا الكلام عن محمد بن على بن عبد الله بن عباس فى آل مروان. حدث علىّ بن عيسى. قال: كنا بالشَّراة، وكنا نرى ما فيه آل مروان من دنياهم. فيذكر ذلك لأخينا محمد بن على. فيعزينا عنه. ويقول: إذا اجتمع سكر الشباب، وسكر السلطان، وسكر المال: لم يبق من القلب شيء.

وذكر أبو العلاء المذارى أنه سمع الفضل بن سهل يقول: قال لى يحيى بن خالد: فى كل أربعين سنة يحدث رجل يجدّد الله به دولة. وأنت عندى منهم

وكان عمر بن مساور الكاتب فى ناحية البرامكة، وكان فى ناحية الفضل ابن الربيع أولا، وكان يتقلد بعض أعمال [الأ]هواز: فقال فيه أبو الشمقمق:

أنا بالأهواز جار لعمر لعظيم زعموا ضخم الخطر
لا يرى منه علينا أثر لا يكون الجود إلا بأثر
إن تكن وُرْقك عنا حجزت يا أبا حفص فجد لى بحجر
يكسر الجوزَ به صبياننا وإذا ما حضر اللوز كسر

وصرف الرشيد محمد بن خالد بن برمك عن حجابته، وقلدها الفضل بن الربيع، فى سنة تسع وسبعين ومائه.

وكان يحيى ولى رجلا بعضَ أعمال الخراج، فدخل به إلى الرشيد ليراه ويوصيه، فقال ليحيى بن خالد ولجعفر ولده: أوصياه. قال له يحيى وفر واعمر، وقال له جعفر أنصف وانتصف، وقال له الرشيد اعدل وأحسن.

حدثنى عبد الواحد بن محمد، قال: كان العتابى يقول بالاعتزال، فاتصل ذلك بالرشيد، وكثر عليه فى أمره، فأمر فيه بأمر عظيم، فهرب إلى اليمن، فكان مقيما بها، فاحتال يحيى بن خالد إلى أن أسمعَ الرشيد شيئا من رسائله

وخطه ، واستحسن الرشيد ذلك ، وسأل عن الكلام لمن هو ؟ فقال هذا للعتابى ولو حضر حتى يسمع منه الأمين والمأمون هذا الكلام ، ويصنع لهما خطباً لكان فى ذلك صلاح ، فأمر بإحضاره ، وأخذ الأمان له . فاتصل الخبر بالعتابى فقال :

مازلتُ فى سكرات الموت مطَّرحاً قد غاب عنى وجوه الأمر من حيلى
فلم تزل دائباً تسعى لتنقذنى حتى استللت حياتى من يدى أجلى

وكان منصور النمرى الشاعر مدح الرشيد بقصيدة طويلة ، قال فيها :

إن أخلف القطر لم تخلف مخايله أو ضاق أمر ذكرناه فيتسع

وكان شكا قبل إنشاده هذا البيت إلى كلثوم بن عمرو العتابى عسر الولادة على زوجته . فلما أنشد هذا البيت قال له العتابى : اكتب على فرج زوجتك « هارون »

فذكر هذا النمرى للرشيد ، فأمر بضرب عنق العتابى ، حتى شفع فيه يحيى ابن خالد ، واستوهب دمه ، فصفح له عنه .

وذكر أبو الفضل بن عبد الحميد : أن الرشيد أمر لحمدونة بإقطاع غله مائة ألف درهم ، وألف ألف درهم صلة ، فصار كاتبها بالتوقيع إلى ديوان الضياع ففارقهم على بر دافعهم عنه ، ولم يف لهم بحمله ، فزاد بعضهم فى التوقيع عند موضع الواو من « وألف ألف درهم » ألفاً ، فصارت « أو ألف ألف درهم » فذكر الكاتب ذلك لحمدونة ، فشكته إلى الرشيد ، فقال لها : أحسب أن كاتبك هذا الجاهل لم يبر الكتاب ، وأعاد التوقيع ، وأمرها أن تبر الكتاب بما يرضيهم .

ولم يزل جعفر بن يحيى مع الرشيد فى حاله فى الأنس والانبساط ، إلى أن ركب فى يوم جمعة مستهل صفر سنة سبع وثمانين ومائة إلى الصيد ، وجعفر يسايره خالياً ، وانصرف ممسياً إلى النعمر للذى كان ينزله بالأنبار ، وهومعه ،

فضمه إليه ، وقال له : لولا أني أريد الجلوس الليلة مع النساء لم أفارقك ، فصار جعفر إلى منزله ، وواصل الرشيد الرسل إليه بالألطاف إلى وجه السحر ، ثم هجم عليه مسرور الخادم ومعه سالم وابن عصمة ، فحمل وضربت عنقه ، وأتى الرشيد برأسه

وكانت سنه سبعاً وثلاثين سنة ، وأنفذ الرشيد جثته إلى مدينة السلام ، مع هرثمة بن أعين ومسرور وسلام الخادمين ، فقطعت بنصفين ، وصلبتا على الجسرين ، ونصب رأسه بمدينة السلام ، وحبس الفضل ومحمد وموسى بنو يحيى ووكل سلام الأبرش بباب يحيى ، ولم يعرض الرشيد لمحمد بن خالد ، ولا لأحد من أسبابه .

وذكر أن مسروراً[1] لما هجم على جعفر بن يحيى ، وعرفه ما أمر به في أمره ، قال له : يا أبا هاشم : الحرمة والمودة ، فقال : مالي في أمرك حيلة ، فقال جعفر : هذه خمسون ألف دينار[2] اقبضها ، واحمني معك غير مقتول ، وأعلم أمير المؤمنين أنك قد امتثلت ما أمرك به ، فإن أمسك عنك تركتني حتى يسألك عني ، فتعلمه أنك أشفقت من قتلي خوفا من أن يكون ماأمر به من عمل النبيذ ، أو بادرة يندم عليها ، فاستظهرت بتركي وتمضي بعد ذلك مايأمرك به ، وإن تكن الأخرى فأنت من المال في حل وسعة ، ففعل ذلك مسرور ، وحمله إلى مضرب الرشيد بالعمر فوكل به فيه ، واستظهر بأن قيده ، ثم دخل إلى الرشيد وهو جالس على كرسي ينتظره ، فلما رآه قال : مافعلت ؟ قال : امتثلت ما أمر به أمير المؤمنين ، قال : فأين رأسه ياابن الفاعلة ؟ فرجع مسرور يعدو حتى أخذ رأسه في بريكة قبائه ، فألقاه بين يديه ، وحملت جثته والقيد فيها ، وصاب

---

١) يروى المسعودي أن الذي تولى قتله ياسر ، وذكر أن الرشيد أمر بياسر أن يقتل بعده وقال لا أستطيع أن أرى قاتل جعفر !

٢) في الأصل خمسون ألف ديناراً

وهو فى رجليه .

قال سلام الأبرش . لما دخلت على يحيى فى ذلك الوقت ، وهتكت الستور وجمعت المتاع ، قال لى غير متغير ولا مضطرب : يا أبا سلمة هكذا تقوم الساعة ثم بلغه قتل جعفر . فقال : الحمد لله ، فانى بفضل ربى واثق ، وبالخيرة منه عالم ولا يؤاخذ الله العباد إلا بذنوبهم ، وما ربك بظلام للعبيد ، وما يغفر الله أكثر ولله الحمد على كل حال .

وأنفذ الرشيد مسروراً والحسن والخادمين وأبا صالح يحيى بن عبد الرحمن الكاتب ، وإبراهيم بن حميد الكاتب ، فقبض مالهم وعقاراتهم وضياعهم بالعراق ، وكانت مدتهم فى الوزارة سبع عشرة سنة .

وذكر مسرور : أنه دخل على جعفر فى الليلة التى قتله فيها ، وبين يديه أبو زكار الأعمى المغنى وهو يغنى :

عَدانى أن أزورك غير بغض ... مقامُكَ بين مصفحة سِداد
فلا تبعد فكل فتى سيأتى ... عليه الموت يطرق أو يغادى

فقلت له يا أبا الفضل ، الذى جئت له والله من ذاك قد والله طرقك فأجب أمير المؤمنين ، قال . فدعنى حتى أوصى ، فتركته حتى أوصى بما أراد ، وأعتق مماليكه ، وأتتنى رسل أمير المؤمنين تستحثنى لحمله . فقال الرقاشى :

ألآن استرحنا واستراحت ركابنا ... وامسك من يجدى ومن كان يجتدى (١)
فقل للمطايا قد أمنت من السرى ... وقطع الفيافى فدفدا بعد فدفد
وقل للمنايا قد ظفرت بجعفر ... ولن تظفرى من بعده بمسود
وقل للعطايا بعد فضل تعطلى ... وقل للرزايا كل يوم تجددى
ودونك سيفاً برمكياً مهنداً ... أصيب بسيف هاشمى مهند

وقال فيه أيضاً :

١) رواية المسعودى الآن ارحنا

أما والله لولا خوفُ واش ... وعـين للخليفة لا تنام

لطفنا حولَ جذعك واستلمنا ... كما للناس بالحجر استلام

وما أبصرت قبلك يا ابن يحيى ... حساما قده السيف الحسام

على المعروف والدنيا جميعا ... بدولة آل برمك السلام

وقال آخر (١) :

يا بنى برمك واها لكم ... ولأيامكم المقتبله

كانت الدنيا عروسا بكم ... فهى الآن ثكول أرمله (٢)

وحكى أن الرشيد قال للسندى بن شاهك ، وكان يلى الجسرين ببغداد ، إذا كان بعد سنة من يومك هذا ، فوكل بدار البرامكة وأسبابهم سرا . قال السندى فلما كان ذلك الوقت ، وكان الرشيد يعمر الأنبار ، ومعه جعفر ، وكلت بدورهم سرا ، على خوف منى ووجل ، أن يبدو للرشيد فى الرأى ، وأن يتصل خبر توكيلى بهم ، فيكون سبب هلاكى ، فظللت يومى مهموماً ، فلما أمسيت قمت لياتى فى المجلس بالجسر فى الجانب الشرقى ، أتوقع خبرا يرد علىّ من الرشيد ووكلت من يراعى رسولا أو كتاباً يرد من الرشيد ، فلما كان فى السحر وافى فرانق ينعر على بغل ، تحته خُرج فيه جثة جعفر مقطوعة بنصفين ، وكتاب الرشيد إلىّ بصلب كل نصف على أحد الجسرين ، ففعلت ذلك .

فلما كان بعد سنة من ذلك ، خرج الرشيد فجلس فى مجلس الجسر الشرقى ، وأحرق جثة جعفر

وكان قد قدم من اليمن بالهيضم (٣) ، وكان قد خرج بها ، وبأسراء معه فقدمهم فضرب أعناقهم بين يديه ، وكان آخرهم عديلا للهيضم ، فلما تقدم السياف لضرب عنقه ، قال قل لأمير المؤمنين إن عندى نصيحة

---

١) يروى المسعودى انه ابو وجزة الاعرابى أو ابو نواس ٢) كتب فى هامش الاصل ويروى اليوم ٣) هكذا فى الاصل ولم نعثر عليه فى معاجم البلدان وإنما جاء فيها المضيم

قال السندى فوقف السياف عن ضرب عنقه ، وأخبرنى بما قال ، فأتيته وقت ما نصيحتك ؟ قال أعلم أمير المؤمنين أنى الحنفى - وهو أبو عبد الله الذى كان يغنى المتوكل - وأنى أحذق الناس بغناء المعزفة وضربها ، ولم تكن المعزفة عرفت بالعراق قبل ذلك

قال السندى فأعلمت الرشيد ، قال فأمره بالإمساك عنه واستبقائه ، ثم دعا به من يومه وقد جلس للشرب . فغناه فأطربه ، فوهب له ثلاثين ألف درهم . وصيره فى جملة المغنين (١) الذين يحضرون مجالسه .

وحكى عن الأصمعى قال : لما قتل الرشيد جعفر بن يحيى أرسل إلىّ ليلا ، فراعنى ، وأعجلنى الرسل ، فزادوا فى وجلى ، فصرت إليه ، فلما مثلت بين يديه أومأ إلى بالجلوس ، فجلست ، ثم قال [يا أصمعى ، قد قلت شعراً فاسمعه قلت نعم يا أمير المؤمنين فأنشد] (٢)

لو أن جعفر خاف أسباب الردى (٣) لنجا بمهجته طمرّ ملجم
ولكان من حذر المنون بحيث لا يرجو اللحاق به العقاب القشعم
لكنه لما تقارب يومه لم يدفع الحدثان عنه منجم

ثم قال لى الحق بأهلك . فنهضت ولم أحر جواباً ، وفكرت فلم أعرف لما كان منه معنى ، إلا أنه أراد أن يسمعنى شعره فأحكيه .

[قال الأصمعى ورجعت إلى منزلى فلم أصر إليه حتى تحدث الناس بقتل جعفر] (٤)

قال ميمون حدثنى عبيد الله بن سليمان بن وهب ، قال حدثنى إسحاق بن منصور قال . قال لى محمد بن الحصين الأهوازى . كنا مع جعفر بن يحيى بالرقة فنحن بين يديه ، وهو يأمر وينهى ، إذ خلا بأنس بن أبى شيخ ناحية ،

---

١) فى الاصل المغنيين بياءين والصواب ما اثبته ٢) الزيادة عن المسعودى فى المروج
٣) فى المروج هاب اسباب الروى ٤) زيادة عن المسعودى

ونحن نراه ، فأدخل صاحب الشرطة رجلا من أهل الذمة ، فوقفه من بعيدودنا من جعفر ، فقال له قد أحضرت الرجل الذى أمرت بإحضاره . قال فقطع ما كان فيه مع أنس . والتفت ينظر إليه . قال وكان الرشيد قد أمر أهل الذمة بتغيير اللباس والمركوب . ثم قال له وهو رافع صوته ما اسمك ؟ قال فلان ابن فلان . قال أبو من ؟ قال أبو فلان ، قال أنت الحرنانى[1] ؟ قال نعم. قال الرقعة التى رفعتها رقعتك ؟ قال نعم . قال وما فيها عنك ، وأنت تقوله ؟ قال نعم ، قال : فأطرق جعفر ساعة ثم التفت إلى صاحب الشرطة ، فقال : خذه إليك ، فإن أمير المؤمنين قد أمرك بقتله وبصلبه . فارتعنا لذلك القول ، ولم نعرف الرجل ، ولا الذى فى رقعته . قال : فأخذ صاحب الشرطة بيده

فقال له أنس بن أبى شيخ : اصلبه على أطول عود بالرقة ، قال فالتفت إليه الحرنانى فقال إن شاء على أطول عود ، وإن شاء على أقصره ، ليس والله بعدى غيرك . قال : فعجبنا من صرامته ، ومن ذلك القول ، وذهب به فقتل وصلب

قال فانتقلنا من موضع إلى موضع ، ومن بلد إلى بلد ، وكان بين هذا القول وبين الحادث على البرامكة ثلاث سنين أو نحوها ، فقتل جعفر بن يحيى بالأنبار وحملت جثته إلى بغداد ، فصلبت على الجسرين قطعتين

فلما دخل الرشيد الرقة قال لهم : ما فعل الحرنانى الذى كان قال لجعفر ما قال ، وما فعلت خشبته ؟ فقيل له : الخشبة على حالها ، وجسم الحرنانى على حاله ، إلا أنه قد بلى وبقى منه العظام

فقال : أنزلوه من الخشبة واصلبوا جثة أنس عليها . فرأيت أنسا على تلك الخشبة ، ولم نعرف قصة الحرنانى ولا ما كان من أمره ، وعجبنا من انتهاء الخبر فى ذلك إلى الرشيد ، وما قال الحرنانى لجعفر ، وصحة قوله .

١) الحرنانى نسبة إلى حران على غير قياس ، ومثل ذلك النسب إلى مانى منانى ، والقياس مانوى

حدثنا محمد بن يحيى المروزىّ ، قال حدثنا أبو عثمان عمرو بن بحر [الجاحظ] قال كان أنس بن أبى شيخ يكتب لجعفر بن يحيى ، وكان ذكيا فهما ، نقىّ الألفاظ ، جيد المعانى ، حسن البلاغة ، فقتل مع جعفر بن يحيى

حدثنا محمد بن سعد عن أبيه قال : حدثنى الخريمى ، قال كنت يوما عند الفضل بن يحيى ، فدخل أنس فتحدث ، وأنشد . وتملح . وأندر . فأحسن فى جميع ذلك ، والفضل ينظر إليه ما ينبض منه عرق ، فأمسكت لإمساكه ، فلما قام قلت : من هذا ، جعلت فداك ؟ فقال : هذا أنس عشيق صديقك أبى الفضل ، وما أدرى ما أعجبه منه إلا القدر المتيح ذلك . ثم كنت بعد ذلك عند جعفر بن يحيى ، فدخل سعيد بن وهب الشاعر ، فتحدث . وأنشد . وتملح وروى ، وأتى بكل شىء حسن ، وجعفر ينظر إليه ما ينبض له عرق ، فلما قام قلت جعلت فداك ، من هذا ؟ قال عشيق صديقك أبى العباس ، هذا سعيد ابن وهب . فما أدرى ما أعجبه منه لولا القدر الذى أتاح له ذاك . وكنت أعرف الناس بأنس وبسعيد ولكنى تجاهلت .

وذكر الجاحظ فى كتاب البيان والتبيين أن رجلا دخل على أنس بن أبى شيخ ، ورأسه على مرفقه . والحجام يأخذ من شعره ، قال فقلت له ما يحملك على هذا ؟ فقال لى الكسل . قال فقلت له إن لقمان قال لابنه : إياك والكسل ، إياك والضجر . قال ذاك والله لأنه لم يعرف لذة الكسل والفسولة .

ومما حفظ من كلام أنس : إن الله جل ثناؤه جعل الدنيا دار بلوى ، والآخرة دار عقبى . فجعل بلوى الدنيا عوضاً . فيأخذ ما يأخذ مما يعطى . ويبتلى ما يبتلى به ليجزى .

وأقيم لولد يحيى ما يحتاجون إليه من مطعم ومشرب وملبس ، ولم يقيد أحد منهم ، وقيد جميع كتابهم وقهارمتهم وحاشيتهم وأسبابهم ، ولم يحبس يحيى . وبقى فى منزله موكلا به ، ثم وجه إليه الرشيد يخيره أى موضع شئت

وأقم به . فوجه إليه : إن كنت راضياً عنى فأحب المواضع إلىّ أن أقيم فيه مكة أو بعض الثغور ، وإن لم ترض عنى فلست أبرح من موضعى أو ترضى عنى . وكان الرشيد كتب ليحيى كتاباً بخطه . يحلف له فيه بأيمان مغلظة : أن لا يبدؤه بسوء . ولا يناله بمكروه فى نفسه ولا ولده . ولا فى شىء من ماله وحاله . وأشهد بذلك على نفسه جميع أهله . ووجوه قواده وأصحابه ، فدفع يحيى الكتاب إلى الفضل ولده . وأمره بحفظه . فكان عنده إلى أن أخذ فيما أخذ من خزائنه . ولم يوجد ليحيى بن خالد إلا خمسة آلاف دينار . وللفضل إلا أربعين ألف درهم . ولم يوجد لموسى شىء . ولا لجعفر شىء . ووجد لمحمد ابن يحيى سبعمائة ألف درهم .

وقد ذكر الحارث بن أبى أسامة فى كتاب أخبار الخلفاء : أنه وجد لجعفر ابن يحيى بركة فى داره التى فى سويقة جعفر . فيها أربعة آلاف دينار ، وزن كل دينار مائة دينار ودينار ؛ وعلى كل دينار من أحد جانبيه :

وأصفر من ضرب دار الملو ... ك يلوح على وجه جعفر

ومن الجانب الآخر :

يزيد على مائة واحداً ... إذا ناله معسر يسر

ورأت دنانير ، جارية يحيى بن خالد ، بعد تقضى الأمر عنهم ، وتقضى أيامهم ، جماعة من أصاغر أولادهم يلاعبون صبيان العامة . وقد خالطوهم ، فقالت :

كأنهم وبنو الغوغاء حولهم ... درّ وخشلب فى الأرض منثور

قال ميمون بن هارون : قيل لعتابة[1] أم جعفر بن يحيى ، بعد نكبتهم ، وهى بالكوفة فى يوم أضحى ما أعجب ما رأيت ؟ فقالت : لقد رأيتنى فى مثل هذا اليوم وعلى رأسى مائة[2] وصيفة ، لبوس كل واحدة منهن وحليها خلاف

---

١) فى المروج عبادة أم جعفر ٢) فى المروج اربعمائة وصيفة وإنى أعد ابنى عاقا

لبس الأخرى وحليها ، وأنا فى يومى هذا أشتهى لحماً ، فما أقدر عليه [1]

وكان محمد بن يحيى بخيلا ، فصحبه المخيّم الراسبي الشاعر ، بعد أن كان يصحب محمد بن منصور بن زياد ، الذى كان يلقبه الرشيد فتى العسكر ، وكان كريما ، فأفاد معه مائة ألف درهم ، فلما مات اتصل بمحمد بن يحيى بن خالد ، فأنفقها معه ، ولم يتعوض منها شيئا ، فقال

أمحمد لولا النبي محمد وشرائع الاسلام والإيمان
ما كان فيك اغاسل من مغسل ياطاهرا فى السر والاعلان
شتان بين محمد ومحمد حى أمات وميت أحيانى
فصحبت حيا فى عطايا ميت وبقيت مشتملا على الخسران

وكان محمد بن يحيى قبيح البخل فدخل يوما أبو الحارث جُمَّيز على يحيى بن خالد ، وكان يألف محمدا ، فقال له يحيى يا أبا الحارث ، صف لى مائدة محمد ، قال هى : فتر فى فتر ، وصحافه منقورة من حب [2] الخشخاش ، وبين ندبه وبين الرغيف نقدة [3] جوزة ، قال فمن يحضره ؟ قال الكرام الكاتبون ، قال فمن يأكل معه ؟ قال الذباب . فقال سوءة له ، أنت خاص به وثوبك مخرق ! قال والله ما أقدر على ابرة أخيطه بها ، ولو ملك محمد بيتا من بغداد إلى النوبة مملوءا ابرا ، ثم جاءه جبريل وميكائيل ومعهما يعقوب النبي يضمنان له عنه ابرة ، ويسألانه إعارته إياها ، ليخيط بها قميص يوسف الذى قد من دبر ، ما فعل !

قال الفضل بن مروان حدثنى مسرور الكبير : قال : دخلت على الرشيد بعد أن قتل جعفر بن يحيى ، وقد خرج من مرقده وهو يريد الخلاء ، فلما

١) فى المروج وما آتمنى سوى جلد شاتين افترش أحدهما وألتحف الآخر

٢) لعل الصواب من حمل الخشخاش ، أى ثمرته ، فان حب الخشخاش دقيق جداً ، ولا يتصور أن يريده

٣) النقد النقر فى الجوز بالاصبع يريد مرمى الجوزة التى نقرتها

وأتى أمر بكرسى فطرح له ، وجلس عليه ، ثم قال إني سائلك عن امر ، فلا تطول على ، فانى اريد التطهر ، ولست ابرح او تخبرنى بما اسألك عنه ، فقلت له يسأل امير المؤمنين عما احب ، فقال اخبرنى عما وجدته للبرامكة من المال والجوهر ، فقلت له ما وجدت لهم شيئا من ذلك ، قال وكيف وقد نهبوا مالى ، وذهبوا بخزائنى ! فقلت انفقوا فى المكارم ، واصبت لهم جوهرا لايشبه امثالهم ، قال لى فما يقول الناس فينا وفيهم ؟ فقلت اَللهَ اَللهَ فى أمرى ، قال لى مالك ؟ فقلت الصدق يغضبك — وكان استحلفنى ورشيدا والحسين الخادمين أن نصدقه عن كل شيء يسألنا عنه ، فخفت أن أصدقه فلايعجبه : لأنى كنت صدقته عن شيء من أمر الحرم ، فغضب على ، وحجبنى أربعين يوما ، فأذكرته بذلك ، فقال : كان ذلك منى غلطاً ، ولن أعود لمثلها — فقلت له : يقول الناس : إنك لم تف لهم ، وإنك طمعت فى أموالهم ، قال فأَى شيء حصلت منها؟ فقلت: ضياعهم ، هى مال : قال : البس سيفك وأحضرنى يحيى بن خالد ، فأقمه وراء الستر ، فأحضرته

ثم خرج الرشيد من الخلاء ، فقال لى : اخرج اليه ، فقل له : ما حملك على أن حملت إلى يحيى بن عبدالله بالديلم مائتى ألف دينار ؟ فقلت له ذلك ، فقال: قل له أليس قد صفحت عن هذا ؟ فقال لى : أو يصفح الانسان عن دمه ؟ فقلت ذاك فقال : أردت أن تقوى شوكة يحيى بن عبد الله ، فيظفر به الفضل بعد قوته ، فيكون أحظى له عندك ، فقال قل له فما يؤمنك أن تقوى شوكته ، فيقتل الفضل ويقتلنى ؟

وما حملك على أن أنفذت إلى أحمد بن عيسى بن زيد بالبصرة مع غلامك رباح سبعين ألف دينار ؟ فقلت له ذاك ، ثم قال قل له أنت تعلم موقع عيالى منى فطلب منك وأنا بالبصرة ألف ألف درهم ، وقد كان ورد من مال فارس ستة آلاف ألف درهم ، فقلت لى إن أخذت منها درهما واحداً لهذا الشأن ذهبت

هبتك ، فأمسكت . فأخذت أنت منها ألف ألف وخمسمائة ألف درهم ، ففرقتها في عمالك ، واحتلت أنا بقرض تولاه يونس ، ما فرقته فيهم ، ثم قال قال له كذا حتى عدد أربعين شيئا ، ثم أمرني برده إلى محبسه ، وقال يامسرور يقول الناس إني ما وفيت ، فقلت ياأمير المؤمنين ، ما أحب أن تستجهلني ، قال وكيف ؟ قلت كيف لي بأن يعلم الناس مثل علمي ! لبودي أنهم علموا ذلك ، على أني أعلم أنه لو نودي فيهم دهراً من الدهور ما قبلوه .

ووجه الرشيد في طلب الأموال ، وضيق على البرامكة جميعا ، وأعداء إليهم ، وضرب الفضل بن يحيي مائتي سوط ، تولاها مسرور الخادم ، فقال له الفضل أنت تعلم يا أبا هاشم أني كنت أقي عرضي بمالي ، فكيف أقي مالي بنفسي في هذا الوقت ؟ والله ما عندي شيء ، ولو كان عندي ما سترته ولا ورّيت عنه . فلم يوجد عندهم شيء غير ما أخذ . واشفى الفضل من ضرب السوط على أمر عظيم ، فأمر يحيي بعض أسبابه أن يطلب من يعالجه ، فالتمس رجلا ممن قد حبس وعوقب من الشطار ، فوجد رجلا منهم فجاء به وقد غير زيه ، كأنه بعض حاشيتهم ، ثم ابتدا يعالجه ، فلقي مكروها شديداً من ألم العلاج ، ثم صلح وعوفي ، فقال الفضل بن يحيى لقهرمانه ما عندنا شيء نكافىء هذا الرجل ، فصر إلى يحيى بن معاذ ، فسله عشرة آلاف درهم ، فادفعها إليه ، فصار قهرمانه إلى يحيى ، فأعطاه المال وصار به إلى الرجل ، فلما رآه انتهره وصاح به ، وقال له أنا في هذا الحد ! فرجع الى الفضل فأخبره ، فظن انه استقلها ، فأمره أن يستزيد يحيى عشرة آلاف درهم ، ففعل ، وصار بالمال إلى الفتى ، فأعاد انتهاره ، ثم قال لو جئتني بما يملكه الخليفة ما قبلته منك ، أنا ممن يأخذ على معروف أجراً .

ثم شخص الرشيد إلى الرّقّة ، وشخص يحيي بن خالد معه وهو مطلق ، وحمل ولده جميعاً ، موكلا بهم إبراهيم بن حميد المروزي ، فلما وصلوا إلى الرقة ، وجه الرشيد إلى يحيي : أقم حيث أحببت ، فوجه إليه إني أحب أن أقيم

مع ولدى . فوجه إليه أترضى بالحبس ؟ فذكر له أنه يرضى ، فحبسه معهم ، ووسع عليهم ، وأطلق لهم وصول ولدهم وحرمهم إليهم

ووصل أمّ الفضل بن يحيى بثلاثمائة ألف درهم ، ووجه إليها ثيابا مرتفعة ، وكان أحيانا يوسع عليهم ، وأحيانا يضيق عليهم ، على حسب ما يُرَقّى إليه أعداؤهم ، ويمسكون عنهم

وحكى أن ابنة ليحيى بن خالد دخلت عليه الحبس ، فقالت له عندى مويل قد سلم ، فأى شىء ترى أن أصنع به ؟ فقال لها : شاورى مقبل الأمر من كان ، ثم اعملى برأيه ، فإنى مدبر ، والمدبر مدبر الرأى ، ولن أشير عليك بشىء ، فتعرفى فيه خيراً .

وحكى أن يحيى بن خالد اشتهى فى وقت من الأوقات فى محبسه وهومضيق عليه ، سكباجة ، فلم يطلق له اتخاذها إلا بمشقة ، فلما فرغ منها سقطت القدر من يدى المتخذ لها ، فانكسرت ، فقال يحيى يخاطب الدنيا :

قطّعتُ منكِ حبائلَ الآمال ... وأرحت من حلّ ومن ترحال
ووجدت برد اليأس بين جوانحى ... فحططت على ظهر المطىّ رحالى
فالآن يا دنيا عرفتك فاذهبي ... يا دارَ كلّ تشتت وزِيال
والآن صار لى الزمانُ مؤدّبا ... فغدا وراح علىّ بالأَمثال

وذكر أحمد بن خلاد ، قال : حدثنى غزوان بن إسماعيل ، قال : لما حبس يحيى بن خالد مع الفضل ولده ، وضيق عليهما ، ومنعا من الناس ، ومنع الناس منهما ، كتب الموكل بهما فى بعض الأوقات : إنى سمعتهما يضحكان ضحكا مفرطا جداً ، فوجه الرشيد مسروراً يستعلم ذلك ، ومِمَّ هو ؟ فأتاهما مسرور فقال ما هذا الضحك المفرط الذى بلغ أمير المؤمنين ، فأحفظه ، وقال ماهذا إلا استخفاف بغضبي ؟ فازدادا ضحكا ، فقال مسرور : ليس هذا بصواب ، لأنى أتخوف عليكما من عاقبته أعظمَ مما أنتما فيه ، فما القصة والسبب الذى حداكما على

ما انتهى إلى أمير المؤمنين عنكما ؟ وما الذى أرَى منكما ؟ فقالا اشتهينا سكباجا فاحتلنا فى شراء اللحم ، ثم احتلنا فى القدر والخلّ ، حتى إذا وصل جميع ذلك إلينا ، وفرغنا من طبخها وأحكمناها ، ذهب الفضل لينزلها ، فسقط أسفلها ، فوقع علينا الضحك والتعجب مما كنا فيه ، ومما صرنا إليه .

فذهب مسرور الخادم إلى الرشيد ، فأعلمه بالقصة ، فبكى وقال احمل إليهما مائدة فى كل يوم ، وأْذن لرجل ممن يأنسان به أن يدخل عليهما ، فيحدثهما فقال لهما مسرور ذلك ، وسألهما عمن يختارانه ، فاختارا سعيد بن وهب الشاعر وكان لهما خادما ، فأَذن له فى الدخول عليهما فكان يصير إليهما فى كل يوم ، فيتغدّى معهما ، ويحدثهما وينصرف .

ثم إن الرشيد وجه مسروراً يوما ، فقال له اُنظر ما يصنعان ، فدخل مسرور بغتة ، فوجد يحيى قاعدا ، والفضل ساجدا ، فقال له يا أخى ياحبيبي ، فلم يجبه فدنا منه ، فإذا هو نائم يغط ، فرجع إلى الرشيد فأخبره ، فقال أى شىء كان عليه ؟ قال : كان عليه طِمر قد سمل ، قال خذ ذاك الدُّوَّاج السمور ، فاطرحه عليه ولا تنبهه ، ففعل مسرور ذلك وانصرف

فلما أحس الفضل بالدفء انتبه ، فقال لأبيه يا أبت ، ما هذا الدواج ؟ قال يابنىّ ، جاء مسرور وهتف بك ، فلم تجبه ، ورأى ماعليك ، فذهب إلى الرشيد فأخبره بذلك ، فرق قلبه لك ، فوجه معه بهذا الدواج ، وإنى لأرجو أن يكون سببَ الرضا عنا ، والفرج لنا .

وصار إليهما سعيد بن وهب ، فسأل عن خبر الدواج ، فأعلماه ، فسر وقال أرجو أن يكون سبب الرضا . فبينا سعيد يحادثهما سمع الفضل هاتفا يذكر خشفا[1] معه ليبيعه ، فذكر بذلك بعض من كان يحظيه ، فأظهر اغتماماً وقلقا وجزعا شديدا ، ففطن سعيد بحاله وسأله ، فأعرض عن إخباره ، وقال له ماتحفظ

١) الخشف بكسر الخاء وفتحها وضمها ولد الظبي

مما يشبه ما تراه من الأحاديث والأخبار والأشعار التى رويت ؟ فقال قول مجنون بنى عامر :

وداعٍ دعا إذ نحن بالخيف من منى فهيج أطراب الفؤاد وما يدرى
دعا باسم ليلى غيرها فكأنما أطار بليلى طائراً كان فى صدرى

فقال أحسنت ، خذ الدواج فهو لك ، وأبى أن يقبل ذلك ، وطالبه الفضل بأخذه ، فقال ما أصنع به إذا أخذته والسجان لابد أن يخرجه ؟ فأرسل إلى السجان يسأله إطلاق إخراجه له ، فقال لابد لى من إعلام مسرور بذلك ، لأنى لا آمن أن يتأدى إليه الخبر ، وكتب بالخبر إلى مسرور ، فأنهى ذلك إلى الرشيد ، ففكر ملياً ، ثم قال ما وهبناه له ونحن نريد أن نرتجعه منه ، فليهبه لمن شاء ، فأخذ سعيد الدواج ، ثم نهض ، فقال له الفضل ، بقى عليه مالا آمنه ، قال وما هو ؟ قال الخوف أن يسأل عن السبب الذى له أعطيتك الدواج فإن ذكرت القصة على جهتها ، كان فى ذلك ما لا آمن مكروهه ، ولكن سبب لذلك سببا من بعض أشعارك وأخبارك وملحك ، وأذكر ذلك بينى وبينك ، فأينا سئل عن السبب خبر به ، فلم يختلف الخبران ، قلت والله ما أدرى ما أحدثك به ، قال هات ما أمكن

قال قلت كان لى باب صغير إلى دارى لايدخل منه إلا المرد ، وكان لى خادم موكل بذلك الباب ، فأتانى يوما ، فزعم أن إنسانا ألحى بالباب يستأذن فقلت يا هذا أمرتك بالاستئذان لمثل هذا ! فقال إنى قد عرفته السنة ، فأبى إلا الاستئذان له ، وزعم أنه ممن كان يدخل من هذا الباب ، فقمت فاطلعت . فاذا هو حريف كان لى قد غاب غيبة ، فاتصلت لحيته فيها ، وجاء لعادته . فرجعت إلى مجلسى ، وكتبت إليه

قل لمن رام بجهل مدخل الظبى الغرير
بعد ما علق فى خديه مخلاة الشعير

ليته يدخل إن جاء من الباب الكبير

ووجهت بالرقعة إليه ، فلما قرأها ضحك ، وجاء إلى الباب الكبير ، فاستأذن فأذنت له . فقال الفضل أحسنت والله وملحت ، وقام فكتب الأبيات على الحائط ، وخرج سعيد ، فعرض له رسل الرشيد ، فأخذوه ، فأدخلوه عليه ، فلما سلم قال له ياسعيد ، بأي شيء حدثت الفضل . وأي شيء أنشدته حتى نعت الدواج . قلت او تعفيني ياامير المؤمنين . فأنه شيء كان في الحداثة قال لابد أن تخبرني ، قلت فيؤمنني أمير المؤمنين . فإني والله ما أنا على ذلك اليوم ، ولقد وقرتني السن . ونزهتني عنه ، قال لك الأمان . فحدثته الحديث وأنشدته الشعر ، فضحك حتى بدت نواجذه . وأمر لي بثلاثين ألف درهم .

وكتب يحيى بن خالد إلى صديق له وهو في السجن ، وقد كتب إليه يسأله عن حاله ، فوقع في كتابه : أفضل الناس حالا في النعمة ، من استدام مقيمها بالشكر ، واسترجع فائتها بالصبر .

وكتب أيضا إلى أخيه محمد من الحبس : أنكرت صديقي ، وعرفت عدوي .

واحتاج يحيى إلى شيء ، فقيل له لو كتبت إلى صديقك فلان ؟ قال : دعوه يكن صديقاً !

قال إسماعيل بن صبيح : كنت يوما بين يدي يحيى بن خالد ، فدخل عليه جعفر ، فلما رآه أشاح بوجهه عنه ، وتكره رؤيته ، فلما انصرف قلت له : أطال الله بقاءك ! تفعل هذا بابنك وحاله عندالرشيد حاله ، لا يقدم عليه ولداً ، ولا وليا ! فقال إليك عني أيها الرجل ، فوالله لا يكون هلاك أهل هذا البيت إلا بسببه .

فلما كان بعد مدة من ذلك دخل عليه أيضاً جعفر وأنا بحضرته ، ففعل به مثل فعله الأول ، فأعدت عليه القول ، فقال لي : أدن مني الدواة ، فأدنيتها ،

فكتب كلمات يسيرة في رقعة ، وختمها ودفعها إليّ ، وقال لي : لتكن عندك ، فإذا دخلت سنة سبع وثمانين ومضى المحرّم ، فانظر فيها ، فلما كان في صفر أوقع الرشيد بهم ، فنظرت فيها ، فكان الوقت الذي ذكره .

قال إسماعيل بن صبيح وكان يحيى بن خالد أعلم الناس بالنجوم .

ومما حكى من [سبب] سعي الفضل بن الربيع على البرامكة ، ماحكاه محمد بن داود بن الجراح في كتابه المسمى كتاب الوزراء ، عن محمد بن إبراهيم مولى خديجة بنت الرشيد ، عن أبيه ، وذكر أنه حضر ذلك

قال : نادم الفضل بن الربيع الرشيد ، وخص به ، فقال لجعفر قلد الفضل بريد ناحية يأخذ رزقها ، ويستعين به على خدمتي ؛ فقال له جعفر ، بسلامة خلته اختر ؛ فقال الموصل وديار ربيعة ، فأمر أن تكتب كتبه عليها ، وراح بها إلى أبيه ، فلما عرضها عليه ، وعرّفه حال الفضل وخصوصيته ، غضب يحيى وقال : هذه ناحية إلى أخيك ، وقد صرفناه عن أرمينية وتصرفه عن هذه ! وكان وَلِي خراج أرمينية وحربها وصرف عنها ؛ فقال : ما كنت لأفعل ! فقال فالموصل فقال لا والله ، فكره جعفر إغضاب أبيه ، ودافع الفضلَ ، وقرّب عليه المواعيد وكان البرامكة قد فارقوا الرشيد على شيء يطاقونه له من المال للحوادث ، سوى نفقاته وما يحتاج إليه هو وعياله ، فعزم على الفصد ، فقال لجعفر : يا أخي أنا على الفصد ، وأريد التشاغل بالنساء ، فكم تبعث إلي لما أهبه لهن ؟ قال : ماشاء أمير المؤمنين ، قال عشرة آلاف درهم ، قال وأين المال ؟ ولكن خمسة آلاف درهم ، قال فهاتها ، فبعث بها إليه ، ثم قال لجلسائه وقد افتصد أي شيء تهدون إليّ ؟ فقال كل واحد منهم قد أعددت كذا وكذا ، واحتال الفضل بن الربيع في النخاس إلى منزله ، فرهن حقه من قطيعة الربيع ، وهو العشر ، على مائة ألف درهم عند عون الجوهري الحوى ، فقال إني أريد أن أهديها إلى الخليفة ، فصيرها جددا ضربا ، في عشرين بدرة ديباج ، مختمة بفضة ، وكان عون يحفظ الربيع

بدا ، فقال للفضل أطابت نفسك عن جميع نعمتك فى هدية اليوم ؟ فأعلمه أن له عند الرشيد مواعيد ، فقال له عون فإن عندى خادمين مسلولين [1] روميين ، أحدهما ناقد ، والآخر وزان ، جميلى الصورة مراهقين وقد وهبتهما لك . وأحضره تابوت آبنوس محلى بالفضة ، فصير البدور فيه مع الطيارات والموازين والصنجات وأقفله بقفل فضة ، وغشاه بديباج ، وكسا الغلامين الديباج ، وألبسهما المناطق والمناديل المصرية ، ووجه بهما وبالتابوت مع من يحمله إلى دار الندماء ، فلما تغدى الرشيد ثم قال اعرضوا علىّ هداياكم ، فقدمت هدية يحيى وجعفر والفضل ابن يحيى ، من فاكهة ومشامّ ، وما أشبه ذلك ، وعرض عيسى بن جعفر وغيره هداياهم . فقال للفضل بن الربيع أين هديتك ياعباسى ؟ وبذلك كان يدعوه ، قال أُحضرها يا أمير المؤمنين ، فقال يحيى ، قد ابتاع هدية بخمسين درهما ، فقال للفراشين احملوها ، فحملوا شيئا راع الرشيد لما رآه . وكشفوا عن التابوت فاستحسنه .

ثم حضر الغلامان ، ففتح أحدهما القفل . فأخرج الموازين والأوزان ، وأخرج الآخر البدور . ففتح بدرة بدرة . واستوفى وزنها وختمها . ولم يدر الرشيد ما يستحسن من جلالة الهدية . واستطير فرحا . وأمر بحمل المال ، وإدخال الغلامين إلى دار النساء . ليفرّقا المال على ما يأمرهما به . وقال للفضل ويلك ياعباسى ! من أين لك هذا ؟ قال سيعرفه أمير المؤمنين . قال لتقولن ، قال بعت حقى من قطيعة الربيع لأسرك ، لما رأيتك قد فصدت وأنت مغموم . قال . والله لأسرنك . وقام فدخل .

وانصرف جعفر يجر رجليه إلى أبيه . فحدثه الحديث . فكتب كتب الفضل على بريد الموصل وديار ربيعة وديار مضر وختمها ، وبعث بها إليه فردّها وقال : لا حاجة بى إليها ، ولم يزل يحمل الرشيد عليهم ، حتى أوقع بهم .

---

١) مسلولين اى خصيين سلت مذاكيرهما بدليل انه ادخلهما إلى دار النساء

وحكى عن الفضل بن الربيع أنه قال: صرت إلى يحيى بن خالد فسألته حاجة فتقاعد علىّ فيها، فقمت وأنا أقول:

عسى وعسى يثنى الزمان عنانه ... بتصريف حال والزمان عثورُ
فتقضى لبانات وتشفى حسائك ... ويحدث من بعد الأمور أمور

قال. فقال: نعم يحدث الله من بعد الأمور أموراً، أقسمت عليك يا أبا العباس لترجعن، وهذه الحاجة علىّ فى مالى إلى أن أكلم الخليفة. قال فما بت حتى وافتنى.

وحكى عن الفضل بن الربيع أنه مشى على مسناة جعفر بن يحيى، التى كان بينها باب الشماسية، ومعه إنسان يأنس به، فركل آجرة برجله، فرمى بها إلى دجلة، ثم قال لصاحبه: كيف رأيت؟ فقال له الرجل وأى شىء فى هذا من الضرر حتى تفعله؟ فقال له الفضل: أفترى فيه منفعة له ياحبيبى؟

وذكرت بهذا الفعل والقول حكايتين متضادتين عن رجلين ليسا من أهل عصر الفضل بن الربيع، ولكن الشىء يذكر بمثله: فأما إحداهما، فإن محمد بن أحمد بن حبيش، كاتب ابن بسطام قال: حدثنى أبى قال: كنت أساير نجاح ابن سلمة وإلى جانبه رجل من نظرائه كان يعاديه، قال فوصلنا إلى وحل فى الطريق، فتأخر نجاح، حتى تقدمه الرجل، ثم أسرع السير فى الوحل، حتى ملأ ذراعته، ثم أقبل علىّ فقال: كيف رأيته؟ فقلت: ياسيدى، وأى شىء فى هذا حتى تسر به؟ فقال: إذا كان لك عدوّ فلا تستقل له قليل الشر[1]، ولا تستكثر له كثيره.

والأخرى: فإنه كان بين أحمد بن المدبر وبين علىّ بن عيسى بن يزدانيروذ عداوة مشهورة، وكانت لعلىّ مقاطعة يكتب له بها من الدواوين فى كل سنة، فلما حضر وقت الكتاب، وأحمد يتقلد الديوان، قال على بن عيسى لصاحبه

(1) فى الأصل قليل الشىء، والصواب ما ذكرناه.

يدخل الديوان سراً، وأعزم عزماً، حتى تأخذ الكتاب بالقاطعة، ولا يراك أحد فيبطلها، ففعل ذلك صاحبه واجتهد فى ستر الأمر، وأنتهى الخبر إلى أحمد بن المدبر(1) قبل قراءته، فدعا به، وأنكر عليه مسايرته له، ودعا بالكتاب حتى انتسخوا الكتاب بحضرته، وعفوا عليه، ودفعه إليه، فقوض الرجل فى نكره وكده، وقال له: تقول له أحسبت أنى أرضى فيك بالحقرات، وأقتصر على أن أعترض عليك فى مقاطعتك؟ هيهات! الأمر بينى وبينك أعظم من ذلك، ليس بينى وبينك إلا الدم.

وقال عبد الله بن سليمان: إذا أراد الله عز وجل هلاك قوم وزوال نعمتهم، جعل لذلك أسباباً؛ فمن أسباب زوال أمر البرامكة تقصيرهم بالفضل بن الربيع، وتقديمهم محمدَ بن جميل.

ولما نكب يحيى كتب إلى الرشيد: إن كان الذنب يا أمير المؤمنين خاصاً، فلا تعم بالعقوبة؛ فإن لى سلامة البرىء، ومودة الولى. فوقع فى حاشية كتابه «قضى الأمر الذى فيه تستفتيان».

وقال موسى بن نصير الوصيف: حدثنى أبى قال: غدوت على يحيى بن خالد فى آخر أمرهم، أريد عيادته من علة كان يشكوها، فوجدت فى دهليزه بغلا مسرجا، فدخلت إليه وكان يأنس بى، ويفضى إلى بسره، فوجدته مفكرا مهموما، ورأيته متشاغلا بحساب النجوم، وهو ينظر فيه، قال: فقلت له: إنى لما رأيت البغل مسرجا سرنى؛ لأنى قدرت انصراف العلة، وإن عزمك الركوب، فقد غمنى ما أراه من همك. قال: فقال لى لهذا البغل قصة؛ وذلك إنى رأيت البارحة فى النوم كأنى راكبه، حتى وافيت رأس الجسر من الجانب الشرقى، فوقفت فإذا أنا بصائح يصيح من الجانب الآخر:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا … أنيس ولم يسمر بمكة سامر

(1) فى الأصل احمد بن مدبر

قال : فضربت بيدى فوق قربوس السرج وقلت :

بل نحن كنا أهلها فأبادنا   صروف الليالى والجدود العواثر

قال : فانتبهت ، فلم أشك أنا أردنا بذلك المعنى ، فلجأت إلى أخذ الطالع فأخذته ، وضربت الأمر ظهرا لبطن ، فوقفت على أنه لا بد من انقضاء مدتنا ، وزوال أمرنا . قال : فما كاد يفرغ من كلامه حتى دخل مسرور الخادم ومعه جونة مغطاة فيها رأس جعفر ، وقال له : يقول لك أمير المؤمنين : كيف رأيت نقمة الله من الفاجر ؟ فقال يحيى : قل له يا أمير المؤمنين ، أرى أنك أفسدت عليه دنياه ، وأفسد عليك دينك .

وقال محمد بن اسحاق : لما قتل جعفر قيل ليحيى : قتل الرشيد ابنك ، فقال كذلك يقتل ابنه ، فقيل : قد أمر بتخريب ديارك ، فقال : كذلك تخرّب دياره .

وحكى أن هذا القول من يحيى اتصل بالرشيد ، فسأل عنه مسروراً ، فجحده إياه ، إلى أن أقسم عليه ، فحكاه له ، فقال له : قد والله خفت قوله ، لأنه ما قال لى شيئا قط إلا رأيته .

وقال عبيد الله بن يحيى بن خاقان : سألت مسرورا الكبير فى أيام المتوكل ، و كان قد عمر إليها ، ومات فيها ، عن سبب قتل الرشيد لجعفر وإيقاعه بالبرامكة . فقال : كأنك تريد ما تقوله العامة في ادعوه من أمر المرأة وأمر المجامر التى اتخذها للبخور فى الكعبة ؟ فقلت له : ما أردت غيره ، فقال : لا والله ، ما لشئ من هذا أصل ، ولكنه من ملل موالينا وحسدهم .

ولما نكب الرشيد البرامكة قال : أريد ان استعمل قوما لم يعملوا معهم ، فقيل له : لا تجد احدا لم يكن يخدمهم . فاختار اشفّ من وقع فى نفسه من عيون اصحابهم ، فقلد محمد بن ابان خراج الأهواز وضياعها ، وقلد على بن عيسى بن يز[دا]نيروذ خراج فارس وضياعها ، وولى الفيض بن ابى الفيض الكسكرى

خراج كسكر وضياعها ، وولى الخصيب بن عبد الحميد مصر وضياعها . وفى الخصيب يقول أبو نواس الحسن بن هانىء :

أنت الخصيبُ وهذه مصرُ فتدفقا فكلاكما بحرُ
لا تقعدا بى عن مدى أملى شيئاً فما لكما به عذرُ
ويحق لى إذ صرت بينكما ألا يحل بساحتى ضر[1]

وذكر محمد بن العباس اليزيدى أن ابن أخى اليتيمى حدثه قال : كتب الخصيب إلى أبى نواس يستزيره وكان خاصا به ، فخرج إليه ، وخرج فى وقت خروجه جماعة من الشعراء لامتداح الخصيب ، ولم يعرفوا خبر خروج أبى نواس حتى اجتمعوا بالرَّقة ، فقال بعضهم لبعض : هذا أبو نواس يمضى إلى الخصيب ولا فضل فيه لأحد معه ، فارجعوا عن قرب ، وبلغ أبا نواس ما عملوا عليه من الرجوع ، فصار إليهم مسلماً ، ثم قال لهم قد بلغنى ما عزمتم عليه من الرجوع ؛ فلا تفعلوا وامضوا حتى نصطحب ؛ فإنى والله لا أبدأ إلا بكم ، فشكروه ، وسكنوا إلى قوله ، ومضوا حتى قدموا .

واتصل خبر أبى نواس بالخصيب ، فجلس له جلوساً عاما فى مجلس جليل ، ودخل إليه الشعراء فى دهليزه ، فسلم عليه ، وقال :

يا أيهذا الملك المؤمل قد استزرت عصبة فأقبلوا
وعصبة لم تستزرهم طفلوا رجوك فى تطفيلهم وأملوا
وللرجاء حرمة لا تجهل فافعل كما كنت قديماً تفعل

فاستحسن الخصيب قوله وكل من حضره ، وقال له الخصيب من هؤلاء فعرفه أبو نواس خبرَ الشعراء ، فقال اجلس فقدِّر لهم صلاتهم على حسب مقاديرهم فى نفسك ، فقدر أبو نواس لهم صلاتهم ، وعرضها عليه ، فوقع بإطلاقها ، فأطلقت من وقتها ، وقال له : اخرج ففرقها عليهم ، من يومك ،

(1) فى هامش الاصل ويروى فقر .

واصرفهم ففعل ذلك ، وعاد إليه . وله فيه :

يا بُنيّ أبشري بميرة مصر ... وتمنّي وأسرفي في الأماني
أنا في ذمة الخصيب مقيم ... حيث لا تهتدي صروف الزمان
قد علقنا من الخصيب حبالا ... آمنتنا طوارق الحدثان
لا تخافي عليّ غول الليالي ... فمكاني من الخصيب مكاني

وكان يكتب للخصيب أبو عبد الحميد [.....][1] بن داود البلاذُري المؤلف لكتاب البلدان وغيره من الكتب ، وله أشعار حسان .

وقلد الرشيد أباصالح يحيى بن عبد الرحمن ديوان الخراج بمدينة السلام .

قال أبو العباس بن الفرات . حدثنا هارون بن مسلم ، قال : دخل الرشيد على أم جعفر ، فقال لها : قد نهتك كاتبك سعدان فاعزليه : قالت وبأيّ شيء نهتك ؟ قال بالمرافق والرُشا ، حتى قال فيه الشاعر :

صبّ في قنديل سعدا ... ن مع التسليم زيتا
وقناديل بنيه ... قبل أن تحفي الكميتا[2]

فقالت له وقد قال الشاعر في كاتبك أبي صالح يحيى بن عبد الرحمن أشنع من هذا ، فقال وما قال ؟ قالت ، قال :

قنديل سعدان على ضوئه ... فرج لقنديل أبي صالح
تراه في مجلسه أحوصا ... من لمحة للدرهم اللائح

فقال لها كذب على كاتبي وكاتبك . قال هارون بن مسلم بلغني أنها قالت هذا الشعر في تلك الساعة .

ولما صرف سليمان بن عمران عبد الله بن عبدة عن ديوان الخراج ، واتصل

---

١) المعروف ان البلاذري صاحب كتاب فتوح البلدان هو احمد بن يحيى بن جابر البلاذري توفى ٢٧٩ . هذا وموضع الأصفار غير ظاهر وهو اسم ابيه

٢) احفاه اتعبه والكميت فرس في لونه صهبة

بدره بعبد الله : أمر بسلّتيه(١) فشدت ، وأخذ قلماً من دواته ، فصيره على أذنه [فلما] قيل له إن سليمان قد صرفك من الديوان ، رمى بالقلم وقام ، فسئل عن سبب ما فعله ، فقال أحببت أن يكون هذا سنة فى ولاة الدواوين ، إذا صرفوا لم يكن عليهم إلا وضع القلم فقط .

وقال الرشيد يوماً للفضل بن الربيع فى كلام جرى كذبت ، فقال له وجه الكذوب لا يقابلك ، ولسانه لا يخاطبك .

ووجه إسماعيل بن صُبيح إلى سعيد بن هزيم برْذَوْناً ، وكتب إليه لين المرفوع ، وطىء الموضوع ، حسن المجموع .

وقلد الرشيد إسماعيل بن صبيح ديوان الخراج ، ثم ديوان الرسائل .

قال سليمان بن أبى شيخ حدثنى يحيى بن المغيرة ، عن إسماعيل بن أبى حنيفة عن أبى بكر بن عياش ، قال قدم هارون الرشيد الكوفة فأرسل إلىّ أن أحدث المأمون ، فحدثته نيفا وأربعين حديثا . فلما فرغت منها قال لى رجل كان بحضرته أتحب يا أبا بكر أن أعيد عليك ماحدثتَ به ؟ قلت نعم ، فأعاد جميعه ، ما أسقط حرفاً ، فقال له أبو بكر : من أنت ؟ فقال المأمون : هذا إسماعيل بن صبيح ، قال فقلت لإسماعيل بن صبيح القوم كانوا أعلم بك حيث وضعوك هذا الموضع .

ثم ندم الرشيد على ما كان منه فى أمر البرامكة ، وتحسر على ما فرط منه فى أمرهم ، وخاطب جماعة من خواصه بأنه لو وثق بصفاء النية منهم لأعادهم إلى حالهم . وكان كثيراً ما يقول حملونا على نصحائنا وكفاتنا ، وأوهمونا أنهم يقومون مقامهم ، فلما صرنا إلى ما أرادوا منا ، لم يغنوا عنا شيئاً ، وينشد :

أقِلوا علينا لا أباً لأبيكمُ — من اللوم أوسدُّوا المكان الذى سدُّوا

وكان الحسن بن عيسى يكتب لعمرو بن مسعدة ، ولما حمل البرامكة إلى

---

١) السلة وعاء مغشى جلد توضع فيه العطور

الرُّقة ، استقبل الحسن بن عيسى يحيى بن خالد وهو يسير ، وكان لهم عنده معروف .

قال الحسن فلما بصرت به وتأملني ، قلت لا يرانى الله أمنعه من نفسى فى هذا الوقت شيئاً كنت أبذله له قبل ذلك اليوم ، فنزلت عن دابتى مترجلا له فصاح بى : إياك إياك ! فلم ألتفت إلى زجره ، ودنوت منه ، فسلمت عليه ، فقال لى : اسمع منى ، وافهم عنى، إن هذا الأمر لو بقي فيمن كان قبلنا لم يصل الينا، ولو بقى فينا لم يصل الى من بعدنا ولا بد للأعمال من تصرف، والأمور من تنقل، قد كنا قبل اليوم دواء ، فأصبحنا داء ، فلا تعد . قال فكنت أراه بعد ذلك كثيراً من سفره ، فلا أفعل ما أنكره على

وذكر الكرمانى أن الفضل بن يحيى نقل من مجلس كان فيه إلى مجلس آخر، فوقف له بعض العامة ، فدعا عليه ، وأنه اضطرب من ذلك اضطرابا لم يُرَ مضطربا قبله مثله فى شيء من حوادث النكبة ، وأنه قال لبعض من كان معه أحب أن تلقى هذا الرجل ، وتسأله عما دعاه إلى ما كان منه ؟ وهل لحقه من بعض أسبابنا ، على غير علم منا ، ظلم فنتلافى ما خلا ؟ فصار رسوله إليه ، وسأله عما دعاه إلى ما كان منه ، وهل لحقه ما يوجبه ؟ قال . فقال لا والله ما لحقنى ما أوجب ذلك ، ولكن قيل لى إن هؤلاء كلهم زنادقة . فلما عاد الرسول إليه بذلك، قال قد والله سريتَ عنى ، وفرجت مابى ، وأزلت مالحقنى ، ثم أنشد

غير ما طالبين ذَحْلاً ولكنْ مال دهر على أناس فمالوا

وهذا البيت من قصيدة لأبى زُبيد الطائى يمدح بها الوليد بن عقبة ، عامل عثمان على الكوفة ، أولها :

من يرى العير لابن أروى على ظهـ ـر المروزى حداتهن عِجالُ

وفيها يقول :

أصبح البيت قد تبدّل بالحىّ وُجوها كأنها الأقيالُ

غير ما طالبين ذحلا ولكن … مالَ دهرٌ على أناس فمالوا
من يخنك الصفاء أو يتبدلْ … أو يزل مثل ما تزول الظلال
فاعلمن أننى أخوك أخو الصد … ق على العهد أو تزول الجبال
لست ما عشت ذاخراً عنك شيئاً … أبداً ما أقل نعلا قِبال
فلعمر الإله لو كان للسيـ … ـف مصال أو للسان مقال
ما تناسيتك الصفاء ولا الو … دّ ولا حال دُونك الأشغال
فلك النصرُ باللسان وبالكف … إذا كان لليدين مجال

وذكر أحمد بن داود بن بسطام عن أبيه ، وكان يخلف الفضلَ بن الربيع أنه نقل الفضل بن يحيى من محبسه إلى محبس ، فأصاب فى ثنى مصلاه رقعة فيها :

إن العزاء على ما ناب صاحبه … فى راحة من عناء النفس والتعب
والصبر خيرُ معين يستعان به … على الزمان ومن ذا فيه لم يصب
لو لم تكن هذه الدنيا لها دُوَل … بين البرية بالآفات والعطب
إذاً صفت لأناس قبلنا وبهم … كانت تليق ذوى الأخطار والحسب
ولم ننلها[1] وفيما قد ذكرت أسًى … وعبرةٌ لذوى الألباب والأدب
ألستمُ مثل من قد كان قبلكمُ … فارضوا وإن أسخطتكم نوبة العقب
نِضو الحوادث نضوٌ ليس ينفعه … شىء سوى الصبر من كدٍّ ومن تعب
والله ما أسفى إلا لواحدة … ألاّ أكون تقدمت المنون أبى
فكان يؤجر فى ثكلى ويتبعنى … دعاؤه لى دعاء الوالد الحدب

قال فسألت السجان عنها ، فقال لى قالها البارحة لما أتيته[2] بالمصباح .

وذكر عيسى بن يزدانيروذ[3] ، وكان أحد كتابه ، قال دعانى الرشيد وأخلانى وأدنانى جدا جدا ، ثم سألنى عن حال جعفر ، وهل وقفت على أنه أراد غدرا

١) فى الاصل ولم تنلها ٢) فى الاصل لما انتبه ٣) رسمت الزاى فى الأصل فى هذا الموضع واوا

به ، أو حيلة لقتله ؟ قال فحلفت له أيمانا آكدها له أنى ما عرفت هذا منه قط ، ولا وجدته حائدا عن طاعة ، ولا مقصرا فى موالاة ، ولا تاركا معاداة من ظن به انحرافا عنه ، وموالاة من وثق بموالاته ، قال فاستعادنى اليمين ثلاثا ، فلما كررتها بكى وقال يا أسفى عليك يا جعفر ! قال ثم امر برد مالى على وتقليدى ما كنت اتقلده ايام جعفر ، وهو الطراز ، وقال لى قد جعلت الفضل ابن الربيع بينى وبينك ، فالقه .

وكان عيسى بن يزدانيروذ أول من لبس شاشية من الكتاب ، وكان سبب ذلك أنه احتاج إلى لبس القباء والسيف ، من أجل ما يتقلده من نفقات الخاصة ، فلبس شاشية .....(١)

ثم توفى يحيى بن خالد حتف أنفه فى الحبس بالرقة ، بعد انصراف الرشيد من الرى بثلاثة أيام ، فى المحرم سنة تسعين ومائة ، وسنه أربع وستون سنة ، فجأة من غير علة تقدمت ، وصلى عليه ولده ، فاغتم الرشيد غما شديداً ، وقال : اليوم مات أعقل الناس وأكملهم ، ثم وجه إلى ولده هل أوصى بشىء ، أو تقدم فى شىء ؟ فقالوا ما عرفنا شيئاً من ذلك ، بلى ، وجدنا كتاباً كتبه وختمه ووضعه تحت رأسه ، فوجه الرشيد بمن أخذه ، وصار به إليه ، فكان فيه : قد تقدم الخصم ، والمدعى عليه فى الأثر ، والحاكم لا يحتاج إلى بينة !

ودفن بالرافقة على شاطىء الفرات ، وبنى على قبره بناء عال .

ثم توفى الفضل بن يحيى من علة نالته من رطوبة فى شقه ولسانه ، ثم تزايدت عليه إلى أن مات فى يوم السبت لخمس خلون من المحرم ، سنة ثلاث وتسعين ومائة قبل وفاة الرشيد بخمسة أشهر ، وكانت سنه خمساً وأربعين سنة ، وصلى عليه أكثر الناس ، واشتد الجزع من الخاصة والعامة عليه ، واغتم عليه جميع من عرفه ، وكثر التضاغط والتزاحم فى جنازته ، ودفن إلى جنب قبر أبيه .

---

١) موضع الأصفار أثر كتابة قد محيت لقدم الأصل

فقال بعض الشعراء :

ليس نبكى عليكم يا بنى بر　　مك أن زال ملككم فتقضى

بل نبكّيكم لنا ولأنا　　لم نر الخير بعدكم حل أرضا

وحضر الفضل بن الربيع بعد نكبتهم جنازة حمدونة بن على ، فذكر البرامكة فأطراهم وقرظهم ووصفهم ، ثم قال : كنا نعتب عليهم ، فقد صرنا نتمناهم ، ونبكى عليهم ، ثم أنشد متمثلا :

عتبت على سلم فلما فقدته　　وجربت أقواماً بكيت على سلم

وهذا الشعر لحنظلة بن عَرادة ، وكان صاحب سلم بن زياد والى خراسان ، فى أيام يزيد بن معاوية ، فعتب عليه فى شىء ، فأعتبه منه ، ثم لقى ما كره ممن قام مقامه ، لما انصرف سلم عن خراسان ، فقال هذا الشعر .

وكان كلثوم بن عمرو العتابى الشاعر متصلا بالبرامكة ، فلقى الرشيد بعد قتل جعفر ، فقال له : ما أحدثت بعدى ياعتابى ؟ فارتجل أبياتاً ، وأنشده إياها ، وهى :

تلوم على ترك الغنى باهلية　　زوى الدهرُ عنها كل طرف وتالد

رأت حولها النسوان يرفلن فى الكسا　　مقلدة أجيادها بالقلائد

وفيها يقول :

أسرك أنى نلت ما نال جعفر　　من المال أو ما نال يحيى بن خالد

وأن أمير المؤمنين أغصنى　　مغصهما بالباترات البوارد

دعينى تجئنى ميتتى مطمئنة　　ولم أتجشم هول تلك الموارد

فإن رفيعات الأمور مشوبةٌ　　بمستودعات فى بطون الأساود

وكان يكتب لعبد الله بن صالح قمامة بن أبى يزيد ، مولى سليمان بن علىّ ، وكان يكتب لأبيه صالح بن على قبله ، ولقمامة رسائل مشهورة ، وبلاغة مذكورة ، وقدم فى الدولة ، وكان جده أحد من اتبع من صار من الحميمة إلى

الكوفة من بنى هاشم ، من أول الدولة ، فسعى قمامة بعبد الملك بن صالح إلى الرشيد ، وأعلمه أنه على ان يمكر به ، واغتر عبد الرحمن بن عبد الملك حتى شهد معه على أبيه بذلك ، فأحضر الرشيد عبد الملك ، فخاطبه فى ذلك ، وأعلمه شهادة ابنه عليه بما شهد به ، وكان عبد الملك فصيحا بليغا راجحا ذا هيئة ، فقال له : أعطاك ما ليس فى عقده ، فلعله لا يبهتنى بما لم يعرفهمنى ، فأمر الرشيد باحضاره ، فلما حضر قال له : تكلم غير هائب ولا خائف ، فقال له : أقول : إنه عازم على الخلاف عليك ، والغدر بك ، فقال له عبد الملك : وكيف لا يكذب على بظهر الغيب من يبهتنى فى وجهى ، ويكابرنى ! فقال له الرشيد هذا ابنك عبد الرحمن يشهد عليك ، فقال له عبد الملك : هو بين أن يكون مأمورا ، أو عاقا مجنونا ، فان كان مأموراً فهو معذور ، وإن كان عاقا فهو فاجر كافر ، خبّر الله بعداوته ، وحذر من فتنته ، فأغلظ له الرشيد ، وقال له ما أنت منا .

وكانت أم عبد الملك بن صالح لمروان بن محمد ، فلما قتل مروان بمصر أخذ صالح بن على جاريته أم عبد الملك ، فولدته منه ، فبعض الناس يقول إنها كانت حاملا من مروان ، فأراد الرشيد بقوله «لست منا» هذا ، فقال عبد الملك ما أبالى لأى الفحلين كنت ، ألصالح بن على ام لمروان بن محمد ! فحبسه فلم يزل فى حبسه إلى أن مات الرشيد فأطلقه محمد وأحسن إليه .

قال إسحاق بن سعد : حدثنى عبد الله بن مخلد – وكان مخلد بواب ديوان الخرج ببغداذ إلى أن مات ، وكان يتزيا بزى الكتاب ، وكان يقف على رأس موسى بن عبد الملك إذا جلس للمظالم

فذكر ميمون بن هارون : أنه كان ينادى من له حاجة ؟ ويرفع بذلك صوته ، ثم يخفضه ويقول خفياً لا تقضى ، وأنه حدث بذلك موسى وهو يمازحه ويضاحكه ، فأحضره وضربه ثلاثين مقرعة .

قال مخلد : كان إنسان يقال له صات ، منقطعا إلى منصور بن بسام ، وكان يجس إليه وينظر له ، وطالت أيامه فى خدمته إلى أن استبطأ منصورا فى وقت من الأوقات كان منصور فيه مضيقا ، لم يمكنه بره . فاحتال صات بقوم من أعداء منصور ، حتى اوصلوه إلى الرشيد ، فأعلمه أن منصوراً وأصحابه أخذوا من أمواله عشرين ألف ألف درهم ، وأنها فى منازلهم . فقال له الرشيد : إن كنت صادقا أحسنَّا إليك ، وإن كنت كاذبا صلبناك حيا ثلاثة أيام ، فشرط ذلك على نفسه ، ووجه الرشيد سرا برشيد الخادم وإخشيد[1] ومسرور وعدة من الخدم ، إلى منازل آل بسام جميعا ببغداد وأمر حين وجه الخدم إلى منازلهم ، بحبس منصور بن بسام ، ونصر بن منصور والحسن بن بسام المعروف بأبى الحسين ، وفرق بينهم . وصار الخدم إلى منازلهم ففتشوها ، فلم يجدوا فيها مالا ، وكان لأبى الحسين عند امرأته خمسة آلاف دينار فى قمقم ، فلما هجم الخدم عليهم رمت به جاريتها فى بئر ماء ، فلما أراد الخدم الانصراف سألت المرأة جاريتها عن القمقم ، فأعلمتها أنها طرحتها فى البئر ، فخافت أن يكون زوجها قد أقر بالمال ، فاذا لم يوجد توهم أنهم احتالوا لستر سائر أموالهم ، فأرسلت إلى الخادم ، فأخبرته بما فعلت الجارية ، فاستخرج القمقم من البئر ، وحمله معه ، فلما صار الخدم إلى الرشيد أخبروه أنهم لم يجدوا مالا ، ووصف له أحدهم خبر المرأة والجارية والقمقم ، وقد كان استحلف منصورا ونصراً وأبا الحسين على اموالهم ، فحلفوا انه لا مال عندهم ، غير أبى الحسين ، فإنه ذكر أن عند امرأته خمسة آلاف دينار ، فأمر لمنصور عند رجوع الخدم بخمسين ألف درهم ، ولأبى الحسين بثلاثين ألف درهم ، ولنصر بعشرين ألف درهم ، ورد القمقم على أبى الحسين ، وصلب صلتاً بباب الجسر ثلاثة أيام ، ينزل به فى كل وقت صلاة ، ويردُّ إلى الخشبة .

---

[1] فى الأصل وأخشيذ

وأمر الرشيد فى سنة ثمان وثمانين ومائة ، بعد نكبة البرامكة بسنة ، إسماعيل ابن صبيح أن يكتب إلى جميع العمال بما عقد بين ولده محمد وعبد الله والقاسم من العهد ، وأخذه عليهم من الأيمان ، فكتب فى ذلك كتاباً مشهوراً قال فى آخره : وكتب إسماعيل بن صبيح يوم السبت لسبع ليال بقين من المحرم سنة ثمان وثمانين ومائة .

وكان يكتب للقاسم بن الرشيد قمامة بن أبى يزيد ، كاتب عبد الملك ابن صالح .

وتوفى عمرو بن مطرف بمكة وصلى عليه الرشيد ، وقال : يرحمك الله . فوالله ما عرض لك أمران أحدهما لله ، والآخر لك ، إلا اخترت ما هو لله على ما هو لك .

ولما انقضى أمر البرامكة ، وحصل التدبير فى أيام الرشيد على ما بيناه ، اختلت الأمور ، وقصد الفضل بن الربيع لحفظ بخدمة الرشيد فى حضرته ، وأضاع ما وراء بابه .

وذكر الفضل بن مروان : أن أمور البريد والأخبار فى أيام الرشيد كانت مهملة ، وأن مسروراً الخادم كان يتقلد البريد والخرائط ! ويخلفه عليه ثابت الخادم . قال : فحدثنى ثابت أن الرشيد توفى وعندهم أربعة آلاف خريطة لم تفض .

وكان للرشيد خادم ، يقال له سعيد الختنانى ، وكان خادماً جايلا ، وكان من خاصيته بالرشيد ومحله منه ، أنه أمر العمال [أن] يقبلوا كتبه ، وينفذوا أمره فى مائة ألف درهم .

ولما شخص الرشيد إلى خراسان ، لانتقاضها برافع بن الليث بن نصر بن سيار ، خلف محمداً ببغداد ، وجعل معه يحيى بن سليم الكاتب ، يكتب له [ويد]بر أموره ، وشخص معه إسماعيل بن صبيح ، وكان يتقلد ديوان الرسائل ،

وديوان الصوافى ، وديوان السر ، وشخص معه أيوب بن أبى سمير يعرض عليه ، وكان الفضل بن الربيع أيضاً يعرض عليه . وكان يكتب للفضل عبد الله ابن نعيم الكاتب ، وأشخص معه المأمون ، وعلى كتابته وأمره كله الفضل ابن سهل .

وكان الرشيد قلده خراسان وجرجان وطبرستان والرى ومايضاف إليها ، وكان الرشيد قد عزم على تخليفه ، وأن لايشخص معه ، فقال الفضل بن سهل المأمون : لاتقبل ، وسله أن يشخصك معه فإنه عليل ، وغير مأمون أن يحدث عليه حادث أن يثب عليك أخوك فيخلعك ، وأمه زبيدة ، وأخواله من هاشم فسأله إشخاصه معه ، فأبى عليه ، فقال له : إنى أريد خدمتك فى هذه العلة ، ولست أسأل حاجة ، ولا أحملك مئونة ، فأذن له ، فسار معه .

وذكر مخلد بن أبان قال : كنت أكتب لمنصور بن زياد ، فشخص منصور مع الرشيد واستخلف بالحضرة ابنه محمد بن منصور ، وكان محمد سخيا سريا وكان الرشيد يسميه « فتى العسكر » . قال : فأمرنى بحفظ الأموال ، والمقام معه على السواد ، بحضرة محمد الأمين ببغداد ، فكتب مع محمد بن منصور ، وعمل على تزويج ابنه زياد بن محمد بن منصور ، فسأل محمداً الأمين أن يزوره فى أصحابه وقواده وكتابه ، من غير أن يقدم فى هذا قولا إلى ، فأجابه محمد الأمين ، ثم دعانى فخبرنى الخبر ، فقلت له : هذا أمر علينا فيه غلظ ، ونحتاج إلى مال جليل ، فقال قد وقع هذا ولا حيلة فى إبطاله . وكان موضع بابه يضيق عن عشر دواب . فقلت له : فإن لم تنظر فى المال والنفقة ، فمن أين لنا رحبة تقوم فيها دواب الناس ؟ فقال : لا والله ما أدرى ، والتدبير والأمر إليك ، ففكرت فى إحسانهم إلى جيرانهم . فخرجت إلى مسجد على بابه . فجمعتهم وأعلمتهم ما عزم عليه محمد بن منصور ، من أمر ابنه واستزارته الأمين محمدا ، وأنه لا رحبة له ، وسألتهم تفريغ منازلهم ، وإعارتنا إياها جمعة . أو عشرة

أيام ، حتى نهدمها ثم نبنيها إذا استغنينا عنها أحسن بناء وأحكمه . قال : فقلت هـذا القول ، وأنا متخوف أن يجيبونى ما لا أحبّ . فقالوا جميعاً بلسان واحد : نعم . وكرامة ومسرة . غدا نفرغها . فشكرت ذلك لهم . وقاموا من حضرتى . وأخذوا فى تفريغ منازلهم . وكان أكثرها باللبن والأخصاص . فهدمناها . وجعلنا مكانها رحبة ، وأتانا الأمين فأنفقنا أموالا جليلة

وكانت الغوالى فى تغارات فضة . وأكثر الشمع من عنبر فى طِساس ذهب ، ثم انقضى العرس . فبنيت للجيران منازلهم بالجص والآجرّ .

وفى محمد بن منصور يقول أشجع السلمي :

على باب ابن منصور علامات من النبل[1]
جماعات وحسب البا ب فضلا كثرة الأهل

وفيه يقول الخزيمى :

زاد معروفك عندى عظما أنه عندك مستور يسيرُ
تتناساه كأن لم تأته وهو عند الناس مذكور كثير

وقال محمد بن يوسف للخزيمى : مابال مدائحك منصور بن زياد خيرا من مراثيه ؟ فقال الخزيمى لأن المدح للرجاء ، والمراثى للوفاء ، وبينهما بون بعيد .

قال الفضل بن محمد بن منصور بن زياد أتيتُ عبدَ الله بن العباس العلوىّ فى حاجة لبعض جيراننا ، بعد وفاة أبى ، وكانت بينه وبينى مودة وثقت بها ، ثم قلت له جئت فى حاجة إن سهل قضاؤها أعظم الأمير بها المنة ، وإن تعذّر فالأمير معذور ، فقال لى ياحبيبى ، إذا كنت معذوراً فلم جئتنى ؟ احفظ عنى : إذا أوجبت على نفسك أن تنهض لرجل فى حاجة ، فأغضب بها وأرض ، وإلا فالزم منزلك .

وكان عبد الله بن مالك ولى خراج طساسيج جرخى[2] فى أيام الرشيد ، وكان

---

١) انظر الأوراق للصولى ٢) فى الاصل خرجى

يكتب له حماد بن يعقوب ، وكان لعمرو الأعجمي هناك ضيعة ، فقال عمرو اليمان بن مسلمة كاتبه لو صرت إلى حماد بن يعقوب ، كاتب عبد الله بن مالك ، فسألته أن يكلم صاحبه فى وضع شىء من خراجنا عنا ، وأديت إليه رسالة منى فى ذلك ؟ فصار اليمان إلى باب حماد . فقدم إليه غلام أسود بغلة قد ألجمها على رسنها . فلما ركب قرعت سلسلة الرسن حديدة اللجام ، فآذاه صوته . فقال ياغلام ، أليس قد تقدمت إليك ألا تلجم البغلة على رسنها ! ثم عدل إلى بعض المساجد فنزل . وخلع الغلام الرسن . وأعاد اللجام . وحمل الرسن معه . فقلت فى نفسى ما عند هذا خير ؟ كم ترى هذا يسمح أن يتحمل لصاحبى من الخراج ؟ قال ثم قلت أكلمه على كل حال إذ قد صرت إليه . فكلمته ، فقطع على الكلام ، وقال إذا استقر بنا المجلس : فسل حاجتك ، ثم صار إلى دار صاحبه ، ثم إلى ديوانه ، فجلس على بارية ، ونظر فى اعماله ، ونفذ اموره الى نصف النهار ، ثم ركب ، وامرنى بالركوب ، ففعلت ، فلما بلغنا باب منزله دقه الغلام ، فخرجت جارية خلاسية ، ففتحته ، ودخل فأذن لى . فدخلت وهو فى بيت مرشوش ، وفيه حصير ومساور جلود ، وجىء بماء فغسل يديه ، وأمرنى بغسل يدى ، ثم جاءته الجارية بمائدة ، عليها رغفان وبقل وخل وملح ، وأتته سكباج ، فأكلنا منها ، حتى لم يبق منها شىء ، ثم قال : ياجارية ، هى طيبة فزيدينا منها فزادتنا ، ثم أتت بلون آخر ، فتناولنا منه ، ثم رفعت المائدة ، وغسلنا أيدينا ، ثم قال : هات الآن حاجتك ، فأديت إليه رسالة صاحبى ، فقال وكم خراجه ؟ فقلت : ثمانية عشر ألف درهم ، فدعا بالدواة والقرطاس ، وكتب إلى عامله بترك العرض للوكيل ، وأعطاه روزا بها وللاحتساب بها فى أرزاقه ، ثم قال : فكم خراجك أنت فى نفسك ؟ فقلت قد حملت أصلحك الله على نفسك ، وما كنت لأكلفك شيئاً لى ، قال : إذاً لا أعطيك الكتاب فى أمر صاحبك ، فقلت له ، بعد أن حادثته ساعة ثمانية آلاف درهم ، فكتب لى أيضاً باحتمالها .

وكان الرشيد حج بعد نكبة البرامكة ، والمدبر لأمره الفضل بن الربيع ، فلما صار بمكة رأى فى الحجر رجلا له هيئة وسمت يصلى ، فقال للفضل ياعباسى جئنى بهذا الرجل : فقصده الفضل وهو قائم فى صلاته ، فانتظر انفتاله من الصلاة فأطالها ، فجذب ثوبه الفضل ، وقال له أجب أمير المؤمنين ، فخفف الرجل صلاته ، وقال له مالى ولأمير المؤمنين ؟ فقال : هو ماترى وتسمع . فقام وهو يتهادى فى مشيته من الكبر . قال : فلما أتيت به الرشيد عرفته خبره ، فدعا به لما فرغ من طوافه ، فلما رآه قال له . من الرجل ؟ فقال له يا أمير المؤمنين ، إن الأنساب تمنع من الاكتساب ، فقال له : لتخبرنى ، قال فأذكر نسبي آمنًا ؟ فأمنه ، فانتسب إلى الحسن بن على بن أبي طالب ، فقذفت له فى قلب الرشيد رحمة ، ثم قال له إن أمير المؤمنين قد قدر عندك ، لما رأى من سمتك ، إصابة الرأى ، فما عندك فيما كان من أمير المؤمنين من العهد الذى عهد إلى ولاة العهد ؟ فاستعفاه من الجواب ، فلم يعفه ، وقال له أنت آمن ، فقل بكل لسانك كل ما عندك . فقال يا أمير المؤمنين ، رأيتك قد أخذت ثلاثة أسياف مشحوذة ، فجعلتها فى غمد واحد ، فانظر ما يكون بينها ، فأطرق الرشيد مليا ، ثم قال للفضل بن الربيع يافضل : أعطه ثلاثمائة دينار ، واجعلها دارّة عليه فى كل شهر باقى عمر أمير المؤمنين .

وحضر ديوان الخراج فى أيام الرشيد شيخ من قدماء الكتاب ، ومعه توقيع من الرشيد بقضاء دين عليه ، فعنى الكتاب به ، وزجّوا كتابه ، فقال لهم احفظوا عنا ثلاثاً : الجوار نسب ، والمودة نسب ، والصناعة نسب .

وكان فرج الرخّجى مملوكا لحمدونة بنت الرشيد ، وهى المعروفة بحمدونة بنت غضيض ، ولحق ولاؤه بالرشيد ، وكان زياد أبوه من سبى معن بن زائدة وكان فرج سبي معه عند غزو معن الرخج .

قال عمر بن فرج قال حدثنى أبى ، قال : كنت مع أبى زياد فى عسكر معن ،

وورد على أبي العباس أبو جعفر منصرفا من خراسان فى جمادى الأولى سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، وكان وجهه إليها لأخذ البيعة على أبي مسلم وأصحابه فأخذها ورجع .

وكان أبو العباس همّ بأبي سلمة فقال له داود بن على لا آمن عليك أبا مسلم إن فعلت أن يستوحش، ولكن اكتب إليه فعرفه ما كان من أبي سلمة فكتب أبو العباس إلى أبي مسلم يعلمه ما كان من أمر أبي سلمة فى الكتاب إلى من كتب إليه من ولد على وما كان أجمعه من صرف الدعوة إليهم فوجه أبو مسلم بالمرار بن أنس الضبي لقتل أبي سلمة ، فلما وافاه أمر ابو العباس قبل قتله بثلاثة أيام مناديا ينادى بالكوفة ان أمير المؤمنين قد رضى عن أبي سلمة ثم دعاه قبل مقتله بيوم فخلع عليه

وكان يسمر عنده فخرج ليلته تلك يريد الانصراف إلى منزله ، وقد كمن له ابن أنس وأسيد بن عبد الله فقتلاه وأغلقت أبواب المدينة ، فقيل لأبي العباس إن أبا سلمة قتله الخوارج فقال لليدين وللفم ، وقتل فى رجب سنة اثنتين وثلاثين ومائة

وقلد أبو العباس عمارة بن حمزة بن ميمون من ولد أبي لبابة مولى عبد الله ابن العباس ضياعَ مروان وآل مروان ، وكان عمارة سخيا سريا جليل القدر رفيع النفس كثير المحاسن .

وكان أبو العباس يعرف عمارة بن حمزة بالكبر وعلو القدر وشدة التنزّه ، فجرى بين أبي العباس وبين سلمة بنت يعقوب بن سلمة المخزومية زوجته يوما كلام فاخرته فيه باهلها، فقال لها أبو العباس أنا أحضرك الساعة على غير أهبة مولى من مواليّ ليس فى أهلك مثله ثم أمر باحضار عمارة بن حمزة على الحال التى يكون عليها ، فأتاه الرسول فى الحضور فاجتهد فى تغيير زيه فلم يدعه فجاء به إلى ابي العباس وأم سلمة خلف الستر واذا عمارة فى ثياب ممسكة قد لطّ لحيته بالغالية

حتى قامت واستتر شعره ، فقال يا أمير المؤمنين ما كنت أحب أن تراني على مثل هذه الحال ، فرُمى إليه بمدهن كان بين يديه فيه غالية ، فقال يا أمير المؤمنين أترى لها من لحيتي موضعا ؟ وأخرجت إليه أمّ سلمة عقداً كان لها قيمته جليلة وقالت للخادم تعلمه أني أهديته إليه فأخذهُ عمارة بيده وشكر أبا العباس ووضعه بين يديه ونهض ، فقالت أم سلمة لأبي العباس إنما نسيه فقال أبو العباس للخادم الحقه به وقل له هذا لك فلم خلفته؟ فاتبعه الخادم ، فلما أدى اليه الرسالة قال له إن كنت صادقا فهو لك ، وانصرف الخادم بالعقد وعرّف أبا العباس بما جرى وامتنع من رده على أم سلمة ، وقال لها قد وهبه لى ، فلم تزل إلى أن اشترته منه بعشرة آلاف دينار .

وكان عمارة بن حمزة يقول يخبز فى دارى كل يوم ألفا رغيف يؤكل منها ألف وتسعمائة وتسعة وتسعون رغيفا حلالا ، وآكل رغيفا واحدا حراما وأستغفر الله ، وكان يقول ما أعجب قول الناس فلان رب الدار! إنما هو كلب الدار !

وكان الماء زاد فى أيام الرشيد وكان الرشيد غائبا فى بعض متصيداته ويحيى ابن خالد مقيم ببغداد ، فركب يحيى ومعه القواد ليفرقهم على المواضع المخوفة من الماء يحفظونها ، ففرق القواد وأمر بأحكام المسنَّيات وصار إلى الدور فوقف ينظر إلى قوة الماء وكثرته ، فقال قوم ما رأينا مثل هذا المد ، فقال يحيى بن خالد قد رأيت مثله فى سنة من السنين ، كان ابو العباس قد وجهنى فيها إلى عمارة بن حمزة فى أمر رجل كان يعنى به من أهل خراسان وكانت له ضياع بالرى فورد عليه كتابه يعلمه ان ضياعه تحيّفت تخربت ، وأن نعمته قد نقصت ، وأن حاله قد تغيرت وأن صلاح أمره فى تأخيره بخراجه لسنة وكان مبلغه مائتى ألف درهم ليتقوى بها على عمارة ضيعته ، ويؤديه فى السنة المستقبلة فلما قرأ الكتاب غمه ، وبلغ منه وكان بعقب ما ألزمه ابو جعفر من المال الذى خرج عليه نخرج به عن كل ما يملكه واستعان بجميع إخوانه فيه ، فقال لى يابنى من هاهنا يفزع إليه فى

أمر هذا الرجل، فقلت لا ادرى فقال بلى عمارة بن حمزة، فصر إليه وعرفه حال الرجل فصرت إليه وقد مدت دجلة، وكان ينزل الجانب الغربي، فدخلت عليه وهو مضطجع على فراشه، فأعلمته ذلك، فقال قف لى غدا بباب الجسر، ولم يزد على ذلك فنهضت ثقيل الرجلين، وعدت إلى ابى العباس بالخبر فقال يابنى تلك سجيته فاذا أصبحت فاغد لموعده، فغدوت فوقفت بباب الجسر، وقد جاءت دجلة فى تلك الليلة بمدعجيب قطع الجسور، وانتظم الناس من الجانبين جميعا ينظرون إلى زيادة الماء، فبينا أنا واقف أقبل زورق والموج يخفيه مرة ويظهره أخرى، والناس يقولون غرق غرق، نجا نجا، حتى دنا من الشط فاذا عمارة بن حمزة وملاّح معه فى الزورق، وقد خلف دوابه وغلمانه فى الموضع الذى ركب منه فلما رأيته نَبُل فى عينى وملأ صدرى، فنزلت فغدوت إليه وقلت جعلت فداك فى مثل هذا اليوم، وأخذت بيده، فقال أكنت أعدك وأخلف يابن أخى، اطلب لى برذونا أتكاراه، فقلت له فاركب برذونى، قال فأى شىء تركب، قلت برذون الغلام، فقال هات فقدمت إليه برذونى فركبه وركبت برذون غلامى، وتوجه يريد أبا عبيد الله، وهو إذ ذاك على الخراج، والمهدى ببغداد خليفة للمنصور، والمنصور فى بعض أسفاره، قال فلما طلع على حاجب أبى عبيدالله دخل بين يديه إلى نصف الدار ودخلت معه، فلما رآه أبو عبيد الله قام من مجلسه وأجلسه فيه وجلس بين يديه فأعلمه عمارة حال الرجل، وسأله اسقاط خراجه وهو مائتا ألف درهم، واسلافه من بيت المال مائتى ألف درهم يردها فى العام المقبل، فقال أبو عبيد الله هذا لا يمكننى، ولكنى أؤخره بخراجه إلى العام المقبل، فقال لست أقبل غير ماسألت. فقال أبو عبيدالله فاقنع بدون هذا لتوجدنى السبيل إلى قضاء الحاجة، فأبى عمارة، وتلوم أبو عبيد الله قليلا، فنهض عمارة فأخذ أبو عبيدالله بكمه، وقال إنى أتحمل ذلك من مالى فعاد لمجلسه وكتب أبو عبيدالله إلى عامل الخراج باسقاط خراج الرجل لسنته والاحتساب به على ابى عبيد

الله وإسلافه مائتى ألف درهم ترتجع منه إلى العام المقبل ، فأخذت الكتاب وخرجنا، فقلت لو أقمت عند أخيك ولم تعبر فى هذا المد؟ فقال لست أجد بدا من العبور ، فصرت معه إلى الموضع ، ووقفت حتى عبر

وكان أبو الجهم بن عطية ينوب عن أبى مسلم بحضرة أبى العباس ويخافه ، فثقلت وطأة أبى مسلم على أبى العباس، وكثر خلافه إياه ورده لأمره ، فقال أبو العباس لأبى الجهم أكتب إليه وأشر إليه بالاستئذان فى القدوم علينا، لتجديد العهد بنا ، فكتب اليه أبو الجهم لذلك فقبل رأيه وكتب مستأذنا فمنعه أبو العباس وقال له خراسان لا تحتمل مفارقتك لها، وخروجك عنها وتركه شهرا ، ثم قال لأبى الجهم أعد الكتاب بمثل ذلك وأعاده، فكتب أبو مسلم مستأذنا فمنعه وأجابه إن خروج أمير المؤمنين إليك أسهل من الاذن لك ، واخلائك ما قد أصاحه الله بك ثم تركه شهرا وقال لأبى الجهم أعد الكتاب وأشر عليه بأن يذكر شدة شوقه ومحبته لمشاهدة نعمة الله عندنا وعنده فينا ، ففعل وكتب أبو مسلم بنحو ما كتب به أبو الجهم إليه، فأجابه ابو العباس بالاذن واستخلف أباصالح كامل بن مظفر على الخراج والدواوين وفرق أعمال الحرب على جماعة وقدم على ابى العباس فلقيه ثم استأذن فى الحج فأذن له

وكان أبو العباس شكا إلى خالد وهو يتقلد دواوينه اهتمامه بهيبة الجند أبا مسلم ، فأشار عليه ان يأمر بعرضهم واسقاط من لم يكن من اهل خراسان منهم ففعل ذلك ، فجلس ابو مسلم للعرض فأسقط فى أول يوم بشرا كثيراً ثم جلس فى اليوم الثانى فأسقط ايضا بشراً كثيراً ثم جلس فى اليوم الثالث فدعا بالناس فلم يقم احد، فدعا ثانية فلم يقم احد ، فدعا ثالثة فلم يقم احد ، فقام إليه رجل فقال علام تسقط الناس ايها الرجل منذ ثلاث؟ فقال اسقط من لم يكن من اهل خراسان قال فابدأ بنفسك، فانك من اهل اصبهان، وقد دخلت فى اهل خراسان! فوثب ابو مسلم عن مجلسه، وقال هذا أمر أحكم بليل، حسبك من شر سماعه! وفطن لما أريد

به ، وبلغ الخبر أبا العباس فسره

وكان داود بن على يتقلد الكوفة وأعمالها ، فدفع طريح بن اسماعيل إلى كاتبه رقعة إلى داود فى حاجة له إليه متقاضيا لها ، وقل له هذه حاجتك مع حاجة فلان من الأشراف فقال :

تخلّ بحاجتى واشدد قواها ... فقد أمست بمنزلة الضياع

إذا راضعتها بلبان أخرى ... أضرّ بها مشاركة الرّضاع

ودونك فاغتنم شكرى وشعرى ... وإياكم مكاشفة القِناع

ففأرد رقعته وقضى حاجته .

أيام المنصور

وكان يكتب لأبى جعفر المنصور عبد الملك بن حميد مولى حاتم بن النعمان الباهلى من أهل حرّان

وكان كاتبا متقدما فجلس فى يوم من أيام عطلته بحران ، ويحيى بن نُرملة الصّفْرى ، وعبيد الله بن النعمان مولى ثقيف ورجلان آخران تحت شجرة تين وذلك بعد انقضاء أمر بنى أمية ، ومصير الأمر إلى بنى العباس ، فقالوا لو أصبنا رجلا له سلطان انقطعنا إليه ، وكنا فى خدمته يرزقنا رزقا نعود به على عيالنا ! فقال بعضهم عسى الله عز وجل أن يسبب ذلك لنا أو لبعضنا ، فيفضل علينا فتوافقوا بينهم ألاّ يصيب رجلٌ منهم سلطاناً إلا آسى أصحابه

وطلب المنصور كاتبا فوصف له عبد الملك بن حميد فأمر بإحضاره فأحضر ، فقلده كتابته ودواوينه ، وتذكر عبد الملك أصحابه فأحضرهم وقلدهم الأعمال فأثروا وحسنت أحوالهم ، وكانوا إذ ذاك يعرفون بأصحاب التينة وهو الذى أمره أبو جعفر ، وقد أنشد أبو دلامة أبياته التى يقول فيها :

هبّتْ تعاتبنى من بعد رقدتها ... أمُّ الدّلامة لما هاجها الجزع

قالت تبغَّ لنا نخلا ومُزْدرعا كما لجيراننا نخل ومزدرع
خادع خليفتنا عنها بمسألة إن الخليفة للسوّال ينخدع

أن يقطعه خمسمائة جريب عامرة وخمسمائة جريب غامرة، فقال أبو دلامة أما العامر فقد عرفته ، فما الغامر ؟ فقال الذى لايدركه الماء ، ولا يسقى إلا بالمؤونة والكلفة ، فقال أبو دلامة فاشهد يا أمير المؤمنين ومن حضر أنى قد أقطعت عبد الملك بن حميد بادية بنى أسد كلها ! فضحك المنصور ، وقال اجعلها ياعبدالملك عامرة كلها ، فقال أبودلامة لأبى جعفر أتأذن لى فى تقبيل يدك ؟ فلم يفعل ومنعه فقال ما منعنى شيئا هو أقل على عيالى ضررا من هذا !

وكانت لعبد الملك بن حميد منزلة من أبي جعفر خاصية عنده ، وكان عبد الملك ربما تثاقل عنه وتقالل عليه ، فاستثقل المنصور ذلك منه مع استصلاحه له وسكونه اليه ، وأمره باتخاذ من ينوب عنه إذا غاب عن حضرته ، فاتخذ أبا أيوب المورياني وهو فتى حدث من قرية من قرى الأهواز ، يقال لها الموريان ، واسمه سليمان بن مخلد ويكنى مُخْلَد أبا سليمان

وكان خفيفا ظريفا على القلب متأتياً لما يريده منه أبو جعفر ، وقد كان أخذ من كل شيء طرفا ، وكان يقول ليس من شيء إلا وقد نظرت فيه إلا الفقه فلم أنظر فيه قط ، وقد نظرت في الكيمياء والطب والنجوم والحساب والسحر

وكانت له بأبي جعفر حرمة رعاها له نخف على قلبه ، واعتل عبد الملك من نقرس كان به فلزم منزله، فلم يزل أمر أبي أيوب يعلو ، ومحله من رأى أبي جعفر يزيد حتى قلده وزارته وفوض إليه أمره كله

وكان له أخ يقال له خالد وابنا أخ يقال لهما مخلد ومسعود ، وكانا ظريفين جميلين، فنالا من الدنيا و نعيمها حظا جسيما ، وقلد المنصور أبا أيوب الدواوين مع الوزارة وغلب عليه غلبة شديدة وصرَّف أهله جميعا فى الأعمال ، حتى قالت العامة إنه قد سحر أبا جعفر، واتخذ دهنا يمسحه على وجهه إذا أراد الدخول عليه

وضربت المثل بدهن أبى أيوب ، وبلغ من خصيصاء أبى أيوب بأبى جعفر أن أم سلمة بنت الطلحية اتخذت لأبى جعفر مجلسا فى الصيف وجعلت فيه الرياحين والثلج وسائر الطيب ، فلما صار اليها أعجب ببرده وحسنه ، ثم قال لها ما أنتفع بما أنا فيه، قالت ولم يا أمير المؤمنين؟ قال إنه ليس معى أبو أيوب ، فيحدثنى ويؤنسنى ، قالت يا أمير المؤمنين إنما هيأته لسرورك فتبعث إليه ، فبعث إليه فحضر فقال له يا أبا أيوب كما رأيت طيب هذا الموضع ولذته لم أنتفع به حتى تكون معى فيه، فدعا له وأقام معه

والذى كان بين أبى أيوب وبين أبى جعفر حتى رعاه له ، ولما استخلفه عبد الملك بن حميد غلب عليه أنه لما غلب عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب فى أيام مروان على أصبهان وبعض فارس ، وبعض الأهواز ، وفد إليه الهاشميون أجمعون من بنى على رضوان الله عليه ومن بنى العباس وغيرهما فاستعان بهم فى أعماله

وقلد أبا جعفر المنصور كورة أيذج فأخذ أبو جعفر المال ، وحمله بسفاتج على يد عبد الرحمن بن عمر إلى البصرة، ولم يحمل إلى ابن معاوية شيئا ثم صار أبو جعفر إلى الأهواز قاصدا البصرة ، وكان سليمان بن حبيب بن المهلب عليها من قبل مروان قد وضع الأرصاد على كل من يمر من عمال ابن معاوية ، فمر برصده ابو جعفر فأخذ وأتى به سليمان بن حبيب .

وكان أبو أيوب الموريانى يكتب له، فقال له لما دخل عليه هات المال الذى اختنته ، فقال لا مال عندى ، فدعا له بالسياط فقال أبو أيوب أيها الأمير توقف عن ضربه ، فان الخلافة إن بقيت فى بنى أمية ، فلن يسوغ لك ضرب رجل من بنى عبد مناف ، وإن صار الملك إلى بنى هاشم لم تكن لك بلاد الاسلام بلادا ، فلم يقبل منه وضرب أبا جعفر اثنين وأربعين سوطا ، فلما اتصل ضربه إياه قام إليه أبو ايوب فألقى نفسه عليه ، ولم يزل يسأله حتى امسك عن

ضربه وأمر بحبسه فتحركت المضرية لضرب أبي جعفر وحبسه وتجمعوا وصاروا إلى الحبس فكسروه وأطلقوا أبا جعفر

وخرج أبو جعفر حتى قدم البصرة ، فدعا لأبي أيوب ما كان منه ، وكان يتذكره ويشكره ، ولم يزل أبو أيوب بالأهواز إلى أن ظهر أمر بني العباس ، وكان يكتب لسليمان بن حبيب في أيام مروان على الخراج ماجسّاس[1] بن بهرام بن مردانشاه بن زاذانفروخ الأعور كاتب عبد الله بن زياد

وكان زاذنفروخ من أحفظ رجل ، وكان غالبا على عبد الله بن زياد ، وذكر آل زياد أن الحريق وقع في الديوان بالبصرة ، فاحترق بأسره ، وبالبصرة يومئذ من المقاتلة والذرية ثمانون ألفاً فكتبهم زاذانفروخ عن ظهر قلب جميعا ، لم يغلط بأحد إلا بامرأة من بني سُليم أُنَيسي اسمها

وكان ابو جعفر لما صرف خالد بن برمك عن الديوان وقلده ابا ايوب قلد خالدا فارس ، فأقام بها خالد سنين وابو ايوب يسعى عليه ويحض ابا جعفر على مكروهه ويسعى به ليسقطه من عينه ؛ لأنه كان يعرف ما فيه من الفضل ويتخوفه على محله وان يرده ابو جعفر إلى الديوان الذى كان يتقلده ، فلما كثر ذلك على ابي جعفر صرف خالدا عن فارس ونكبه وألزمه ثلاثة آلاف الف درهم ، ولم يكن عنده إلا سبعمائة ألف درهم فصدقه عن ذلك فلم يصدقه ، وأمر بمطالبته بالمال فأسعفه صالح صاحب المصلى بخمسين ألف دينار ، واسعفه مبارك التركى بألف ألف درهم ووجهت الخيزران بجوهر قيمته ألف ألف درهم ومائتا ألف درهم رعاية للرضاع بين الفضل ابنه وبين هرون ابنها ، واتصل ذلك بابي جعفر فتحقق عنده قوله انه لا يملك إلا ما حكى ؛ فصفح له عن المال فشق ذلك على ابي أيوب ، واحضر بعض الجهابذة ودفع إليه مالا ، وامره ان يعترف انه لخالد ودس إلى ابي جعفر من سعى بالمال ، فأحضر الجهبذ فسأل عن المال ، فاعترف به ، فأحضر خالدا فسأله عن ذلك

1) هكذا بالاصل ويحتمل ان يقرأ ماجسبس على انني ارجح انه ماجشنس والفرس تسمى به

فحلف بالله انه لم يجمع مالا قط ولا ادخره ، ولا يعرف هذا الجهبذ ، ودعا إلى كتم الحال ، فتركه ابو جعفر بحضرته ، واحضر النصرانى فقال له اتعرف خالدا إن رأيته ؟ قال نعم يا امير المؤمنين اعرفه ان رأيته ، فالتفت الى خالد وقال قد اظهر الله براءتك ، وهذا مال اصبناه بسببك ثم قال للنصرانى هذا الجالس خالد فكيف لم تعرفه ! قال الأمان يا امير المؤمنين ، واخبره الخبر فكان لا يقبل من أبى ايوب بعد ذلك شيئا فى خالد

ولما بنى ابو جعفر مدينة السلام قسمها ارباعا فجعل الربع منها إلى ابى ايوب وزيره والربع الثانى إلى عبد الملك بن حميد كاتبه ، ولعبد الملك قطيعة وربض يعرف بعبد الملك بن حميد فى الجانب الغربى والربعين الآخرين الى الربيع ، والى سليمان بن مجالد ، ونقل إليها الخزائن والدواوين وبيوت الأموال فى سنة ست واربعين ومائة

وكان لأبى أيوب كاتب يقال له محمد بن الوليد مولى لهشام بن عبد الملك او لمروان بن محمد ، وكان خاصا به غالبا عليه ، وكان ابو جعفر ولى طريفا مولاه بريد مصر والشأم والجزيرة

وكان محمد بن الوليد شرها حريصا على أخذ الرشا ، فكتب إلى طريف على لسان أبى أيوب يحمل مائة ألف دينار إليه فحملها ولم يعلم أبو أيوب بها

وكان لأبى جعفر مولى يقال له مطر كان أبو أيوب ابتاعه من حميد الصيرفى وأهداه إليه فأعتقه أبو جعفر ، فكان أبو أيوب يعتنى به فأشار على أبى جعفر بصرف طريف وتقليد مطر ففعل ذلك ، وأمره بمحاسبة طريف فحاسبه وضيق عليه فأحفظه ذلك على أبى أيوب من جهة ما قد كان حمله ، وعنده أنه قد وصل إلى أبى أيوب ، ومن عنايته بمطر

فلما صار إلى أبى جعفر أخرج الكتاب الذى كان قد كتبه إليه محمد بن الوليد عن أبى أيوب فدفعه إليه ، فلما وقف عليه دفعه إلى أبى أيوب ، فقال له هذا

خط كاتبي وخاتمي ولا علم لي بشيء من أمره ، فقال له أبو جعفر هذا أشد الأمرين أن تكون مائة ألف دينار تؤخذ ولا يعلم علمها ، ثم خرج من حضرته ودعا محمد بن الوليد فسأله فقال نعم هذا كتابي وأنت أمرتني به وكابره وبهته وكره أبو أيوب مراجعته لئلا يسعى به فوكل به . وحبسه وحظر عليه أن يصل إليه أحد ينقل عنه أو ينقل إليه شيئا لئلا يسعى به

وكان أبو جعفر خارجا إلى قرميسين[1] فلما خرج عن الكوفة ونزل حمام عمر قال له أبو أيوب إن كاتبي هذا قد جنى هذه الجناية ، وهو مولى لبني أمية ولست أثق به وقد أقدم على ما أقدم عليه ، فقال له اقتل ابن الخبيثة . فدعا أبو أيوب بالمُسَوَّر البربري ، فقال له انطلق ، فاقتل محمد بن الوليد

فلما قدم المسور ودعا بمحمد قال له يامسور خذ هذا القرطاس فأعطه أمير المؤمنين ، فإنه إن وقف عليه قلدك مكان أبي أيوب ، فقال له يا ابن الخبيثة أتامرني أن أدفع على أبي أيوب ، فأخذ القرطاس منه وضرب عنقه وصار بالقرطاس إلى أبي أيوب فوجد فيه كل عظيمة من أمره ، فتتبع أموال محمد بن الوليد حتى أدى منها إلى أبي جعفر مائة ألف دينار ، ووقر ذلك عليه في نفس أبي جعفر

وكان حبيب بن عبد الله بن رَغْبان مولى حبيب بن سلمة الفهري يتقلد الإعطاء لأبي جعفر ، وإليه ينسب مسجد ابن رغبان بمدينة السلام ، ومن ولده الشاعر المعروف بديك الجن ، وله أشعار مختارة ، ومن جيدها قصيدته في إبراهيم بن مدبر الكاتب ، وهي التي يقول فيها

ما المطايا إلا المنايا وما فرّق شيء تفريقها الأحبابا

ودخل على أبي جعفر حبيب بن عبد الله بن رغبان الكاتب يوما في شهر رمضان ، فقال له أتعطش يابن رغبان؟ قال نعم ياأمير المؤمنين ، قال ماسحورك؟

---

1) في ف قرمسين والتصحيح عن ياقوت وهي تعريب كرمان شاهان بلد قريب من همذان والدينور

قال فرخ أو دجاجة أو لحم بارد من طبيخ أو شواء ، قال هـذا الذى يعطشك فتسحر بما يتسحر به أمير المؤمنين ، انظر إلى كعكات من هذا الكعك الشامى فاجعله فى قدح واغمره بالماء من أول الليل ، فاذا كان فى السحر تجده قد ماث فاشربه ، فانه طعام يعصم وشراب يُرْوِى .

قال أبو العباس ثعلب حدثنى محمـد بن سلاَّم الجمحى قال حدثنا خلاد بن يزيد قال كنا يوما جلوسا عند أبى أيوب فى مجلسه فأتاه رسول أبى جعفر فامتقع لونه وتغير ومضى إليه ، ثم رجع فقال بعض أصحابه فى ذلك ، فقال سأضرب لكم مثلا تقوله العامة ، وهو أن البازى قال للديك ما شىء أقل وفاء منك؟ لأن أهلك أخذوك فى بيضة فحضنوك ، وخرجت على أيديهم فأطعموك فى أكفهم ، ونشأت بينهم حتى إذا كبرت جعلت لا يدنو واحد منهم منك إلا طرت يمنة ويسرة وصحت وصوّت ، وأنا اخذت من الجبال كبيرا فعلمونى وألفونى ، ثم يخلون عنى فآخذ صيدى وأجىء إلى صاحبى ، فقال له الديك لو رأيتُ فى سفافيدهم من البزاة مثل الذى رأيتُ فيها من الديكة كنت شرا منى ، ولكنكم لو كنتم تعلمون ما أعلمه ، لم تتعجبوا من خوفى مع ماترون من تمكنى .

ولما خالف عبد الله بن على على أبى جعفر ، وادعى الخلافة لنفسه أنفذ ابو جعفر أبا مسلم لقتاله ، فتلقاه عبد الصمد بن على بالموصل ، فكان اول قتيل قتل بينهما أبو غالب كاتب عبد الله بن على فاستدل بذلك علىّ من جهة الفأل على انحلال أمره ، فلما هرب عبد الله منهزما من ابى مسلم وقصد اخويه سليمان وعيسى وهما بالبصرة ، دخلها مستترا ، وكاتب سليمان وعيسى أبا جعفر فى أن يؤمنه ، فأنفـذ سليمان كاتبه عمر بن أبى حايمة فى ذلك ، واستقر الأمر على اعطائه الأمان ، فأنفذ أبو جعفر سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب وأمر بضغطهم ، والتضييق عليهم حتى يشخصوا بعبد الله بن على إلى حضرته

وكان ابن المقفع يكتب لعيسى بن على ، فأمره عيسى بعمل نسخة للأمان

لعبد الله فعملها ووكدها ؛ واحترس من كل تأويل يجوز أن يقع عليه فيها وترددت بين أبي جعفر وبينهم في النسخة كتب إلى أن استقرت على ما أرادوا من الاحتياط ، ولم يتهيأ لأبي جعفر إيقاع حيلته فيها لفرط احتياط ابن المقفع

وكان الذي شق على أبي جعفر أن قال في النسخة يوقع بخطه في أسفل الأمان، وإن انا نلت عبدالله بن على او واحدا ممن اقدمه معه بصغير من المكروه او كبير، او اوصلت إلى احد منهم ضررا سراً أو علانية على الوجوه والأسباب كلها تصريحا او كناية او بحيلة من الحيل: فأنا نفيٌّ من محمد بن على بن عبد الله مولود لغير رِشْدة [1] وقد حل لجميع أُمة محمد خلعى وحربى والبراءة منى ، ولا بيعة لى فى رقاب المسلمين ، ولا عهد ولا ذمة ، وقد وجب عليهم الخروج من طاعتى وإعانة من ناوأنى من جميع الخلق ، ولا موالاة بينى وبين احد من المسلمين ، وهو ومتبرىءٌ من الحول والقوة ، ومدع ان كان أنه كافر بجميع الأديان ، ولقى ربه على غير دين ولا شريعة ، محرَّمٌ المأكل والمشرب والمناكح والمركب ، والرق والملك والملبس ، على الوجوه والأسباب كلها ، وكتبت بخطى ولا نية لى سواه ، ولا يقبل الله منى إلا إياه والوفاء به .

فقال ابو جعفر إذا وقعت عينى عليه، فهذا الأمان له صحيح لأنى لا آمن أن اعطيه إياه قبل رؤيتى له ، فيسير فى البلاد ويسعى على بالفساد، وتهيأت له الحيلة عليه من هذه الجهة ، فقال من يكتب له هذا الأمان ؟ فقيل ابن المقفع كاتب عيسى بن على ، فقال أبو جعفر فما أحد يكفينيه

وكان سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب يضطغن على ابن المقفع أشياء كثيرة ، منها أنه كان يهزأ به ، ويسأله عن الشيء بعد الشيء ، فاذا أجاب قال له أخطأت ويضحك ، فلما كثر ذلك على سفيان غضب فافترى عليه ، وقال له ابن المقفع يابن المغتلمة والله ما اكتفت أمك برجال أهل العراق، حتى تعدتهم إلى

---

1) يقال فلان لغير رشدة أى ولد زنا

أهل الشام ، وكانت أم سفيان بن معاوية ميسور بنت المغيرة بن المهلب ، وكان تزوجها القاسم بن عبد الرحمن بن عطاء الأشعرى

ومنها أن عبد الله بن عمر بن عبد العزيز كان استعمل سفيان بن معاوية على نيسابور ، وكان عليها قبله المسيح بن الحوارى ، وكان ابن المقفع يكتب للمسيح ، ولما قرب سفيان من المسيح أرسل إليه المسيح إن شئت أعطيتك خمسمائة ألف درهم وتنصرف عنى ، وإن شئت اعطى خمسمائة ألف أخلّيك والعمل ، فقال سفيان لا أعطيك شيئا ولا أقبل منك شيئا ، فسفر بينهما ابن المقفع ، واحتال على سفيان ودافعه وعلاه حتى استعد المسيح ، وكاتب الاكراد وجميع أطرافه وقوى أمره ، فلما استظهر امتنع على سفيان وقال له انصرف فليس لك عندى شىء ، فأبى سفيان أن ينصرف واقتتلا وضرب سفيان المسيح فأطار عمامته ولم يصل السيف إليه وضرب المسيح سفيان فكسر ترقوته وانهزم إلى دورق ، فحقد ذلك أيضا على ابن المقفع ، فلما قال أبو جعفر ما قال كتب به الخصيب إلى سفيان فعمل على قتله إذا أمكنه ذلك فقال عيسى بن على يوما لابن المقفع صر إلى سفيان فقل له كذا وكذا ، فقال له وجه معى ابراهيم بن جبلة ابن مخرمة الكندى ، فانى لا آمن سفيان فقال كلا انطلق إليه ولا تخف فانه لم يكن ليعرض الك وهو يعلم مكانك منى ، فقال ابن المقفع لابراهيم بن جبلة انطلق بنا إلى سفيان نبلغه رسالة الامير ونسلم عليه ، فانى لم آته منذ قدمنا ، وأخاف ان يظن بى موجدة وعداوة ، فمضيا فجلسا على باب الديوان ، وجاء عمر بن جميل فجلس إليهما فخرج غلام لسفيان فنظر إليهم ثم رجع ثم عاد ، فسار عمر بن جميل وقال له يقول لك الامير ادخل الديوان فاجلس فيه ، فاذا انتصف النهار فمر بى فقام فدخل الديوان ، وجاء الاذن فاذن لابراهيم بن جبلة ، فدخل ثم خرج فأذن لابن المقفع فلما دخل عدل به إلى مقصورة اخرى فيها شبرويه الملاديسى وعتاب المحمدى فأخذاه فشداه كتافا ، فقال ابراهيم لسفيان ائذن لابن المقفع ، فقال الآذن

أذن له فخرج الآذن ثم رجع ، فقال قد انصرف . فقال سفيان لابراهيم هو أعظم كبرا من أن يقيم ، وقد أذنت لك قبله ولا أشك فى أنه قد غضب ثم قام سفيان وقال لابراهيم لا تبرح ودخل المقصورة التى فيها ابن المقفع ، فقال له لما رآه ابن المقفع قد وقعت والله ، فقال أنشدك الله ، فقال أمى مغتلمة كما ذكرت إن لم أقتلك قتلة لم يقتل بها أحد قط ! وأمر بتنور فسجر ، ثم أمر بها فقطعا منه عضوا ثم ألقاه فى التنور وهو يراه ، فلم يزل يقطعه عضوا عضوا ويلقيه فى التنور وهو يراه إلى أن قطعه أعطياه ثم أحرقه وهو يقول والله يابن الزنديقة لأحرقنك بنار الدنيا قبل نار الآخرة

فلما فرغ منه رجع إلى ابراهيم فحدثه ساعة ثم خرج ابراهيم فقال له غلام ابن المقفع ما فعل مولاى ؟ قال ما رأيته قال بلى قد دخل بعدك فقال ما رأيته ورام الرجوع إلى سفيان فحجب وانصرف

وانصرف معه غلام ابن المقفع وهو يصيح ويبكى ويقول قتل سفيان مولاى فدخل ابراهيم على عيسى بن على ، ومعه غلام ابن المقفع يبكى ، فقال عيسى لابراهيم ما هذا ؟ فخبره الخبر على جهته ، فقال له عيسى ارجع فقل له خل عن ابن المقفع إن لم يكن قتلته ، وإن كنت قتلته فوالله لأطلبنك بدمه ولا أدع جهدا ، فصار إلى سفيان وأبلغه ما قال عيسى، فقال ما رأيته ودعا بعمر بن جميل من الديوان ، فقال عمر فدخلت عليه وهو متغير على خلاف ما كنت أعرف من انبساطه ، فقال لى ألا تعجب من ابن عمك يأتينى برسالة عيسى بكذا وكذا ، فقلت لا ذنب له فيما قال إنما ارسل برسالة فأداها ، فقال لى صدقت فما الرأى عندك ؟ قال فقلت ليس لمكذوب رأى ، ولا أدرى ما اشير به عليك إلا ان تصدقنى ، إن كنت تقدر على ابن المقفع فلى رأى ، وإن كنت لا تقدر عليه فلى رأى آخر ، فقال فانه لا يُرى ابدا ، فقلت فى نفسى أحيق بك لم تستطع ان تغيب على ، فتقول أشر على بالأمرين جميعا إن قدر عليه او لم يقدر عليه !

ثم قال له إن عيسى لا يقدر لك على مضرة هاهنا ، لأنك الوالى، ولكنه سيكلم أمير المؤمنين بالكوفة ، وليس احد اخوف عليك من ابى ايوب سليمان بن ابى سليمان الكاتب ، فانه ان عاونه ضرك ، وإن كف عنك رجوت أن لا ينال عيسى منك ما يريد ، فاكتب إلى أبى موسى بن أبى الزرقاء تعلمه أن عيسى بن على اتهمك من أمر ابن المقفع بما لا علم لك به ، وتسأله أن يدفع [عنك] عند أمير المؤمنين ، وأكتب أنا أيضا إليه ، فقال نعم ما رأيت

وأمر [عيسى بن على] قوما فنادوا فى الطرق أن سفيان بن معاوية قتل ابن المقفع ، ووجه بنو على إلى المنجاب أبى بن عيينة ، ليرتهنوه بابن المقفع ، فمنعه سفيان من إتيانهم ، فصاروا إلى المنصور فكلمه عيسى فى ابن المقفع ، وقال قتله سفيان بن معاوية ، فأنفذ المنصور أبا الخصيب ، وقال له ائتنى بسفيان أو بابن المقفع ، وكتب إليه يا بن أبى سفيان ، قد وجهت إليك بأبى الخصيب ابن وزقاء[1] فان كان ابن المقفع حيا فادفعه إليه ، واثبت على عملك . وإن لم تدفعه إليه ، فقد أمرته بعزلك وبحملك . فقال سفيان ما أقدر عليه

فقيده أبو الخصيب وحمله وخرج مع سفيان رجال من أهل بيته فأشار عليهم رجل أن يلقوا أبا أيوب ، فيكلموه كلاما خشنا يرهب معه منهم ، ويتخوف ناحيتهم ، وان لا يسرفوا عليه فيحفظوه ، ولا يضعفوا فى مخاطبته فيطمعوه ، ففعلوا ذلك ، وقال له سفيان أنا أعلم أنى إن سلمت فبك أسلم ، وإن عطبت فوالله إنى وأهل بيتى نعلم أنى بك عطبت وبرأيك أقتل ! فارتاع أبو أيوب ، وقال أنا ! قال نعم ، لأنك تقدر على أن تدفع عنى ، فقال لست أدع القيام بأمرك ، وقد ألقى إلى موسى بن أبى الزرقاء طرفا من عذرك ، وكسر ذلك أبا أيوب عن نصرة عيسى ، وعيث من أمر سفيان ، ودفع عنه ، وأمسك عيسى عن الكلام فى أمر ابن المقفع ، وأطلق أبو جعفر سفيان ، وعاد رأيه له

١) فى ف ابن روقاء

وكان حماد عجرد مولى لبنى أسد بن عامر ، وكان نبيلا شاعرا من كتاب الرسائل ، وقد كتب ليحيى بن محمد بن صُولْ بالمَوْصل ، ثم لعقبة بن سلم بالبحرين ، وكان صديقا لابن المقفع

فذكر حماد أن الذى قتل ابنَ المقفع ، أن أبا جعفر قال يوما لأبى أيوبَ وقد أنكر عليه شيئا ـ كأنك تحسب أنى لا اعرف موضع أَكْتَبِ الخلق ، وهو ابن المقفع . مولاى ؟ فلم يزل أبو ايوب خائفاً له ، يسعى ويدب فى امره حتى قتله

وكان ابن المقفع من اهل جُوْر[1] من فارس ، وكان سريا سخياً ، يطعم الطعام ويتسع على كل من احتاج إليه ، وكان يكتب لداود بن عمر بن هبيرة على كِرْمان ، فأفاد معه مالا ، فكان يجرى على جماعة من وجوه اهل البصرة والكوفة بين الخمسمائة إلى الألفين فى كل شهر

وكانت بين ابن المقفع وبين عمارة بن حمزة مودة ، فأنكر ابو جعفر على عمارة فى وقت من الأوقات شيئاً ونقله إلى الكوفة

وكان ابن المقفع إذ ذاك بها ، فكان يأتيه فيزوره ، فبينا هو ذات يوم عنده إذ ورد على عمارة كتاب وكيله بالبصرة ، يعلمه أن ضيعة مجاورة لضيعته تباع ، وان ضيعته لا تصلح إن ملكها غيره ، وان اهلها قد بذلوا له ثلاثين ألف درهم ، وانه إن لم يبتاعها فالوجه ان يبيع ضيعته

فقرأ عمارة الكتاب ، وقال ما اعجب هذا ، وكيلنا يشير علينا بالابتياع مع الإضاقة والاملاق ، ونحن إلى البيع احوج ! وكتب إلى وكيله ببيع ضيعته والانصراف إليه

وسمع ابن المقفع الكلام ، وانصرف إلى منزله واخذ سفتجة إلى الوكيل بثلاثين ألف درهم ، وكتب إليه على لسان عمارة إنى قد كنت كتبت إليك

---

(1) جور مدينة نزهة طيبة بفارس ، والعجم تسميها كور

ببيع ضيعتي ، ثم حضرني مال وقد انفذت اليك سفتجة ، فابتع الضيعة المجاورة لك ، ولا تبع ضيعتي ، وأقم مكانك وانفذ الكتاب بالابتياع إليّ

ووجه الكتاب إليه مع رسول قاصد ، فورد على الوكيل وقد باع الضيعة ، ففسخ البيع وابتاع الضيعة المجاورة ، وكتب إلى عمارة بذكر الأمر ، وانه قد صارت لك ضيعة نفيسة

فلما قرأ عمارة الكتاب اكثر التعجب ، ولم يعرف السبب ، وسأل عمن حضر عند ورود كتاب الوكيل ، فقيل له ابن المقفع ، فعلم أنه من فعله ، فلما صار إليه بعد أيام وتحدثا ، قال عمارة بعثت بتلك الثلاثين ألف درهم إلى الوكيل وكنا إليها هاهنا أحوج ، قال فإن عندنا فضلا ، وبعث إليه بثلاثين ألفاً أخرى

وحكى ان سفيان لما أمر بتقطيع ابن المقفع وطرحه فى التنور ، قال له والله لتقتلني فتقتل بقتلي ألف نفس ، ولو قتل مائة مثلك ماوفوا بواحد ! ثم قال :

إذا ما ماتَ مثلي ماتَ شخصٌ ... يموتُ بموته خلق كثير[1]

وأنت تموتُ وحدكَ ليس يدرى ... بموتك لا الصغيرُ ولا الكبير

وكان غسان بن عبد الحميد كاتب سليمان بن على يقول لخادمه إذا قلت لك خَوِّض[2] لنا سويقا فخثره ، فان الرجل لا يستحيي ان يزداد ماء يرققه به ، ويستحيي أن يزداد سويقاً يخثره به .

ولما أقبل أبو مسلم من الدَّسكرة يريد المدائن وعمل أبو جعفر على قتله دعا أبا أيوب المُوريانى ، فقال له ياسليمان شاور سَلْمَ بن قتيبة فى امره ، فشاوره ، فقال سلم أرى ان يتجاوزله ، ويصفح عن ذنبه

وأخبر ابو أيوب ابا جعفر بذلك ، فقال له ابو جعفر عاوِدْه ، واعلمه انى امرتك ان تشاوره ، فعاوده وأعلمه ذلك ، فقال له سلم : قل له لا يصلح سيفان فى غمد ، ثم تلا (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا)

---

١) يروى يموت بموته بشر كثير ٢) يخوضه أى يجدحه ثم ابا يخلطه بالعصى المل[illegible]

وكان مما خاطب به ابومسلم ابا جعفر فى كتاب كتبه إليه قبل ان يُجْمِعَ الرجوعَ : إنا كنا نروى عن ملوك آل ساسان ، أن أخوف ما يكون الوزراء ما سكنت الدَّهماء ، فأنا نافر من قربك ، حريص على الوفاء بعهدك ، حرىٌ بالسمع والطاعة لك ، غير أنها من بعيد ، حيث تقارنها السلامة ، فى كلام طويل

قال ابو ايوب ولما قرب ابو مسلم من المدائن دخلت على أبى جعفر بين العصر والمغرب ، وهو فى خباء شعر على مصلى ، وبين يديه كتاب من أبى مسلم فلما رآنى رمى بالكتاب إلىَّ : فقال لى اقرأه ياسليمان ، فقرأته ، ثم قال لى والله لئن ملأت عينى منه لأقتلنه ، فقلت فى نفسى إنا لله وإنا إليه راجعون ، طلبتُ الكتابة حتى بلغتُ غايتها ، وصرتُ كاتباً للخليفة وقع بين الناس هذا التخليط ! والله ما ارانا نسلم ، وما احسب اصحاب ابى مسلم يرضون إن قُتل ان يدعوا هذا على الأرض ، ولا أحداً من اسبابه

ثم انصرفت متفكرا ، وامتنع على النوم ليلتى تلك ، ثم خطر ببالى ان الرجل إن قدم آمنا كان اسهل لما يراد منه ، إن قدم نافراً مستوحشا .

فأحضرت سلمة بن سعيد بن جابر ، ووعدته ان اوليه كسكر ، واطمعته فى إحسان كثير ، وامرته ان يأتى ابا مسلم ، ويعرفه ان امير المؤمنين قد عزم ان يوليه ماوراء بابه ، ويريح نفسه ، ويتودّع ، وقلت له تسأله ان يجعل امرك مما يسأل فيه إذا لقيه ، فصار سلمة إلى ابى مسلم ، فعرفه ذلك فظنه حقا ، وقصر فى التحرز والتأهب ، واسترسل وورد غارا [1] فكان من امره ما كان

ولما قتل المنصور أبا مسلم دخل عليه أبو الجهم بن عطية ، فلما رآه مقتولا ، قال إنا لله وإنا إليه راجعون ، فقال أبو أيوب ، فخفت المنصور عليه ، فقلت له مالك يا أبا الجهم أشرت بقتله حين خاف ، حتى إذا قتل قلت هذه المقاله ! ؟ قال فنبهت رجلا عاقلا ، فتكلم بكلام أصلح ما جاء منه

---

(١) الغار الغافل المنخدع بالباطل

وكان يتقلد لأبى جعفر بيت المال الفرجُ بن فضالة التنوخي ، وقد كان عمل لعبد الملك ، فسمعه رشيد الخادم يخطىء ابا جعفر فى قتل ابى مسلم ومعاجلته إياه ، فنقل كلامه إليه . فتغيظ عليه ودعا به ، فسأله عن ذلك ، فأقر به فقال له كيف لم تخطىءْ صاحبك فى قتله عمر بن سعيد معاجلا له : فقال لأنه قتل عمرا فى قصره بعد ان احاطت به جدرانه ، وأُغلقت دونه ابوابه ، وحوله اثنا عشر ألفا من عبيده ومواليه ، وقتلت انت ابا مسلم وانت فى خرق(١) من الارض ، وكل من حولك له ومنه واليه !

وطلب ابو جعفر الربيعَ يوما فلم يجده ، فلما دخل عليه سأله عن خبره ، فقال كنت عند سليمان الكاتب — يعنى ابا ايوب — فقال ومن رايت عنده ؟ قال عبد الله بن مروان بن محمد ، وقد طلب منه حاجة فقضاها ، وقام عبد الله فقبل رأسَ سليمان

وكان أبو جعفر متكئا فاستوى جالسا ، وقال ياربيع قبل عبد الله رأسَ سليمان ؟ فقال نعم ، فقال الحمد لله ، وخر ساجدا ، فأطال . ثم قال لى ياربيع أتدرى أى نعمة جدد الله عند امير المؤمنين فى هذا الوقت ؟ قال لا أعلم أسأل الله ان يجدد عنده النعم ويواليها ويزيد فيها وكشف عن ساقه ، فاذا فيها أثرٌ بينٌ ، ثم قال لى إنى بدمشق فى ايام مروان إذ رايت للناس حركة ، فقلت ما هذا ؟ فقيل لى عبد الله بن امير المؤمنين يركب ، وما ركب قبل ذلك ، وقد امر الجند بالزينة ، وانجفل الناس للنظر ، فخرجت فيمن خرج . فازدحم الناس على بعض الطرق زحمة شديدة ، وكانت دابتى صعبة فسقطت عنها ، وانكسرت ساقى ، وغشينا الناس ومكثت دهرا عليلا ، وهاهو اليوم يقبل رأس كاتبي ، فالحمد لله على نعمته وحسن إدالته

وكان لسَوّار القاضى بالبصرة من قبل أبى جعفر كاتبان ، رزق أحدهما

---

١) الخرق من الأرض القفر ، او الأرض الواسعة

أربعون درهما ، ورزق الآخر عشرون درهما ، فكتب إليه سوار يسأله السوية بينهما ، فنقص صاحب الأربعين عشرة دراهم ، وزادها صاحب العشرين وإنما أراد سوّار أن يلحق صاحب العشرين بصاحب الأربعين .

وقعد المنصور يوماً فى الخضراء فبينا هو مشرف على الصَّراة ¹ إذ نظر إلى صياد قد ألقى شبكته ، فأخرج سمكة عظيمة ، فقال المنصور لبعض مواليه أخرج إلى المُسَيِّب ، فأمره أن يوكل بالصياد من يدور معه ، فإذا باع السمكة قبض على مشتريها وصار به إلينا ، ففعل المسيب ذلك

فلقي الصياد رجل نصرانى ، فابتاعها منه بثلاثين درهما ، فلما دفع إليه الثمن وأخذ السمكة منه قبض عليه العون

فأتى به المسيب ، فأدخله إلى أبى جعفر ، فقال له من أنت ؟ قال رجل من أهل الذمة ، قال بكم ابتعت هذه السمكة ؟ فقال بثلاثين درهما . قال وكم عيالك ؟ قال ليس لى عيال ، فقال فأنت بأذنك ، تشترى مثل هذه السمكة بثلاثين درهما ! كم عندك من المال ؟ قال ماعندى شيء . قال يامسيب خذه إليك ، فإن أقر بجميع ماعنده وإلا قتلته ، فأقر بعشرة آلاف درهم ، فقال كلا إنها أكثر ، فأقر بثلاثين ألف درهم وأحل دمه إن وقف على أكثر منها ، وقال له من أين جمعت هذا المال ؟ فقال وأنا آمن يا أمير المؤمنين ؟ فقال أنت آمن على نفسك إن صدقت

قال كنت جاراً لأبى أيوب سليمان بن سليمان كاتبك ، فولانى جهبذة ² بعض نواحى الأهواز ، فأصبت هذا المال

فقال المنصور الله أكبر هذا مالنا اختنته ، وأمر المسيب بحمل المال إلى بيت المال ، وأطلق الرجل

---

١) الصراة نهر يأخذ من نهر عيسى من عند بلدة يقال لها المحوّل بينها وبين بغداد فرسخ ، والخضراء قصر ٢) الجهبذ الناقد الخبير

وكان أبودلامة تأخرعن حضور باب أبي جعفر أياما ، ثم حضر فأمر بإلزامه القصر ، وأن لايبرح منه ويصلى فيه الأولى والعصر معه فى مسجده ، ووكل به لذلك

فمر به [ابو] أيوب الموريانى ، وهو إذ ذاك وزير أبي جعفر ، فقام إليه أبو دلامة ودفع إليه رقعة مختومة ، وقال هذه ظلامة إلى أمير المؤمنين فتوصلها أعزك الله بخاتمها

فأخذها ابو ايوب ، فلما وصل إلى أبى جعفر اوصلها إليه فقرأها فإذا فيها

ألم تر ياهـذا الإمام الذى أنا بمسجده والقصر مالى وللقصر
أصلى به الأولى مع العصر صاغرا فويلى من الأولى ، وويلى من العصر
ويحبسنى عن مجلس أستلذه أعَلّلُ فيه بالسماع وبالخمر
ووالله مالى نية فى صلاتكم ولا البر والاحسان والخير من أمرى
وما ضره - والله يصلح حاله - لو أن خطايا العالمين على ظهرى !

فضحك المنصور ، وأمر بإحضاره ، فلما حضر قال هذه قصتك ؟ فقال قد رفعتُ إلى أبى ايوب رقعة مختومة ، اشكر فيها اميرَ المؤمنين ، إذ اعاننى على لزوم المسجد الذى أمر الله بلزومه ، والذى كتبها ابنى دلامة

فقال أبو جعفر فاقرأها ، قال ما أحسن أقرأ - وعلم انه انما اراد ان يقر بكتابته لها ، فيضرب به الحد على ذكره شرب الخمر

فلما رآه يحيد قال له ياخبيث ، اما لو اقررت لضربتك الحد ، وقد اعفيتك من لزوم المسجد

فقال له ابو دلامـة او كنتَ ضاربى يا أمير المؤمنين لو اقررت ؟ قال نعم فقال مع قول الله عز وجل (وأنهم يقولون مالا يفعلون) ؟ فضحك منه واعجبه انتزاعه ووصله .

وورد على أبى جعفر من محمد بن عبد الله بن حسن كتاب أغلظ له فيه ،

قال له أبو ايوب دعني أجيبه عنه ، فقال له ياسليمان : ليس ذلك إليك، إذا نحن تنازعنا عن الأحساب ، فدعني وإياها .

وكان أبان[1] بن صدقة يكتب لأبي ايوب فسعى به إلى أبي جعفر ، وكان السبب في ذلك أنه كان يلي امر ابي ايوب كله ، تحسده مخلد بن اخي أبي ايوب ، فدفع عليه سعاية إلى أبي جعفر بمائة الف دينار ، فأمر المنصور بأخذه بها ، فأدخل ابان بن صدقة بيتا وطُيِّن عليه بابه ، ثم ندم مخلد على مافعله ، ولامه عمه ابو ايوب لما وقف على ما كان منه

فقال مخلد انا أؤدي عنه عشرة آلاف دينـار ، وقال ابو ايوب وانا أؤدي عنه كذا ، وقال مسعود انا أؤدي عنه كذا ، فتوزعها الموريانيون بينهم ، واخرجوا أبانا من الحبس

فخرج وفي نفسه مافيها : فكان يأتي ابا ايوب فيقيم عنده نهاره كله، فإذا كان الليل انصرف ومعه غلمان أبي ايوب فإذا انصرفوا وعلم انهم قد وصلوا إلى منازلهم خرج حتى يأتي الربيع فيسعى بأبي ايوب ، ويكتب له اخباره وامواله ، فيوصل الربيع ذلك إلى المنصور فيقول المنصور من اين هذا ؟ فيقول من ابان بن صدقة وبلغ ابا ايوب فقال لأبان في ذلك ، فقال كذبوك فقال له قد جاءني اليقين إنك تأتي الربيـع كل ليـلة ، فإن كان مخلد رفع عليك فقد تخلصتك ، فلماذا تريد قتلي !

فقـال إن مخلداً اراد قتلي ، فقال له ابو ايوب فعلتها ! اخرج فلا تقربني ، فقال إي [و] الله[2] ثم لا أعود إليك ! وخرج حتى أتى الربيع وكاشف أبا أيوب .

---

١) المعروف في ضبط ابان تخفيف الباء مع فتح الهمزة ، لكنها رسمت على خلاف ذلك في الأصل بتشديد الباء وكسر النون وليس بصواب

٢) رسمت في الأصل هكذا إني الله لم لا أعود ، ولعل ما فهمته الصواب

وكان عمرو بن عبيد دخل على المنصور ، فوعظه موعظة طويلة مشهورة (١) فبكى المنصور وتوجع ، واستغفر ربه وعرض على عمرو معونته ، فأبى ، وخرج من حضرته ، فلقيه أبو أيوب فقال يا أبا عثمان أظنك قد ردعت هذا الرجل ؟ فقال نعم ، وقد حضضته على أهل الكوفة وأهل البصرة ، فان استطعت أن تعينه بخير فافعل ، وكفى بأمة شرا أن تكون أنت المدبر لأمرها !

ولما ورد على أبي جعفر خبر خلع أهل افريقية اعتزم على الشخوص إلى قنسرين ليقيم فيها ويوجه الأمداد منها ، فكتم تدبيره ، وأظهر أنه يسافر إلى ناحية لم يذكرها ولم يبينها ، وأمر أصحابه بالاستعداد ، ولم يعرفهم القصد فاجتمع أبو ايوب وعبد الملك والربيع وتذاكروا ذلك ، ورجموا الظنون فلم يصيبوا شيئا ولم يقدموا على مسألته ، فقال عبد الملك فأنا أعلم لكم ذلك ، فاذا أذن فتأخروا عني ساعة حتى أكلمه

فلما أذن دخل عبد الملك ، فلما استقر به المجلس قال يا أمير المؤمنين قد تهيأنا للمسير ، وفرغنا من كل ما نحتاج إليه ، وبقى علينا ما نستأجر من الظهر ، وما ندري كيف نتكاراه ، ولا على ما نواقف المؤاجرين لنا فيه

فقال له أبو جعفر يا ابن الخبيثة جلست الساعة وفلان وفلان ، فقلتم كذا وجرى بينكم كذا ، فقلت لهم كذا ، حتى رد عليه خبر المجلس حدسا منه وفطنة اخرج يا ابن الخبيثة فاكتر مياومة ، كل يوم بألف ، فأما أن اعلمك فلا ولا كرامة

ورخصت الأسعار في أيام أبي جعفر ، فسولت لأبي أيوب نفسه ، أن يشترى طعام سواد الكوفة وسواد البصرة ، وطمع في الربح ، ففعل ذلك فكتب المنصور عليه كتابا بذلك ، وخلده الدواوين ، وكان يطالبه بالمال

(١) هي التي قال فيها المنصور حين خرج عمرو :

كلكم يمشي رويد   كلكم طالب صيد

غير عمرو بن عبيد

وقتا بعد وقت فتحمل منه الشيء بعد الشيء ، وتتابع الرخص عليه ، وأرهقه المنصور بالمطالبة بالمال

وكان المنصور يحب ابنا له يقال له صالح ويرق عليه ، وكان أقطع أولاده جميعاً قطائع خلاه ، وكان يقول ابنى هذا المسكين لاشىء له ، فلقب بصالح المسكين ، فقال له أبو أيوب ياأمير المؤمنين قد أصبت لصالح ضيعة تقرب من الأهواز وتشرب من دجلة وتفيض فيها ، وهى بلد واسع ، وقد دثرت رسومها وانطمست أنهارها فإن أقطعته إياها ، وأطلقت له ثلاثمائةألف درهم نستخرجها له فلا يلبث إلا يسيرا حتى تغل جملة وافرة ، فأقطع المنصور صالحا تلك الضيعة وأمر له بالمال

فأخذه أبو أيوب فأدَّى صدراً من خسارته فى الطعام ، وجاءت السنة فحمل أبو أيوب عشرين ألف درهم إلى أبى جعفر ، وقال هذه غلة الضيعة ، فسر المنصور بذلك ، وأمر أن يتخذ لصالح بيت مال

حدثنى عبد الواحد بن محمد ، قال حدثنى أبو العَيْناء قال جاء رجل من أهل الأهواز إلى أبى أيوب وهو وزير ، فقال له إن ضيعتى بالأهواز قد حمل علىَّ فيها العمال ، فإن رأى الوزير أن يعيرنى اسمه أجعله عليها ، وأحمل إليه فى كل سنة مائة ألف درهم ، فقال قد وهبت لك اسمى فافعل مابدالك ، وخرج الرجل وحال الحول فأحضر الرجل المالَ ، ودخل على أبى أيوب وهو لايعرفه فجلس إلى أن خف الناس ، ثم دنا منه وقص عليه قصته ، وأعلمه انه قد انتفع باسمه وانه قد حمل المال . فأمر باحضاره فأدخل ووضع بين يديه ، ونهض الرجل شاكرا داعيا

واندفع أبو ايوب يبكى ، فقال له أهله ومن حضر ما رأينا موضع سرور وفرح ، عقب ببكاء وحزن غير هذا ! فقال لهم ويحكم إن شيئا بلغ هذا من إقباله كيف يكون إدباره ، قال فما بَعُدَ بين الوقت وبين نكبته

ثم سعي لأبي جعفر بالضيعة التي اتخذها لصالح ، وعرّف أن أبا ايوب اخذ المال لنفسه وغرّه من هـذه الناحية ، فعزم أبو جعفر على الخروج بنفسه إلى الناحية ليعاينها

فلما تجهز للشخوص كتب أبو أيوب إلى وكلائه أن يبنوا على دجلة في طريق أبي جعفر قرى من اللبن والقصب ، وأن يغرسوا نخلا وسِدْراً ، وكل ما يتهيأ أن يحسن به ويرى ظاهره ، ليراها أبو جعفر عامرة الظاهر ، فلما فعلوا ذلك ، وشخص أبو جعفر فرأى الموضع ، وقد كان أبو ايوب عند قرية منها أرسل من سَكَر دجيل الأهواز والمَسْرُقان حتى فاضا على الضيعة فغرقاها . ثم غاض إلى دجلة ، فأرسل أبو جعفر من سكر الماء وإعادته إلى جهته ، وأقام اربعين يوما ينتظر جفاف الأرض ، ثم ركب حتى وقف على الضيعة ، وتبين كذب أبي ايوب وانصرف ، ولم يقل شيئا إلى أن عاد إلى بغداد ، فأوقع به

وكان ابو جعفر مدة مقامه بالأهـواز منتظراً لجفاف أرض الضيعة اشتهى سمكا طرياً . فقال له ابو ايوب يا امير المؤمنين انت تعلم أني اهوازي سمكي ، ولنا عجائز يحسنّ صنعة السمك فإن رأيت ان تأذن لي فأهيئه لك ، فأظهر ابو جعفر التقبل لذلك من قوله ، واذن له في اتخاذه فمضى لذلك

قال الربيع فنهض أبو جعفر عن مجلسه ودعاني ، فقال لي يا ربيع أصبب على الماء حتى اغسل وجهي ، فبينا انا أصب عليه إذا رسل ابي ايوب قد دخلوا عليه بشيء كثير من السلال فيها ضروب من خبز الماء والرقاق وخبز الأرز ، وصنوف السمك قد اتخذ ضروبا من الصنعة الحارة والباردة

فقلت له أنت يا أمير المؤمنين تعلم اني غير مستبطىء لسليمان . وإنه مني لعلى صداقة ومودة ولكن امير المؤمنين آثر عندي من نفسي ، وقد علم سليمان ما يريده امير المؤمنين به ، فهل يأمن امير المؤمنين ان يكون قد دس له في هذا الطعام شيئا ، فقال لي بارك الله عليك يا ربيع ، واحسن جزاك ، إنه ما دخل رأسي

مما يأتي من عند سليمان من الألطاف شيء منذ كذا وكذا من الدهر، فلا يدعمن منك هذا بعد، ودعا بغير ذلك الطعام، فأكل منه، وانصرف إلى بغداد، وأظهر السخط على أبي ايوب في سنة ثلاث وخمسين ومائة

فحكى أنه قال له ياخوزى : أكنت آمنا من أن يطلع امير المؤمنين على خيانتك فيكون جزاؤك فى العاجل إراقة دمك واستباحة نعمتك، وفى الآجل حلول دار الفاسقين، ومأوى الظالمين الناكثين

فقال يا أمير المؤمنين إن للتهم فلتات ترجع بالندم، ولك من رسول الله صلى الله عليه عدل السياسة، وشرف القرابة فأقلنى

قال لا يسعنى مع عظيم جرمك، وجليل ذنبك إقالتك، ولا العفو عنك، لأنك اقترفت الموبق، وما لا يسع معه عفو

وحبسه وحبس أخاه خالدا وبنى أخيه، وهم مسعود وسعيد ومخلد ومحمد، ولم يكن لمحمد حظ من أمرهم، فقال خالد لبنيه أما أنتم فقد اخذتم بحظ من الدنيا، وهذا البائس لا ذنب له، ولم يكن له حظ. فقال له مخلد، وكان ينظر فى النجوم لابد أن نقتل كلنا : فان كان محمد ابنك فلا تأمن من قتله، وان لم يكن ابنك فليس عليه بأس

ثم طولبوا بالأموال وعذبوا وضيق عليه : فطلب كل من كان لهم عنده شيء فأخذ، وضغط ابو ايوب بالمطالبة بالمال، فمات هو وأخوه فى أول سنة أربع وخمسين ومائة

وأمر المنصور بقتل بنى أخيه فقتلوا، فقال بعض الشعراء أبياتا منها :

فاتق اللهَ وارضَ بالقصد حظا وتباعد عن موبقات الذنوب
قد رأيتَ الذى أدالت ونالت وقعة الدهر من أبى أيوب

ومما يحكى أيضا أنه عاد بالضرر على أبى أيوب ماذكر أبو العيناء، قال الناس يكثرون فى سبب قتل ابى ايوب، والذى عندنا، أن المنصور لما كان

مستتراً بالأهواز نزل على بعض الدهاقين فاستتر عنده فأكرمه الدهقان بجميع مايقدر عليه، حتى أخدمه ابنته وكانت فى غاية الجمال، فقال له ابو جعفر لست استحل استخدامها والخلوة بها. وهى جارية حرة فزوجنيها، فزوجه إياها، فعلقت منه.

وأراد ابو جعفر الخروج الى البصرة فودعهم: ودفع الى الجارية قميصه وخاتمه، وقال إن ولدت فاحتفظى بولدك، فمتى سمعت انه قد قام فى الناس رجل يقال له عبد الله بن محمد. ويكنى ابا جعفر فصيرى إليه بولدك، وبهذا القميص والخاتم، فانه يعرف حقك، ويحسن الصنيعَ إليك، وفارقهم

فولدت ابناً، ونشأ الغلام وترعرع، فكان يلعب مع اترابه، وملك ابو جعفر فعيّر الغلامَ اترابُه بأنه لايعرف له أب، فدخل إلى أمه حزيناً كئيبا، فسألته عن حاله، فذكر لها ماقال أترابه، فقالت بلى والله إن لك ابا فوق الناس! قال ومن هو؟ قالت القائم بالملك. قال فهذا أبى وانا على هذا الحال! هل من شيء يعرفنى به؟ فأخرجت القميص والخاتم.

وشخص الفتى فصار إلى الربيع فقال له نصيحة، قال هاتها قال لا اقولها إلا لأمير المؤمنين، فأعلم المنصور الخبر، فأدخله إليه فقال هات نصيحتك فقال اخلنى فنحى مَنْ عنده، وبقى الربيع، فقال هات، قال لا إلا أن يتنحى فنحاه، وقال هات. قال انا ابنك، قال ماعلامة ذلك؟ فأخرج القميص والخاتمَ فعرفهما المنصور، وقال له مامنعك ان تقول هذا ظاهراً؟ قال خفت ان تجحد فتكون سبة آخر الدهر، فضمه اليه وقبله، وقال انت الآن ابنى حقاً.

ودعا الموريانى فقال يكون هذا عندك، وما كنت تفعله بولد لو كان لى عندك فافعله به، وتقدم إلى الربيع فى أن يسقط للاذن عنه، وأمره بالبكور إليه فى كل يوم والرواح إلى ان يظهر امره، فان له فيه تدبيرا فضمه الموريانى اليه، واخلى

له منزلا، واوسع له من كل شيء ، فكان يغدو ويروح إلى المنصور وخص به جدا وكان الفتى فى غاية من العقل والكمال ، وكان المنصور يخلو معه ، فيسأله المورياني عما يجرى بينهما فلا يخبره فيقول له إن امير المؤمنين لا يكتمنى شيئا ، فيقول فما حاجتك إلى هذا عندى إذاً ؟ !

فحسده المورياني واستوحش منه ، وثقل عليه مكانه فأطعمه سما فمات ، وصار إلى المنصور فأعلمه انه مات فجأة ، ثم ولى، فقال المنصور قتلته ! قتلنى الله إن لم اقتلك به ، فلم يلبث بعده ان فعل به ما فعل .

ولما غضب ابو جعفر على أبى ايوب وحبسه ذكر صالح بن سليمان انه سيقتله وجميع أسبابه لأنه سمعه يتحدث ان ملكا من الملوك كان يساير وزيرا له فضربت دابة الوزير رجل الملك ، فغضب وامر بقطع رجل الوزير فقطعت ، ثم ندم فأمر بمعالجته حتى برأ ثم قال الملك فى نفسه هذا لا يحبنى ابدا وقد قطعت رجله فقتله

ثم قال وأهل هـذا الوزير لايحبوننى أبداً ، وقد قتلته فقتلهم جميعا ، فعلمت أنه سيفعل ذلك فى المورياني ففعله وما عدا ظنى

والضيعة التى أشاربها المورياني على أبى جعفر لصالح هى المعروفة بالسيبطية من أعمال البصرة ، وكان أبو جعفر تقدم إلى بعض المهندسين بتصويرها له ، فصورها وعرض الصورة عليه فاستحسنها ، فقال له سل حاجتك فقال إنى أجد فى فمى علة ، وقد أضرت بأسنانى ، وحاجتى أن يأذن أمير المؤمنين فى تقبيل يده ، فلعل الله أن يهب لى العافية

فقال له أبو جعفر على أن ذاك إن أذنت لك فيـه عوض من الجائزة ، فأما أن أجمعهما لك فلا ، فقـال له والله لو لم يبق فى فمى حاكّة وعلمت أن تقبيل يدك يرد جميعها ، ما آثرته على الجائزة ! فضحك منه ووصله

وكان زياد بن عبيد الله الحارثى يتقلد لأبى جعفر الحرمين ، ثم صرفه بمحمد

ابن خالد بن عبد الله القشيرى ، ثم صرف محمد بن خالد برياح بن عثمان فى سنة أربع وأربعين ومائة

وكان رزام ويكنى أبا بشير مولى خالد بن عبد الله يكتب لمحمد بن خالد فحبس رياح محمدَ بن خالد وحبس رزاما كاتبه ، فكان يضرب رزاماً فى كل يوم خمسة عشر سوطا ، ويطالبه أن يسعى بصاحبه ، حتى صار جسمه كالقرحة فأحضره يوما ليضربه ، فلم يجد فيه موضعا لضرب ، فضربه على كفه ، فلما بلغ به ما بلغ أحضر رزام ثم كتابا يوهمه أن فيه رفائع على محمد ابن خالد ، فجمع رياح الناس ، فلما اجتمعوا قال لهم : أيها الناس إن الأمير أمرنى أن أدفع على محمد بن خالد ، وقد أحضرت كتابا كل مافيه باطل ، وقد صدقت عما عندى ، فأمر بضربه مائة سوط وحبس ، فلم يزل محبوسا حتى غلب على المدينة محمد بن عبد الله بن حسن ، فقتل رياح بن عثمان ، وأطلق محمد بن خالد ورزاما كاتبه

ولما نكب أبو جعفر أبا أيوب فى سنة ثلاث وخمسين ومائة قلد الخاتمَ الفضل بن سليمان الطوسى ، وقلد كتابة الرسائل والسر أبان بن صدقة ، وقلد ضياعه صاعداً مولاه ، وفى صاعد ومطر مولي أبي جعفر ، يقول أبو الأسد الأعرابى :

وسائلٍ عن حمارىٍّ كيف حالهما ... سانى فعندى حقيقة الخبر
لا خير فى صاعد فتطلبه ... والخير يأتيك من يدى مطر
وأى خير يأتيك من رجل ... ليس لأنثى يدعى ولا ذكر
ليس له غير نفسه نسب ... كأنه آدم أبو البشر

وقلد ديوان خراج البصرة ونواحيها عمارة بن حمزة ، وقلد ديوان خراج الكوفة وأرضها عمرو بن كيلغ فى سنة خمس وخمسين ومائة ، ثم صرفه عنه وقلده ثابت بن موسى ، وحبس عمرو بن كيلغ ، واستخلف ثابت محمد بن جميل لمصاهرة كانت بينه وبينه ، وأمره بالعرض على المنصور إذا لم يحضر ، نخف على

على قلب المنصور فأقام معه مقام ثابت ، وكان ثابت يقول إذا مر به محمد بن جميل (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً) وكان محمد بن جميل فى غاية الحذق والخفة .

وقلد الربيع مولاه نفقاته والعرض عليه ، وهو الربيع بن يونس بن محمد بن أبى فروة ، واسم أبى فروة كيسان مولى الحارث الحفار مولى عثمان بن عفان . وكان يونس بن محمد شاريا شاطراً بالمدينة ، فعلق أمة لقوم بالمدينة ، فوقع عليها فجاءت بالربيع واستعبد ، ولم يكن ليونس حال فيبتاعه ، فابتاعه زياد بن عبد الله الحارثى خال أبى العباس ، وأهداه إليه فخدمه وخف على قلبه ، ثم خدم أبا جعفر بعده فخص به .

ولما عزم المنصور على تقليد الربيع العرض عليه قال اجلس فى بيتك حتى يأتيك رسولى ، ففعل ذلك ، فصار إليه الرسول بدراعة وطيلسان وشاشية ، فقال له البس هذا واركب بهذا الزى فركب ، فأمر الفراش أن يطرح له مرفقة تحت البساط تقصيراً به عن منزلة المهدى وعيسى بن على لأنه كان يطرح لهما مرفقتين ظاهرتين .

فلما وصل إليه قال له قد وليتك الوزارة والعرض ، ووليت ابنك الفضل الحجابة ، فدخل عليه الربيع يوماً والفضل يمشى خلفه . فأخذ الربيع بيده وقال إن الحاجب لايمشى خلف إنسان ، فقال له المنصور بلى ياربيع هذا معك أنت وحدك .

وكانت أرزاق الكتاب والعمال فى زمان أبى جعفر للرؤساء ثلاثمائة درهم للرجل ونحو ذلك ، وكذلك كانت فى أيام بنى أمية ، وعلى ذلك جرت إلى أيام المأمون ، فإن الفضل بن سهل وسع الجارى .

ولما أنفذ المنصور المهدى إلى الرى ضم إليه أبا عبيد الله معاوية بن عبيد الله ابن يسار مولى عبد الله بن عضاه الأشعرى من أهل فلسطين ، وكان عبيد الله ابن يسار أبوه يكتب لصاحب المعونة بالأردن أيام بنى أمية

فروى الزبير عن مبارك الطبرى ، قال سمعت المنصور يقول للمهدى حين أنفذه إلى الرى يا أبا عبد الله لا تُبْرِمْ أمراً حتى تفكر ، فإن فكرة العاقل مرآة تريه حسنه وسيئه

قال وسمعته يقول له يا أبا عبدالله إن الخليفة لا يصلحه إلا التقوى ، والسلطان لا يصلحه إلا العدل ، وأولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة ، وأنقص الناس عقلا من ظلم من هو دونه

وقال سمعته يقول يا أبا عبد الله استدم النعمة بالشكر ، والقدرة بالعفو ، والطاعة بالتألف ، والنصر بالتواضع ، ولا تنس مع نصيبك من الدنيا نصيبك من رحمة الله

وروى أن عيسى بن موسى لما أجاب المنصور إلى أن يخلع نفسه من التقدم فى ولاية العهد ، وأن يقدم المهدى على نفسه أمره أبو جعفر أن يخرج إلى الناس فيخاطبهم بذلك . فخرج ومعه أبو عبيد الله كاتب المهدى فدخلا المقصورة فى المسجد الجامع . فقال عيسى إنى قد سلمت ولاية العهد إلى المهدى محمد بن أمير المؤمنين وقدمته على نفسى

فقال عبيد الله ليس هكذا أيها الامير ؟ ولكن قل لحقه وصدقه ، وأخبر بما رغبت فيه وأعطيت

فقال نعم ، قد بعت نصيبى من تقدمى فى ولاية العهد من عبد الله أمير المؤمنين لابنه محمد المهدى أمير المؤمنين بعده بعشرة آلاف ألف درهم وألف ألف درهم لابنى فلان وابنى فلان وابنى فلان ، وفلانة امرأة سماها من نسائه ، بطيب نفسى منى ، ورغبت فى تصيرها إليه ، لانه أولى بالتقدم فيها وأحق وأقوم عليها ، وأقوى على القيام بها منى

وكان ذلك فى سنة ست وأربعين ومائة ، قال فكان بعض المجان من أهل الكوفة إذا مر بهم عيسى بن موسى قالوا هذا الذى كان غداً فكان بعد غد

وكان أبو جعفر لما شخص المهدى إلى الرى أذن لأبى عبيد الله كاتبه فى الانفاق والتصرف فى بيت المال، فأقام فى الرى مع المهدى مدة طويلة، وأنفق أموالا عظيمة؛ فلما انصرف المهدى إلى الحضرة طالب المنصور أبا عبيد الله برفع الحساب بما جرى على يده، فقامت قيامته، واشتد همه، فلقيه خالد بن برمك، وكان صحيح العقل سديد الرأى، فقال أنت ترشح نفسك لتدبير الخلافة، وقد حيرك هذا الأمر الصغير؟ فقال فما الرأى عندك؟ قال يصير المهدى إلى أبيه وعليه سيفه وسواده، فاذا مثل بين يديه نزع سيفه فرمى به وقال له يا أمير المؤمنين أنت ترشحنى لهذا الأمر، وتروى أنى المهدى الذى [إلى الأمر] بعدك فى الناس، ثم تكشف كاتبى عما أجريته على يده، ونفذه بأمرى وبتوقيعاتى، فلعلك تنكر شيئا فيقول الناس إنه كشف عن خيانة، فصار أبو عبيد الله إلى المهدى فطالبه بذلك، ففعل فأمسك أبو جعفر عنه.

وقال أبو جعفر للمهدى يوما قد عزمت على أن أوليك الأمر وأرده إليك، فقد كبرت وعجزت عن مباشرة الأعمال والنظر فيها، وأحببت الراحة والدعة

فخرج المهدى إلى أبى عبيد الله مستبشرا بذلك، وعرفه ما عرضه عليه أبو جعفر، فقال له أبو عبيد الله اتق الله ولا تظهر لأمير المؤمنين قبولا لما ذاكرك به، وإذا عاودك فقل له لا والله لا أتعرض لهذا الأمر ما أبقى الله أمير المؤمنين، ولا أنهض به ولا أغره من نفسى، فانه إنما سبرك بما عرض عليك

فلما دخل المهدى على أبى جعفر، قال له يا أبا عبد الله هل فكرت فيما قلته لك أو شاورت احداً فيه؟ فقال ما بى قوة على ذلك، ويبقى الله امير المؤمنين ويمتعنا بحياته، وما احب ان اغر من نفسى

فقال له سبحان الله من صدك عنه؟ ومن ناظرت فيه؟! وكرر عليه القول، واعاد المهدى عليه جوابا واحداً، فقال له فمن شاورت فى هذا الأمر؟ فقال له شاورت معاوية، قال فأى شىء قال لك؟ فعرفه ما قال له.

وطرق هنيهة ثم قال على بمعاويه ، فلما دخل عليه قال له ما هذا الذى ناظرك عليه ابو عبيد الله ؟ وكيف رأيت ان لا يقبل ، قال اصدقك وانا آمن ؟ فقال له هات ، ولم لا تصدقنى ! فقال له إنه والله ما عرضت عليه ماعرضته وانت تريد ان توليه ، وإنما اردت ان تختبر عقله ، وما كنت لتطيب نفسا بترك ما انت فيه

فقال له وكيف توهمت ذلك ؟ قال لأنى سمعتك تقول: إنى لأستيقظ بالليل ، فأدعو بالكتب فأضعها بين يدى ، وأدعو بالجارية فآمرها أن تمرخ ظهرى بالدهن فضل ذلك ، وأنا مقبل على كتبى وتدبيرى ، والنظر فى أمورى ، فعلمت أنك لا تدع شيئا يكون موقعه منك هذا الموقع ، وتؤثر به غيرك

فقال ما كنت أرى أن أحداً يتفقد ما تفقدته ، وقد أصبت الرأى ، وأحسنت بارك الله عليك

وكان المنصور ضم رجلا يقال له فضيل بن عمران من أهل الكوفة إلى جعفر ابنه ، يكتب له ويقوم بأمره بمنزلة أبى عبيد الله مع المهدى

وكانت لجعفر حاضنة تعرف بأم عبيدة ، فثقل عليها مكان فضيل ، فسعت به إلى أبى جعفر ، وادّعت عنده أنه يلعب بجعفر ، فبعث المنصور بالريان مولاه ، وهارون بن غزوان مولى عثمان بن نهيك إلى فضيل وأمرهما بقتله ، وكتب لهما منشوراً بذلك ، فصارا إليه فقتلاه

وكان الفضيل دينا عفيفا ، فقيل للمنصور فى ذلك وإنه أبر الناس مما قرف به ، وأبعدهم منه ، فوجه رسولا وجعل له عشرة آلاف درهم إن أدركه قبل أن يقتل ، فصار إليه فوجده قد قتل ولم يجف دمه

واتصل خبر قتله بجعفر بن أبى جعفر ، فطلب الريان فلما جىء به إليه قال له ويلك ما يقول أمير المؤمنين فى قتل رجل عفيف مسلم بغير جرم ولا خيانة ؟ فقال الريان هو أمير المؤمنين يفعل ما يشاء ، هو أعلم بما صنع

فقال له ياماص بظر أمه ، أكلمك بكلام الخاصة، وتكلمنى بكلام العامة ، خذوا برجله فألقوه فى دجلة

قال فأخذوا والله برجلى ، فقلت أكلمك ، فقال دعوه فقلت أبوك إنما يسأل عن فضيل بن عمران وحده ، ومتى يسأل عنه وقد قتل عمه عبد الله بن على ؟ وقتل عبد الله بن حسن ! وقتل غيره من أولاد رسول الله ظلما ! وقتل أهل الدنيا ممن لا يحصى ولا يعد ! وهو قبل أن يسأل عن فضيل جوذابة تحت خصى فرعون ! فضحك وقال دعوه إلى لعنة الله فأفلت منه

ولما حج المنصور بعد تقليده المهدى العهد، وتقديمه إياه على عيسى بن موسى، دفع عبد الله عمه إلى عيسى وأمره سرا بقتله

وكان يونس بن [أبى] فروة يكتب لعيسى بن موسى ، فدعا عيسى بيونس وقد كان عزم على قتل عبد الله بن على، فخبره الخبر فقال نشدتك الله أن تفعل ، فإنه يريد أن يقتلك ويقتله ، لأنه أمرك بقتله سراً ، ويجحدك إياه فى العلانية ولكن استره حيث لا يطلع عليه أحد ، فإن طلبه منك علانية دفعته إليه ، وإياك أن ترده سراً أبدا، بعد أن يظهر حصوله فى يدك ، قال ففعل عيسى ذلك

وانصرف أبو جعفر من حجه، وعنده أن عيسى قد أنفذ أمره فى عبد الله ودس على عمومته من يشير عليهم بمسألته فى عبد الله، ففعلوا ذلك ، فدعا بعيسى ابن موسى فسأله عن عبد الله بن على ، فقال له فيما بينه وبينه ألم تأمرنى بقتله ؟ فقال معاذ الله ما أمرتك بقتله ، إنما أمرتك أن يكون فى منزلك ، قال قد أمرتنى بقتله ! قال كذبت ثم أقبل على عمومته ، فقال قد أقر بقتله وكذب على ، وادعى أنى أمرته ، فشأنكم به فوثبوا عليه

فلما رأى صورة أمره صدق أبا جعفر عن الحال ، وأحضره إياه فكان عيسى يشكر ليونس بن أبى فروة ذلك مدة عمره

وكان لعيسى بن موسى ابن يقال له العباس من أكابر ولده ، وقد تقلد

الكوفة من قبل عيسى ، وكان يكتب له رجل يقال له معاوية

فذكر علاَّن الوراق السَّعوى أن رجلا من بنى أسد اختدع معاوية رغبة فى جاهه وميراثه حتى انتمى إلى بنى أسد ، فتوفى الأَسدى الذى غرَّه ، فخاف معاوية أن يموت هو فيرثه قوم كانوا نفوه وأنكروا عليه دعوته فيهم ، وكانت لمعاوية جارية صقلية جاءت بابن من غلام له كان يقال له منارة ، فادعى حينئذ منارة أنه منه ، ونسبه إلى نفسه فيما بعد ، وسماه محمدا ثم مات معاوية وانتمى محمد إليه واكتنى بأبى عبد الله و نظر فى النسب ، وكان ينبز بالأُبنة ، ويتهم بالزندقة وقد هجاه قوم من أهل الكوفة هجاءا كثيرا فمن ذلك أن بنى أسد يعرفون بالكوفة بالتطفل ليصح نسبه ، فقال بعض الغنويين

والله لو طفلت يا ابن استها   سبعين عاما لم تكن من أسد
فارحل إلى الجُبة من مصرنا   واطلب أباً فى غير هذا البلد[1]

يعنى بالجُبَّة الجبة والبداة طسوجين من سواد الكوفة

وكان يكتب لعبد الله بن على يوسف بن صبيح مولى بنى عجل من ساكنى سواد الكوفة ، فذكر القاسم بن يوسف بن صبيح أن أباه حدثه أن عبد الله ابن على لما استتر عند أخيه سليمان بالبصرة ، وعلم أنه لاوزر له من أبى جعفر ، قال فلم أستتر وقصدت أصحابنا الكتاب ، فصرت فى ديوان أبى جعفر وأجرى لى فى كل شهر عشرة دراهم ، فبكرت يوما إلى الديوان قبل فتح بابه ، ولم يحضر أحد من الكتاب

فإنى لجالس عليه إذا أنا بخادم لأبى جعفر يتلمح الباب ، فلم ير غيرى فقال لى أجب أمير المؤمنين ، فأسقط فى يدى وخشيت الموت ، فقلت إن أمير المؤمنين لم يردنى ، قال وكيف ؟ فقلت لأنى لست ممن يكتب بين يديه ، فهم بالانصراف عنى ، ثم بدا له فأخذنى وأدخلنى حتى إذا صرت دون الستر ، وكل بى

١) فى ياقوت فارحل إلى الجبة عن عصرنا

ودخل ، فلم يلبث أن خرج ، فقال لى أدخل ، فدخلت فلما صرت إلى باب الايوان قال لى الربيع سلم على أمير المؤمنين ،فشممت رائحة الحياة ، فسلمت فأدنانى وأمرنى بالجلوس ثم رمى إلى بربع قرطاس وقال لى اكتب وقارب بين الحروف، وفرج بين السطور واجمع خطك ولا تسرف فى القرطاس ، وكانت معى دواة شامية ، فتوقفت عن إخراجها ، فقال لى كأنى بك يا يوسف ، وأنت تقول فى نفسك أنا بالأمس فى ديوان الكوفة أكتب لبنى أمية ثم مع عبد الله بن على وأخرج الساعة دواة شامية! إنك إنما كنت فى ديوان الكوفة تحت يد غيرى و كنت مع عبد الله بن على لى ومعى الدوى الشامية أدب جميل ، ومن أدوات الكتاب ونحن أحق بها

قال فأخرجتها فكتبت وهو يملى على ؛ فلما فرغت من الكتاب أمر به فأترب وأصلح ، قال دعه وكل العنوان إلى ، ثم قال لى كم رزقك يا يوسف فى ديواننا؟ فقلت عشرة دراهم ، فقال لى قد زادك أمير المؤمنين عشرة دراهم رعاية لحرمتك بعبد الله بن على ، ومثوبة على طاعتك فى نقاء ساحتك ، وأشهد أنك لو استخفيت باستخفاية لأخرجتك ولو من جحرة النمل ثم زايلت بين أعضائك، قال فدعوت له، ثم خرجت مسرورا بالسلامة

وتوفى عبد الملك بن حميد كاتب أبى جعفر فى آخر سنة أربع وخمسين ومائة

وكان ملك الروم أنفذ إلى أبى جعفر رسولا فورد عليه عند فراغه من الجانبين من مدينة السلام ، وأمر أبو جعفر عمارة بن حمزة أن يركب معه إلى المهدى ، وهو نازل بالرصافة

فلما صار إلى الجسر رأى الرسول من عليه من الزمنى والسؤال ، فقال لترجمانه قل لهذا يعنى عمارة بن حمزة إنى أرى عندكم قوما يسألون ، وقد كان يجب على صاحبك أن يرحم هؤلاء ، ويكفيهم مؤنهم وعيالاتهم ! فقال له عمارة إن الأموال لا تسعهم ومضى إلى المهدى ، وعاد إلى أبى جعفر، فخبره عمارة بذلك فقال أبو جعفر كذبت ليس الأمر على ماذكرت والأموال واسعة، ولكن العذر

ما أنا ذاكره لك فأحضرنيه . فأحضره

فقال له قد بلغني ماقلته لصاحبنا ، وما قاله لك ، وكذب ، لأن الأموال واسعة ولكن أمير المؤمنين يكره أن يستأثر على أحد من رعيته . وأهل سلطانه بشيء من حظ أو فضل ، في دنيا أو آخرة . وأحب أمير المؤمنين أن يشركوه في ثواب السؤال والزمنى . وأن يسألوهم من ذوات أيديهم . ومما أعطاهم الله عز وجل من الرزق ، ليكون ذلك نجاة لهم في آخرتهم . وتمحيصا لذنوبهم . فقال الرومي الحق ما قاله امير المؤمنين

وكانت نخوة عمارة وتيهه يتواصفان ويُستسرفان ، فأراد أبو جعفر أن يعبث به ، فخرج يوما من عنده ، فأمر بعض الخدم أن يقطع حمائل سيفه ، لينظر أيأخذه أم يتركه ، ففعل ذلك فسقط السيف

فمضى عمارة لوجهه ، ولم يلتفت إليه وكان المثل يضرب بتيهه فيقال « أتيه من عمارة »

وكان عمارة إذا أخطأ يمضي على خطئه ، تكبرا عن الرجوع ويقول له نقض وإبرام في ساعة واحدة ! الخطأ أهون على من هذا ، وله شعر صالح فمن ذلك

لاتشكون دهرا صححت به ... إن الغنى في صحة الجسم
هبك الإمامَ أكنت منتفعا ... بغضارةِ الدُّنيا مع السقم

قال محمد بن يزداد قلد المنصور عمارة بن حمزة الخراج بكور دجلة والأهواز وكور فارس ، وتوفى المنصور سنة ثمان وخمسين ومائة وعمارة يتقلد ذلك

وقلد المنصور حماداً التركى تعديل السواد وأمره أن ينزل الأنبار ، ولا يدع أحداً من أهل الذمة يكتب لأحد من العمال على أحد من المسلمين إلا قطع يده فأخذ حماد ساهوية الواسطى جدَّ سليمان بن وهب فقطع يده

وأنكر أبو جعفر على محمد بن جميل شيئا فأمر ببطحه ، فقام بحجته وأزال ما ادعى عليه ، فأمر باقامته ثم لحظ سراويله فإذا هو كتان ، فأنكر ذلك إنكاراً

شديدا . وأمر به فبطح وضربه خمس عشرة [١] درّة وقال هذا جزاؤك على سوء اختيارك فى لبس مثل هذا السراويل [٢] فلا تعاود، وكان محمد بن جميل يتقلد ديوان الخراج

ولما قدم أبو جعفر الربيعَ العرضَ حسن مذهبه ، وآثر الخيرية حتى عرف بذلك ، وكان أبو جعفر إذا أراد بإنسان خيرا أمر بتسليمه إلى الربيع ، وإذا أراد إنسان شرا أمر بتسليمه إلى المسيب

فكتب العامل بفلسطين يذكر أن بعض أهلها وثب عليه ، واستغوى جماعة منهم . فعاث فى العمل

فكتب إليه المنصور دمك مرتهن إن لم توجه به ، فصمد له العامل وأخذه ووجه به ، فلما مثل بين يديه قال له : أنت المتوثب على عامل أمير المؤمنين ؟ ! لأنثرن من لحمك أكثر مما يبقى على عظمك ! فقال وكان شيخا كبيرا بصوت ضئيل :

أتروض عرسك بعدما هرمت [٣] ... ومن العناء رياضة الهرم

فقال يا ربيع ما يقول ؟ قال يقول :

العبد عبدكم والمال مالكم ... فهل عذابك عنى اليوم مصروف !

فقال المنصور يا ربيع ، قد عفوت عنه فخل سبيله ، واحتفظ به وأحسن إليه وهذا الشعر لعبد بنى الحَسحاس ، وكان مولاه اتهمه بابنته فعزم على قتله ، فقال هذا الشعر وأوله :

أمن سُمَيَّةَ دمعُ العين مَذْروفُ ... لو أنَّ ذا منكَ قبلَ اليوم معروف

كأنها حين تبكى ما تكلمنى ... ظبى بعلياءَ ساجى الطرف مطروف

لا تبك عينك إن الدَّهر ذو غِيَرٍ ... فيه تفرُّق ذى ألف ومألوف

١) فى الأصل خمسة عشر والصواب ما ذكرناه عربية ٢) هكذا الأصل والصواب هذه السراويل أو هذا السروال ٣) كتب فى أعلاها كبرت

العبد عبدكم ، والمال مالكم فهل عذابك عنى اليوم مصروف !

ولما استوزر المنصورُ الربيعَ ، ترك أن يسأله حاجة تخفيفاً ، فقال له المنصور يوما : قد انقبضت عن مسألتى حوائجك حتى أوحشتنى . فقال ما تركت ذاك ، أنى وجدت لها موضعا غيرَ أمير المؤمنين . ولكننى مات إلى التخفيف

قال فاعرضْ على ماتحب من حوائجك . قال حاجتى يا أمير المؤمنين أن تحب الفضل ابنى . قال ويحك إن المحبة لاتقع ابتداء . وإنما تقع بأسباب . فقال قد أوجدك الله السبيل إليها . قال وما ذاك ؟ قال تنعم عليه ، فإذا أنعمت عليه أحبك ، فإذا أحبك أحببته

قالَ فقد والله حببته إلىَّ قبل أن يقع من هذا شىء . ولكن كيف اخترت له المحبة من بين سائر الأشياء ؟ قال لأنك إذا أحببته كبر عندك صغيرُ إحسانه ، وصغر عندك كبير إساءته . وكانت حاجته عندك مقضية . وذنوبه عندك مغفورة

وكان أبو جعفر قلد خالد بن برمك الرىَّ وطبرستان ، ودُنباوند[1] فأقام بها سبع سنين ، وكان مقام خالد بطبرستان ، وخلف ابنه يحيى بالرى ، فلما وجه أبو جعفر المهدى إلى الرى خدمه يحيى وخفَّ على قلبه

وولدت الخيزران هارون بن المهدى فى سنة تسع وأربعين ومائة ، وكان الفضل بن يحيى بن خالد قد ولد قبل ذاك بسنة ، فأرضعت الخيزران الفضل ، وأرضعت زبيدة بنت منير أم الفضل هارون ، فتأكدت حرمة يحيى ، واتصل سببه

وذكر الحارث بن أبى أسامة فى كتابه المعروف بكتاب الخلفاء فى أخبار المنصور أن الخبر اتصل به ، أن أحداثا من الكتاب يُزَوِّرون فى ديوان داره ، فأمر بإحضارهم ، وتقدم بتأديبهم ، فقال واحد منهم وهو يضرب

١) دنباوند بجهة الرى ، وياقوت يروى فى تسميتها قصة عجيبة لأفريدون والضحاك وطابخه

أطال اللهُ عمركَ فى صلاح　　وعزٍّ يا أميرَ المؤمنينا
بعفوك أستجير ، فإن يجرنى　　فإنك عصمة للعالمينا
ونحن الكاتبون وقد أسأنا　　فهبنا للكرام الكاتبينا

فأمر بتخليتهم ، ووصل الفتى ، وأحسن إليه

وكان ابو جعفر يتعتب على أبى الجهم بن عطية وزير أبى العباس ، فلما استخلف أبو جعفر دخل أبو الجهم يوماً ، فطاوله حتى عطش ، ثم دعا له بسويق من سويق اللوز ، وقد كان سمه فشربه ، فلما وصل إلى جوفه تمخض جوفه ، وأحس بالموت فوثب مسرعاً ، فقال له المنصور : إلى أين يا أبا الجهم؟ قال إلى حيث بعثتنى ! فلما وصل إلى منزله مات

وكان المنصور قلد عبد الوهاب بن إبراهيم فلسطين ، فعسف بأهلها ، وكان إبراهيم بن أبى عبلة كاتب هشام مقيا بها ، فاستحضره المنصور

فلما وصل إليه قال له ابن أبى عبلة ما وراءك ؟ فقال أمير المؤمنين ، قد قرأت عهود الخلفاء الذين من ولد عبد الملك إليك ، فما سمعت عهدا قط أجمع من عهد قرأه علينا عبد الوهاب منك ، ثم عمد إلى جميع ما أمرته به فاجتنبه ، وما نهيته من شيء فارتكبه !

وكان ابن مجير من أهل فلسطين قد حضر مع ابن أبى عبلة ، ووصل إلى المنصور ، فقال ما وراءك يا ابن مجير ؟ فأخرج له طائرا من كمه قد نتفه حتى لم يبق عليه ريشة واحدة ، فقال له فارقت البلد يا أمير المؤمنين ، وقد نتفه ابن أخيك حتى تركه كما تركت هذا الطائر ! فأظهر انكارا شديدا وعزله .

وكان يتقلد للمنصور قضاء المدينة محمد بن عمران الطلحى ، ويكتب له نمير الشيبانى المدينى ، فلما قدم المنصور حاجاً استعدى عليه الجمالون ، فدعا محمد بن عمران بنمير كاتبه ، وقال اكتب إلى المنصور فى الحضور معهم أو إنصافهم ، فكتب ثم ختم الكتاب ، وقال له والله لا مضى به غيرك ، فمضى به ودفعه إلى الربيع

واعتذر إليه ، فقال له لا عليك ، ودخل بالكتاب ثم خرج ، فقال للناس أمير المؤمنين يقرأ عليكم السلام ، ويقول لكم قد دعيت إلى مجلس الحكم ، فلا أعلمن أحدا يقوم إذا خرجت ، ولا يكلمني

ثم خرج المنصور والمسيب بين يديه ، والربيع ونمير كاتب محمد بن عمران خلفه ، وهو في مئزر ورداء ، فلم يقم له أحد ، فبدأ بالقبر فسلم عليه ، ثم قال للربيع إني أخشى إذا رآني ابن عمران أن يدخل قلبه هيبة ، فيتحرك عن مجلسه ، وبالله لئن فعل لا وَلِيَ لي ولاية أبدا

ثم صار إلى محمد بن عمران ، فلما رآه ابن عمران ، وكان متكئاً أطلق رداءه على عاتقه ، ثم احتبى ، ودعا بالخصوم ، ثم دعا بالجمالين ، ثم دعا بأمير المؤمنين ، فادّعى القوم وسائليه له فقضى عليه لهم ، وأمره بإنصافهم

وانصرف أبو جعفر فأمر الربيع باحضار محمد بن عمران ، فلما دخل عليه قال جزاك الله عن دينك وعن نبيك ، وعن حسبك ، وعن خليفتك أحسن الجزاء وأمر له بعشرة آلاف دينار .

ووقف أبو جعفر ، على كثرة القراطيس في خزائنه فدعا بصالح صاحب المصلى فقال له إني أمرت بإخراج حاصل القراطيس في خزائننا ، فوجدته شيئا كثيرا جدا ، فتولَّ بيعه ، وإن لم تعط بكل طومار إلا دانقا ، فإن تحصيل ثمنه أصلحُ منه

قال صالح وكان الطومار في ذلك الوقت بدرهم ، فانصرفت من حضرته على هذا ، فلما كان في الغد دعاني فدخلت عليه ، فقال لي فكرت في كتبنا ، وأنها قد جرت في القراطيس ، وليس يؤمن حادث بمصر ، فتنقطع القراطيس عنا بسببه ، فنحتاج إلى أن نكتب فيما لم نعوّده عمالنا فدعَ القراطيسَ استظهارا على حالها

ولهذه العلة كانت الفرس تكتب في الجلود والرق ، وتقول لا يكتب في شيء ليس في بلادنا

قال جعفر بن أحمد النهرواني الكاتب حدثني محمد بن الفضل الكاتب، قال حدثني كاتب كان للمنصور يتقلد النفقات في أيامه ذهب على اسمه، قال وقف المنصور يوما من الأيام نهاراً على سرب في داره فيه قنديل معلق، وكان الموضع بين المضيء والمظلم، وكان تعليق القنديل إنما يقع استظهارا، فأمر بأن يطفأ. وقال لايعاود هذا المصباح إلى هذا الموضع إلا في وقت الحاجة من الليل أو من آخر النهار

قال فلما رأيت ذلك من تفقده قلت في نفسي إذا كان يتفقد هذا المقدار التافه فهو لغيره أشد تفقدا؛ فنظرت إلى فضول موائده فبعتها، فاجتمع لي من ذلك مال شهر جملة وافرة صالحة.

ونظرت في أشياء غير ذلك ففعلت فيها مثل هذا الفعل. فلما كان من رأس الشهر عرضت عليه ما وفرته. فسألني عن سببه فقلت إن آمنتني شرحت لك الخبر، فآمنني فصدقته عن الصورة، فقال ما الذي كنتم تصنعون بما يفضل من هذه الموائد في كل يوم؟ فقلت كان يأكله خدمك وغلمانك وحشمك؛ وما فضل بعد ذلك عنهم تصدق به على الفقراء والمساكين؛ فقال هذا لم يكن يضيع منه شيء؛ فأجر الأمر على ما كان جاريا عليه فيه، وليس سبيل القنديل سبيل ذلك في ذلك الموضع الذي كان فيه كان مضيئاً بالنهار؛ وكان الزيت يذهب ضياعا، ولا وجه للتضييع في شيء وإن قل

وحكى أنه ثقل على كتاب المنصور تفقده الأعمال؛ ومراعاته لها؛ فقالوا المتطبب: لو زينت له شرب النبيذ حتى يتشاغل غدا لأعظمت المنة عندنا فوعدهم بذلك؛ ولم يزل يقول له في الوقت بعد الوقت لو سخنت يا أمير المؤمنين معدتك لأصلحت جسمك ونفذ طعامك فيقول بماذا؟ فيقول بشراب العسل

فلما ألح عليه بذلك استدعى شيئا منه؛ فشرب به في اليوم الأول فاستطابه فعاد له في اليوم الثاني؛ وازداد منه فخدره ثم عاوده في اليوم الثالث فأبطأ عن صلاة

الظهر والعصر والعشاء

فلما كان من غد دعا بما عنده من الشراب فهراقه ، ثم قال ما ينبغي لمثلي أن يشرب شيئا يشغله .

أيام المهدى

ولما تقلد المهدى الخلافة قلد أبا عبيد الله وزارته ودواوينه فى سنة تسع وخمسين ومائة

وكان من كتاب أبى عبيد الله ، عبيد الله بن عمران مولى مذحج ويزيد الأحول أبو أحمد بن أبى خالد ومحمد بن سعيد بن عقبة قلده الخراج بمصر وغيرهم

قال أبو الحسن المدائنى وفد عبيد الله بن الحسن الهاشمى على المهدى معزيا عن المنصور ومهنئاً بالخلافة ، فتكلم بكلام كان قد أعده أعجب الناس به واستحسنوه فبلغه ذلك ، فقال لشبيب بن شيبة إنى والله ما ألتفت إلى هؤلاء ، ولكن سل أبا عبيد الله عما تكلمت به ، فسأله شبيب ، فقال له ما أحسن ما تكلم ! ولكنه لم يتعد بكلامه أن أخذ مواعظ الحسن ورسائل غيلان فلقح بينهما كلاما فأخبر شبيب عبيد الله بذلك ، فقال لله أبوه ، فوالله ما أخطأ حرفا . ولا تجاوزت ما قال

قال ابن أبى سعيد الوراق حدثنى محمد بن اسماعيل الجعفرى عن أبيه أن زفر بن عاصم عند تقلده المدينة أوفد إلى المهدى عبد الله بن مصعب الزبيرى وإبراهيم ابن سعد الزهرى وسعيد بن سالم المجاشعى ، فلما وصلوا إلى بابه قصدوا أبا عبيد الله وزيره متوسلين به فى إيصالهم . وذكر أمورهم فتجهمهم . وأبى عليهم وأغلظ القول لهم وجبههم بالرد . وقال لهم مالكم عندنا شىء

فقال له عبد الله بن مصعب . وكان احدث القوم سنا إذاً والله نكون كما قال خفاف بن يزيد السلمى :

إذا تلعات أرض الخرج[1] أمست جديبات المسارح والمراح
تهادى الريح إذخرهن شهبا ونودى فى المجالس بالقداح
وجدت لجارنا كرما ، وكنا سوى ظن اللئيم بمستراح
إذا ما أجدبوا حمدوا ، وأبدت لنا الضراء عن أدم صحاح

فاتصل خبرهم بالمهدى ، فأنكر على أبى عبيد الله ، ودعاهم فوصلهم وأحسن إليهم فى حوائجهم

وكان أبو عبيد الله يقول انى لأشكر حسن اللحظة ولين اللفظة ، وذكر أن رجلا اعتذر إلى أبى عبيد الله فأطال ، فقال له مارأيت عذرا هو أشبه باستئناف ذنب من هذا ، وكان أبوعبيد الله يقول : اليأس حر ، والرجاء عبد

وكان أهل الخراج يعذبون بصنوف من العذاب من السباع والزنابير والسنانير وكان محمد بن مسلم خاصا بالمهدى

فلما تقلد الخلافة ووجد أهل الخراج يعذبون شاور محمد بن مسلم فيهم ، فقال له محمد يا أمير المؤمنين هذا موقف له ما بعده ! وهم غرماء المسلمين . فالواجب أن يطالبوا مطالبة الغرماء ، فتقدم إلى أبى عبيد الله بالكتاب إلى جميع العمال برفع العذاب عن أهل الخراج

وفسد ما بين أبى عبيد الله وبين خالد بن برمك بعد شدة التصافى ، فاتصل بخالد ان أبا عبيد الله يقول إنه يتخوفه على سر كان أسره إليه ، فركب خالد حتى أتى باب أبى عبيد الله ، فلما رآه غلمانه أعظموا ذلك وتبادروا بين يديه

وخرج إليه أبو عبيد الله وهو متعجب ، فقال له خالد بلغنى عنك كذا وكذا ، وما اتخذت مودتك عدة لعداوتك ، وعلىّ وعلىّ وحلف أيمانا مغلظة أن لو قطعت إربا إربا ما ذكرت ذلك تعريضا ولا تصريحا ، وعلىّ وعلى

1) الخرج واد بأرض اليمامة فيه قرى لبنى قيس بن ثعلبة فى طريق مكة من البصرة

إن أطلعت من أمرك على شيء من هذه الحال ، فأبقيت عليك ، فلا تظنن بي ضرعا إليك ، ولا رغبة فيما لديك ، وانصرف

فدعا يحيى ابنه فقال له امض إلى أبي عبيد الله ، فقل له كل امرأة لى طالق ، وكل مملوك لى حر ، وكل مال لى صدقة ، إن دخلت لك منزلا ، ولا كلمتك أبدا ، فدفعه يحيى عن ذلك فلم يندفع

فصار يحيى إلى عبيد الله ، فأدى إليه الرسالة ، فشق ذلك عليه . فقال له فالتقى أنت فى حاجاته وحاجاتك ، فكان يحيى يلقاه فيكرمه ويقضى حوائجه

فقال يوما لخالد ما حداك يا سيدى ، ما حداك على ما كان منك فى أمر أبى عبيد الله ؟ فقال يابنى هذا رجل مسكين من صاحبه ، وقد وقع فى نفسه علينا شيء ، ولم آمن أن يرقى إليه شيء عنا لا أصل له فيقبله ويصدقه ، فأردت [أن] أظهر ما بيننا وبينه ، فان ادعى علينا شيئا ، حمله على ماعرفه بيننا

وركب أبو عبيد الله يوما ، فوقف له الناس ، وكان فيمن وقف يحيى بن خالد فى جماعة ، منهم مالك بن الهيثم ، ومعاذ بن مسلم ، فلما أطلع أبو عبيد الله رموا بأنفسهم عن دوابهم ، ووقف يحيى على ظهر دابته ، فلما رآه أبو عبيد الله أعرض عنه ، وأقبل بطرفه على عُرْف دابته ، ولم يلتفت إلى يحيى

قال فلما رأيت ذلك حركت إليه حتى لحقته فقلت له يا أبا عبيد الله أبقاك الله ، وقد علمت أنك تذكرت ما كان منى ، وقلّ مـا أعطى أحد نفسه هذه الذلة ، فوجدت عنده بعد ذلك خير

وتحدث شريك القاضى عند ابى عبيد الله يوما بحديث فى تحليل النبيذ ، فقال عافية القاضى ، وكان حاضرا ، ما سمعنا بهذا الحديث . فقال شريك وما يضر عالما إن جهل جاهل

وذكر أبو سهل الرازى القاضى عن منصور بن أبي مزاحم ، قال كنت عند أبي عبيد الله ، وحسن بن حسن عنده ، وشريك حاضر ، فقال أبو

عبيد الله لشريك حدّثنا فى النبيذ ، فحدثه بحديث همام عن عمر بن الخطاب فيه ، فقال حسن ما سمعنا هذا فى الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق

فقال شريك : أجل شغلك عنه جلوسك على الطنافس ، فى صدور المجالس ، وعرفناه بسبعينا[1] فيه ، فاستزاده أبو عبيد الله فقال لأعرض الحديث الكذب

وذكر عبد الأعلى بن عبد الله بن محمد بن صفوان الجمحى أنه حمل ديناً فى عسكر المهدى ، قال فركب المهدى يوما بين أبى عبيد الله وعمر بن بزيع وأنا وراءه فى موكبه على برذون قطوف ، فقال المهدى ما أنسب بيت قالته العرب ؟ فقال أبو عبيد الله قول امرىء القيس

وما ذرفت عيناك إلا لتضربى بسهميك فى أعشار قلب مقتّل

فقال المهدى هذا أعرابى قح ، فقال عمر بن بزيع قول كثير :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثل لى ليلى بكل سبيل

فقال المهدى ماهذا بشىء ، وماله أن ينسى ذكرها حتى تمثل له !

فقلت له حاجتك عندى ياأمير المؤمنين ، فقال الحقنى ، فقلت لالحاق بى مع دابتى ، فقال احملوه على دابة ، فقلت هذا أول الفتح ، وحملت عليها فلحقته ، فقال ماعندك ؟ فقلت قول الأحوص

إذا قلت إنى مشتف بلقائها فحمّ التلاقى بيننا زادنى سقما

فقال أحسنت والله اقضوا دينه .

وكان فى صحابة المهدى رجل يعرف بالثقفى البصرى ، وكان أبو عبيد الله له متثقلا ، وكان محبا لأن يضع منه ، فتكلم الثقفى يوما فلحن ، فقال له أبو عبيد الله أتجالس أمير المؤمنين بالملحون من الكلام ؟ أما كان يجب عليك أن تقوّم من لسانك ! فقال له الثقفى إنما يحتاج إلى استعمال الإعراب فى جميع الكلام ياأبا عبيد الله المعلون ! لينفقوا عند من التمسهم لتعليم ولده ! — يعرض

---

١) فى الاصل بسبعينا فيه

بأبى عبيد الله ، لأنه كان معلما فى اول أمره – فضحك المهدى حتى غطى وجهه

ولما حال الحول على المهدى فى الخلافة تقدم إلى أبى عبيد الله بمناظرة عيسى ابن موسى على أن يخلع نفسه من ولاية العهد ، فناظره وقال له إن المنصور قدّم المهدى عليك وعوضك ، فإن أخرجت نفسك من هذا الأمر عوّضك المهدى ما هو أنفع لك ، وأبقى عليك وإن أبيت استحل منك المحظورَ بمعصيتك وخلافك أمره ، وقد لزمتك طاعته ، ووجب عليك القبول منه

فسارَعَ إلى الاجابة إلى خلع نفسه فعوّض عشرة آلاف ألف درهم ، وكتب أبو عبيد الله عن المهدى بذلك و بتقليد الهادى موسى العهدَ إلى الآفاق فقال بعض الشعراء

كره الموت أبو موسى وقد كان فى الموت نجاءٌ وكرم
خلعَ الملك واضحى لابسا ثوبَ لؤم لا ترى منهُ القدمْ

فلما حج المهدى بعد عقد البيعة لموسى خلفه ببغداد خليفة له ، وضم يزيد ابن منصور خال المهدى مُدبّراً لأمره وقلد كتابته ووزارته أبان بن صدقة ، وذلك فى سنة ستين ومائة، وقلد عمر بن بزيع دواوين الأَزِمَّة فى سنة اثنتين وستين ومائة ، وقد قيل إن المهدى أول من أحدثها

قال عبد الله بن الربيع سمعت مجاهدا الشاعر يقول : خرج المهدى متنزها ، ومعه عمر بن بزيع ، فانقطعا عن المعسكر فى طلب الصيد ، فأصاب المهدىَّ جوعٌ فقال لعمر بن بزيع ، ويحك هل من شىء ؟ قال ما من شىء ، قال فإنى أرى كوخا وأظنها مبقلة

فقصدا قصدة فإذا نبطىٌّ فى كوخ وإذا مبقلة ، فسلما عليه فردا السلام فقال هل عندك شىء نأكل ؟ قال عندى رَبيثاء وخبز شعير

فقال له المهدى إن كان عندك زيت فقد كمل ، قال نعم ، قال وكراث ؟ قال نعم ، وعندى تمر . وغدا نحو المبقلة ، فجاء ببقل وكراث وبصل ، فأكلا

أكلا كثيرا وشبعا

فقال المهدى لعمر بن بزيع قل فى هـذا شعرا ، وكان يعرف بقرض الشعر فقال :

إن من يطعم الرَّبيثاءَ بالزيـ ت وخبز الشعير والكراث

لحقيق بصفعة أو بثنتيـ ن لسوء الصنيع أو بثلاث

فقال المهدى بئس ما قلت ، ليس هكذا ولكن

لحقيق ببدرة أو بثنتيـ ن لحسن الصنيع أو بثلاث

ولحق بهما العسكر والخزائن ، فأمر للنبطى بثلاث بدر

وحكى عن عمارة بن حمزة أنه دخل يوما على المهدى فأعظمه ، فلما قام قال له رجال من أهل المدينة من القرشيين ، يا أمير المؤمنين من هـذا الذى أعظمته هذا الإعظام كله ؟ فقال عمارة بن حمزة مولاىَ ، فسمع عمارة كلامه ، فرجع إليه فقال يا أمير المؤمنين جعلتنى كبعض خبازيك وفرّاشيك ! أفلا قلت عمارة ابن حمزة بن ميمون مولى عبد الله بن عباس ليعرف الناس مكانى !

وبلغ موسى بن المهدى حال بنت لعمارة جميلة فراسلها ، فقالت لا بيها ذلك فقال ابعثى إليه فى المصير إليك ، وأعلميه أنك تقدرين على ايصاله إليك فى موضع يخفى أثرُه

فأرسلت إليه بذلك وحمل موسى على المصير نفسه ، فأدخلته حجرة قد فرشت وأعدت له ، فلما صار إليها دخل عليه عمارة فقال السلام عليك أيها الأمير ، ماذا تصنع هاهنا ؟ اتخذناك ولىَّ عهد فينا أو فحلاً فى نسائنا ! ثم أمر به فبطح فى موضعه ، فضربه عشرين دِرّة خفيفة ، ورده إلى منزله فحقد الهادى عليه ذلك

فلما ولى الخلافة دس إليه رجلا يدّعى عليه أنه غصبه الضيعة المعروفة بالبيضاء بالكوفة ، وكانت قيمتها ألف ألف درهم ، فبينا الهادى ذات يوم قد جلس للمظالم وعمارة بحضرته وثب الرجل فتظلم منه ، فقال الهادى لعمارة ما تقول فيما ادعاه

الرجل ، فقال إن كانت الضيعة لي فهي له ، وإن كانت له فهي له ؛ ووثب فانصرف عن المجلس

وهذا شيء يشبه حكاية عن غيلان بن خرشة الضبي أحد أصحاب أبي موسى الأشعري ، وكان غيلان أسكن رجلا داراً بالبصرة ، ثم أراد إخراجه عنها فنازعه الساكن ، وكانت لغيلان منزلة من أبي موسى ، فإنه يوما لجالس إلى جانبه ، إذ دخل الساكن . فقال أصلح الله الأمير ، إن غيلان أسكنني دارا وهو يريد إخراجي منها . ومن قصتي قصته كيت وكيت ، فأقبل أبو موسى على غيلان ، فقال أبينك وبينه منازعة ؟ فقال نعم هذا رجل أسكنته ثم ذهب يقص قصته . فقال له أبو موسى رويدك ، انتقل فاجلس مع خصمك ! فقال له غيلان ماهو إلا هذا . فقال أبو موسى ماهو إلا هذا ، فقال فاشهد أن الدار له

وأحفظه ذلك على أبي موسى ، فشخص حتى قدم المدينة على عثمان فدخل في يوم قد اجتمعت فيه بنو أمية على مأدبة لهم وعليه عمامته وثياب سفره ، فلما رآه قال له من أنت قال رجل سائر الدار بعيد النسب ، ثم حسر عمامته عن وجهه ، وقال أنا غيلان بن خرشة أيا معشر بني أمية ، أمافيكم صغير تستنشئونه ؟ أمافيكم فقير تنعشونه ؟ أما فيكم ضعيف تجبرونه ؟ إلى كم يأكل البصرة حتى هذا الاشعري ! فوقرت في قلوب القوم ، وكانت سبب عزل عثمان أبا موسى فعزله

وولى ابن عامر وهو عبد الله بن عامر بن كرز بن حبيب بن ربيعة بن عبد شمس في سنة تسع وعشرين وهو ابن خمس وعشرين سنة

وقلد المهدي عمارة بن حمزة الخراج بالبصرة فكتب إليه ليسأله أن يضم الأحداث إلى الخراج ، ففعل ذلك وقلده الأحداث مضافة إلى الخراج

وكان عمر أعور ذميما ، وكرهه أهل البصره لتيهه وكبره ، فرفعوا إلى المهدي عليه أنه اختان مالا كثيراً ، فسأله المهدي عن ذلك ، فقال والله ياأمير المؤمنين أن لو كانت هذه الأموال التي يذكرونهاوأ بجوار بيتي ما نظرت اليها فقال أشهد

أنك لصادق ولم يراجعه فيها

ودخل على المهدى صالح بن عبد الجليل وكان ناسكا مفوها ، فوعظه وابكاه طويلا ، وذكر سيرة العمرين

فأجابه المهدى بفساد الزمان وتغير أهله ، وما حدث لهم من العادات، وذكر له جماعات من أصحابه ، وما لهم من الاحوال والنعمة وذكر فيهم عمارة بن حمزة ، فقال له قد بلغني أن له ألف دواج بوبر سوى مالا وبر فيه ، وسوى غيرها من الأصناف

وحكى أن المهدى قال لعمارة بن حمزة أبغني نديما ظريفاً ، فسمى لـه والبـة ابن الحباب وكان شاعرا أديبا ماجنا ويكنى والبة أباأسامة فدعابه المهدى فأنشده يوما :

قولا لعمرو لا تكن ناسيا ... واسقنى الخمرة من كاسيا

واردُدْ على الهيثم مثل الذى ... هِجت به ويحكَ وَسواسيا

وقل لساقينا على خلوة ... أُدن كذا رأسَكَ من راسيا

ونمْ على صدرك لى ساعة ... إنى امرؤ انكح جلاسيا !

فقال المهدى اتريد ان تنكحنا لا أُم لك

وأغزى المهدى ابنه هارون الصائفة فى سنة ثلاث وستين ومائة ، وأنفـذ معه خالد بن برمك ، وقلد كتابته ونفقاته وتدبير امر عسكره يحيى بن خالد ففتح عليهم وحسن أثر يحيى فيما قام به واحمد فعله فيه وتدبيره إياه

ثم امر المهدى اباعبيد الله بأخذ البيعة بالعهد لهارون بعد موسى واستحلاف الناس عليها ، فحضر دار العامة ابو عبيد الله، ومعه ابوالعباس الطوسى، صاحب الحرس حتى اخذ البيعة على اناس وهم مسارعون إليها ومتباشرون بها ، وكتب إلى جميع الآفاق بذلك

---

١) الدواج كرمان ، وغراب اللحاف الذى يلبس

وعرض الكتاب على المهدى وعرفه الخبر فشكر الله وسر به وقلد المهدى هارونَ المغربَ كله من الأنبار إلى إفريقية ، وأمر كاتبه خالد بتولى ذلك كله وتدبيره ، فقام به

وكان يكتب ليحيى بن خالد اسماعيل بن صبيح ، وكان خالد بن برمك سخيا جليلا سريا نبيلا ، كثير الإحسان

قال الجاحظ حدثنى ثمامة ، قال كان أصحابنا يقولون لم يكن يرى لجليس خالد دار إلا خالد بناها له ، ولا ضيعة إلا وخالد ابتاعها له ، ولا ولد إلا وخالد ابتاع أمه إن كانت أمة ، أو أدى مهرها إن كانت حرة ، ولا دابة إلا وخالد حمله عليها ، إما من نتاجه أو من غير نتاجه

وكان خالد أول من سمى المستميحين ، ومن يقصد العمال لطلب البر الزوّار وكان يسمون قبل ذلك السؤّال

فقال خالد أنا أستقبح لهم هذا الاسم ، وفيهم الأحرار والأشراف ! وفى ذلك يقول بعض زواره :

حذا خالد فى جوده حذوَ برمك ... فجود له مستطرَفٌ وأثيل
وكان بنو الاعدام يدْعَوْنَ قبله ... بإسم على الإعدام فيه دليل
يسمون بالسؤّال فى كل موطن ... وإن كان فيهم نافهٌ وجليل
فسماهم الزوار سترا عليهم ... فأستاره فى المجتدين سدُولُ

وأحب المهدى يوما أن يسمع خبر يوم ابن ضبارة صاحب مروان وهزيمته ، فقيل له أعلم الناس بذلك خالد بن برمك ، لأنه كان شاهداً فأمر بإحضاره ، فلما وصل إليه سأله عن ذلك

فقال له : إنا لما صافَّنا القوم يأمير المؤمنين خفقت ألويتنا بالنصر ، وقذف الله فى قلوبهم الرعب ، وهبت ريح الغلبة ، فما كان إلا كلا ولا ، حتى انجلى الأمر لنا بالنصر ، ولله الحمد والشكر - فقال له المهدى أحسنت وأوجزت

وكان المهدى أنفذ خالدا إلى فارس عاملا عليها واستخلف خالد ابنه يحيى فنقط الخراج على أهلها ، ووضع عنهم خراج الشجر ، وكانوا يلزمون له خراجا ثقيلا ، وأكثر خالد الصلات والجوائز والإحسان إلى كافة الناس وخاصتهم ، فشغب الجند عليه ، فضرب عنق قائد منهم يدعى شاكر التركى قرابة لفرج خادم المهدى ، فكثر فرج فيه عند المهدى ، ونسبه إلى المعصية فغضب المهدى وحبسه وألزمه مالا جليلا ونجمه عليه فكان يؤدى فى كل يوم جمعة ألف ألف درهم ، وشفعت الخيزران فى أمره بالرضاع ، الذى كان بين هارون ابنها ، وبين الفضل ابن يحيى فرضى عنه ورده إلى منزلته

ولما انصرف هارونُ من الغزاة التى نفذ فيها فى سنة ثلاث وستين ومائة توفى خالد ، فوجه إليه المهدى بكفن وحنوط وصلى عليه هارون

ولم يزل أبو عبيد الله فى خدمة المهدى إلى سنة ثلاث وستين ومائة مستقيم الأمر ، ثم سعى عليه الربيع وحمل المهدىَّ على مكارهه ، فصرفه فى سنة ثلاث [وستين ومائة]

وكان السبب فى ذلك أن الربيع كان يحسن خلافة أبى عبيد الله بحضرة أبى جعفر عند غيبته مع المهدى بالرى ، ويكاتبه بما يحتاج إليه وينبهه على ما يصلحه ويكف عنه من يريد عيبه والقدح فى محله ، أو ذكره بخلاف الجميل

فلما انصرف الربيع من الحج بعد موت أبى جعفر ، وقد قام ببيعة المهدى القيامَ المشهور قصد بابه بادئا به قبل المهدى ، فقال له الفضل ياسيدى تترك أمير المؤمنين ، وتترك أهلك ، وتأتى أبا عبيد الله ! فقال يابنى هو صاحب الرجل ، فليس ينبغى أن نعامله كما كنا نعامله ، ولا أن نحاسبه بما كان منا فى أمره من النصرة له والمعاونة

فلما وصل إلى الباب وقف عليه — وقد كان وقت المغرب — إلى وقت عشاء الآخرة ، ثم خرج الحاجب فقال ادخل ، فثنى رجله لينزل ، وثنى الفضل رجله

معه ، فقال الحاجب إنما استأذنت لك وحدك يا أبا الفضل !

فقال له ارجع وأعلمه أن الفضل معى ، ثم أقبل على الفضل ، فقال هذا من ذاك ! ثم خرج الآذن فأذن لهما جميعا ، فدخلا وأبو عبيد الله فى صدر مجلسه على مصلى قد اتكأ على وسادة ، فلم يقم إليه ، ولا استوى جالسا ولا ألقى إليه شيئا يجلس عليه ، وتركه على البساط ، وجعل يسائله عن سفره ومسيره وحاله

والربيع يتوقع أن يسأله عما كان منه فى أمر المهدى وتجديده بيعته ، فأعرض أبو عبيد الله عن ذلك ، فذهب الربيع ليبتدئه بذكره فقال قد بلغنا نبؤكم ! فقام الربيع لينصرف ، فقال أبو عبيد الله لا أرى الدروب إلا وقد أغلقت ، فلو أقمت ! فقال له الربيع لا أرى الدروب تغلق دونى ، فقال بلى قد أغلقت ! وظن الربيع أنه يريد أن يستريح من تعب مسيره ثم يسأله فيما بعد ، فقال فأقيم إذاً ، فقال أبو عبيد الله يا غلام هيىء لأبى الفضل موضعاً فى منزل محمد يعنى ابنه ، فلما رأى أنه يريد به الخروج من داره ، قال فليس يغلق دونى درب ، وقصد منزله منصرفا .

وأقبل على ابنه الفضل ، فقال يا بنى أنت أحمق ، قال وما حمقي؟ قال تقول لى كان ينبغى أن لا تجىء ، وإذ جئت وحجبك أن لا تقيم منتظراً ، ولما دخلت فلم يقم إليك أن ترجع ولا تكلمه ، لم يكن الصواب غير ما فعلته كله ، ولكن والله الذى لا إله إلا هو لأُخلقن جاهى ، ولأُنفقن مالى حتى أبلغ مكروه أبى عبيد الله ! ثم جعل يضرب ظهراً لبطن ، ويضطرب يميناً وشمالا فلا يجد مساغا .

ثم ذكر القشيرىَّ وكان أبو عبيد الله أساء به وحجبه ، فاستحضره وقال قد علمت ما ركبك به أبو عبيد الله ، فهل عندك فى أمره حيلة ؟ قال له ليس بجاهل فى صناعته ، وإنه لأحذق الناس ، وما هو بظنين فيما يتقلده ، لأنه أعف الناس ، حتى لو كن بنات المهدى فى حجره لكان لهن موضعاً ، وليس يتهم بانحراف عن هذه الدولة ، لأنه ليس يؤتى من ذلك ، وليس يتهم فى دينه ، لأن عقده عقد

وثيق ، ولكن هذا كله يجتمع للشك ابنه . فقام الربيع فقبل عينه، وما زال يدس إلى المهدى من يخبره خبرَ عبدالله بن أبى عبيد الله[1]

وكان المهدى قد جدَّ فى طلب الزنادقة وغلظ فى أمرهم ، فقُدِم عليه بجماعة منهم فى سنة ست وستين ومائة ، وأحضر معهم وضاح الشَّرَوى ، وعبد الله بن أبى عبيد الله ، وكان أخذه بمكةَ ، فأدخل على المهدى فقال أزنديق أنت ؟ قال نعم .

وممن يعتقد الزندقة قوم يرون أن جحد مايدينون به محظور ، وأن التَّقِيَّة غير جائزة ، وقد دل هذا الخبر على أن عبدالله بن أبى عبيد الله منهم

فقال له المهدى اقرأ فقرأ « تباركت وعالموك بعظم الخلق » فأشار الربيع على المهدى بمطالبة أبيه بقتله ، فقال المهدى لأبى عبيدالله ، اضرب عنقه ، فتنحى كأنه يريد أن يفعل ذلك فارتعد ، فقال له العباس بن محمد ياأمير المؤمنين : شيخ كبير وله حرمة ، ويكفيك غيره ماأردته منه . وأبوعبيد الله يقول لابنه مابهذا أدبتك ، ولقد علمتك كتاب الله عز وجل !

فأمر المهدى عبدَ الله بن أبى العباس الطوسى وكان يخلف أباه على الحرس بقتله ، فلما تنحى ليقتل صاح ياأمير المؤمنين التوبة ، فتغافل عنه المهدى ، فقال عافية بن يزيد القاضى إنه يعرّض بالتوبة يا أمير المؤمنين .

فأقبل عليه المهدى وقال واللهِ ما اللهَ أردتَ بذلك ! انزعوا عمامته ، وجأُوا فى عنقه ، فمازال يدفع ويوجأ فى عنقه حتى أخرج

وأمضى عبد الله بن أبى العباس ما أمر به من قتله فقتل ، ودفن ولم يستقبل به القبلة .

وأحضر فى جملة من أحضر من الزنادقة ابنٌ لأبى أيوب سليمان بن أيوب المكى ، فأقرَّ بالزندقة وتاب ، فقبل المهدى توبته وأمر باطلاقه ، وذلك فى سنة

١) فى مروج الذهب : عبد الله بن أبى عبد الله

ست وستين ومائة .

ولما قتل المهدى عبد الله بن أبى عبيد الله قال الربيع لبعض خدم المهدى لك على ثلاثة آلاف(١) دينار إن فعلت شيئاً لا يضرك ، قال له وما هو ؟ قال إذا دخل أبو عبيد الله إلى المهدى ، فصار بحضرته قبضت على سيفه ، ومشيت إلى جانبه فسينكر ذلك عليك أمير المؤمنين ، فتقول يا أمير المؤمنين قتلتَ ابنه بالأمس فكيف آمنه عليك أن يخلو بك ، ومعه سيفه اليومَ ! ففعل ذلك الخادم ، فكان ذلك مما أوحش المهدى من أبى عبيد الله

ومات أبان بن صدقة(٢) فى سنة سبع وستين ومائة ، وهو على رسائل موسى ابن المهدى بجرجان عند نفوذه إلى الرى

وكان المهدى لما أفضت الخلافة إليه أمر بإطلاق من فى السجون فأطلق منهم يعقوب بن داود بن طهمان ، وكان يعقوب كاتب إبراهيم بن عبد الله بن حسن ابن حسن ، وكان المنصور حبسه فى المُطْبَق(٣)

وكان داود بن طَهمان واخوته كتابا لنصر بن سيار ، ولما مات داود نشأ ولده على ويعقوب أهلَ أدب وفهم وافتنان فى صنوف العلوم ، وكان على بن داود كتب لإبراهيم بن عبد الله بن حسن وصَحبه يعقوب بن داود ، ولم يزالا معه إلى أن قتل إبراهيم بن عبد الله بن حسن ، فظُفر بيعقوب بن داود فحبسه أبو جعفر فى المطبق فى سنة أربع وأربعين ومائة ، وكان الحسن بن إبراهيم بن عبد الله معه فى المطبق

فسعى به يعقوب إلى المهدى ، وذكر أنه قد عمل سَرَباً(٤) يهرب فيه ، فبعث

---

١) فى ألف وقد اعتاد الناسخ ذلك وقد أصلحناها عدة مرات دون أن نشير إلى الأصل فيها ٢) فى الأصل : ومات صدقة بن أبان وهو سبق قلم

٣) المطبق سجن فى جوف الأرض ٤) السرب بالتحريك الحفرة تحت الأرض

المهدى فوجد السرب فنقله إلى نُصير الوصيف ، فاحتيل له فى الهرب فهرب من يده لأن جماعة من الزيدية احتالت فى هربه ، وصاروا به إلى مدينة الرسول فتقدم المهدى إلى يعقوب بطلبه فضمن له ذلك

واستأذنه فى رفع النصائح إليه فأذن له ، فداخله بذلك السبب ، وتثاقل أبو عبيد الله وأدلّ

وتمالأ يعقوب والربيع على أبى عبيد الله ، فجعلت حال يعقوب تزيد ، وحال أبى عبيد الله تنقص ، إلى أن سمى المهدىُّ يعقوبَ أخاً فى الله ووزيراً ، وأخرج بذلك توقيعات تثبت فى الدواوين . ففى ذلك يقول سَلْمٌ الخاسر :

قل للإمام الذى جاءت خلافته   تُهدَى إليه بحق غير مردودِ
نعم المعينُ على التقوى اعنت به   أخوكَ فى الله يعقوبُ بن داودِ

وحج المهدى سنة ستين ومائة ، ويعقوب بن داود معه ، فأخذ منه أمانا للحسن ابن عبد الله بن حسن ، وأحضره إياه ، فأحسن إليه المهدى ، ووصله بمال ، وأقطعه مالا من الصوافى[1] بالحجاز ، وأحمد فعل يعقوب فى ذلك

وشُكى إلى المهدى فى حجته هذه بعضُ عماله ، وسئل عزله فلم يفعل ، فلما صار ببعض الطريق ورد عليه خبر وفاته ، فقال يايعقوب عزله من هو أقوى على عزله منا

ثم صرف المهدى أبا عبيدالله عن وزارته سنة ثلاث وستين ومائة ، واقتصر به على ديوان الرسائل ، وكان يصل إليه على رسمه ، وغلب على أمره كله ووزارته يعقوب بن داود [السلمى][2]

وجدّ المهدى فى طلب الزنادقة ، وقلد عمر الكلواذانى طلبهم ، فظفر بجماعة منهم ، وظفر فيهم بيزيد بن الفيض كاتب المنصور ، فأقر بالزندقة ، فحبس

١) فى اللسان الصوافى واحدها صافية وهى ضياع السلطان خاصة أو الأرض التى مات أهلها وارث لهم أو جلوا عنها ٢) الزيادة عن المسعودى فى المروج

وهرب من الحبس ، فلم يُقدر عليه

ثم عزل المهدى أبا عبيد الله عن ديوان الرسائل فى سنة سبع وستين ومائة ، وقلده الربيعَ فاستخلف الربيعُ عليه سعيدَ بن واقد

وكان أبو عبيد الله يصل إلى المهدى على مرتبته رعاية لحرمته . ومن حَسن كلام أبى عبيد الله مارواه عمرو بن بحر الجاحظ :

التماس السلامة بالسكوت ، أولى من التماس الحظ بالكلام . وقمع نخوة الشرف ، أشد من قمع بطر الغنى . والصبر على حقوق النعمة ، أصعب من الصبر على ألم الحاجة . وذل الفقر ، قاهر لعز الصبر . كما أن عز الغنى مانعَ من الإنصاف ، إلا لمن كان فى غريزته فضل كرم ، وفى أعراقه مناسبة لعلو الهمة

وتفرد يعقوب بتدبير الأمور كلها ، وتوفى عمر بن داود أخو يعقوب ، وكان سبب ذلك أنه خرج متنزها ومعه جماعة من أهله وأقاربه ، ومعه سفرة وفواكه ، فقدّمت إليه سلة فيها عنب ، فأخذ منها حبتين فألقاهما فى فيه ، فاعترضتا فى حلقه فلم ينزلا ولم يصعدا ، حتى مات فرثاه ابن أخيه داود بن على بن داود

غدا صحيحاً مع الأحياء مغتبطا والآن ميتاً بقربى أهله عمر
فاحتلَّ قبراً لدى قبر أبوه به يعلوهما نضد الأحجار والمدر
فما بقاؤك يا داود بعدهما فاحذر حذار امرىء قدشفه الذعر
وراقب الله ، واعلم أن طاعته هى النجاة إذا ماحوسب البشر

فذكر عبد الله بن يعقوب بن داود أن سفيان بن عيينة صار إليهم معزياً ، فكانت تعزيته أن أنشد بيتا لعمران بن حطان :

كيفَ أعزيكَ والأحداث مقبلة فيها لكلّ امرىء من نفسه شغلُ !

وكان عبد الله بن يعقوب بن داود أحدَ الأدباء والشعراء وله ابنان يقولان الشعر ، يقال لأحدهما : محمد ، والآخر عبيد الله ، فمن قول محمد بن عبد الله ابن يعقوب :

وردَّ الشيبُ عُمرَ لمتي وعرامه(١) ... ومرى(٢) الخطوبِ بحُسلِ سِجام

ولقد حرصتُ بأن أواري شخصه ... عن مقلتي فرمتُ صعبَ مرام

وصبغتُ ما صبغَ الزمانُ فلم يدم ... صبغي ودامت صبغة الأيام

لا يبعدنّ شبيبة خلّة ... فارقتها في سالف الأيام

ما كان ما استمتعت من أيامها ... إلا كبعض طوارق الأحلام

ومن قول عبيد الله بن عبد الله بن يعقوب :

ما صبرُ حُرٍّ لا يضيق عنه صدره ... وإن كان قد ضاقت عليه مذاهبه

فإن القوام الغرّ يخلف حلفا ... وإن الحسام العضب تنبو مضاربه

وذكر خالد بن يزيد بن وهب بن جرير أن أباه حدثه : أن بشار بن برد هجا
صالح بن داود أخا يعقوب ، حين وُلّي فقال :

هم حملوا فوق المنابر صالحا ... أخاك فضجّت من أخيك المنابر!

فبلغ يعقوب بن داود هجاؤه ، فدخل على المهدي فقال له يا أمير المؤمنين إن هذا الأعمى المشرك قد هجا أمير المؤمنين ، قال : وما قال ؟ فقال يعفني أمير المؤمنين من انشاده ذلك ، فأبى عليه ، وراجعه ، ولم يزل به إلى أن أنشده :

خليفة يزني بعماته ... يلعب بالدّبّوق والصولجان(٣)

أبدلنا الله به غيره ... ودسّ موسى في حر الخيزران(٤)

فقال له : وجّه في حمله ، فخاف يعقوب أن يقدم على المهدي فيمدحه فيعفو عنه فوجه إليه من ألقاه في البطائح(٥) وقيل لم يغرق في البطائح ، ولكن قتله في طريقه

---

١) العرام الشدة والبأس والقوة ٢) المرى مسح ضرع الناقة ليدر لبنها

٣) يلعب بالدبوق والصولجان ، كناية عن الأبنة ، والدبوق والدبوقاء كل ما تلطخ من لعاب أو غيره ٤) كتبت في هامش الأصل بخط جديد : موسى وهرون ابنا المهدي من الخيزران ٥) البطائح جمع البطيحة وهي مجتمع ماء السيل الواسع وبذلك سميت بطائح واسط وهي أرض واسعة بين

ولما استقام أمرُ يعقوب أرسل إلى الزيدية جميعا ، فأُتى بهم من كل ناحية فولاهم أمور الخلافة فى الشرق والغرب ، وكان هذا مما عتب به عليه

وكان أبوعبيدالله يضبط أمور المهدى ، ويشير عليه بالاقتصاد ، وحفظ الاموال وكان أبو جعفر خلف فى بيوت الأَموال عند وفاته تسعمائة ألف ألف درهم وستين ألف ألف درهم ؛ فلما صرف المهدى أبا عبيد الله عن وزارته وقلدها يعقوب ، زيَّن له هواه ، فأَنفق المال ، وأكب على اللذات والشُّرب ، وسماع الغناء ، ففى ذلك يقول بشار :

بنى أمية هبوا طال نومكم إن الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم ياقوم فاطلبوا خليفةَ الله بين الزِّقِّ والعود

وذكر المفضل العمرى ان المهدى حج فى بعض السنين فمر بميل[1] وعليه مكتوب ، فوقف فقرأه ، وإذا هو :

« لله درك يا مهدى من رجل لولا اتخاذك يعقوب بن داود ! »

فقال لمن معه اكتب تحته « على رغم أنف الكاتب ، هذا وتعسا لجده » فلما انصرف وقف على الميل ، فقلنا إنه لم يقف عليه إلا لشىء قد علق بقلبه من ذلك الشعر ، وكان كذلك لأَنه أوقع بيعقوب بعد قليل

وكثرت الأَقوال فى يعقوب ، ووجد أعداؤه مقالا فيه ، فقالوا وذكروا للمهدى خروجه على المنصور مع إبراهيم بن الحسن ، وعرَّفه بعض خدمه أنه سمع يعقوب وهو يقول : بنى هذا الرجل متنزها أنفق عليه خمسين ألف ألف درهم من أموال المسلمين ، وكان القائل لهذا القول أحمد بن اسماعيل صهر يعقوب بن داود ، وكان المهدى بنى عيساباذ[2]

واسط والبصرة وكانت قديما قرى متصلة وأرضا عامرة

١) الميل : منار يبنى فى الطريق يهتدى به السفار ٢) فى ياقوت إن الخمسين ألف ألف درهم كانت نفقة قصر المهدى المسمى قصر السلام بناه المهدى

وأراد المهدى أمرا ، فقال له يعقوب هذا ياأمير المؤمنين السرف ! فقال ويلك ! وهل يحسن السرف إلا بأهل الشرف ! وبلك يا يعقوب ! لولا الاسراف لم يعرف المقتر من المكثر !

قال محمد بن عبد الله النوفلى ، قال لى أبى قال لى يعقوب كان المهدى لا يشرب النبيذ إلا [1] تحرجا ، ولكنه كان لا يشتهيه ، وكان أصحابه عمر بن بزيع والمعلى مولاه ومواليه يشربون عنده بحيث يراهم

قال وكنت أعظه فى سقيهم النبيذ وفى السماع ، وكان يقول هذا عبد الله بن جعفر قال ، قلت : ليس هذا من حسناته ، لو أن رجلا سمع كل يوم هل كان ذلك يزيده قربة من الله عز وجل أو بعداً !

وكان يعقوب قد ضجر بموضعه ، وتاب إلى الله مما هو فيه ، واستقال وقدم النية فى ترك موضعه

فكان يقول : والله ياأمير المؤمنين لشربة خمر أشربها أتوب إلى الله منها أحب إلى مما أنا فيه ، وانى لأركب إليك فأتمنى يداً خاطئة تصيبنى فى طريق ، فأعفنى وولِّ من شئت ، فانى أحب أن أسلم عليك انا وولدى

ووالله إنى لأتقرَّع [2] فى الليل ، منذ وليتنى امر المسلمين ، وليس دنياك بعوض من آخرتى ، قال فكان المهدى يقول له : اللهم غفراً ، اللهم أصلح قلبه .

ثم أراد المهدى أن يمتحنه فى ميله إلى العلوية ، فدعا به يوما وهو فى مجلس فُرشه موردة ، وعليه ثياب موردة ، وعلى رأسه جارية عليها ثياب موردة ، وهو مشرف على بستان فيه شجر قد ورَّد صنوف الأَوراد [3]

بعيسا باذ وليست نفقة بناء المدينة ولا المتنزه .

١) الصواب لاتحرجا لأنه لم يشربه . والجهشيارى يقول هنا إن علة تركه النبيذ هى عدم الاشتهاء لا أنه حرام ٢) يقال تقرع وانقرع إذا انقلب ولم ينم

٣) الأوراد جمع ورد وهو النور من كل شجرة

فقال له يايعقوب كيف ترى مجلسنا هذا؟ قال على غاية الحسن ، فمتع الله أمير المؤمنين به ، وهنأه إياه ، فقال له: جميع مافيه لك وهذه الجارية لك ليتم سرورك وقد أمرت لك بمائة ألف درهم ففرقها فى بعض شأنك ، فدعا [له يعقوب] بما يجب

وقال له [المهدى] لى إليك حاجة ، فقام [يعقوب] قائماً ، وقال يا أمير المؤمنين ما هذا القول إلا لموجدة ، وأنا استعيذ بالله من سخطك ، فقال له: أحب أن تضمن لى قضاءها فقال السمع والطاعة !

فقال له والله ! فقال والله ثلاثا ! فقال له ضع يدك على رأسى واحلف به، ففعل ذلك ، فلما استوثق منه ، قال له هذا فلان بن فلان رجل من العلوية أحب أن تكفينى مؤونته ، وتريحنى منه ، فخذه إليك ، فحوّله إليه

وحمل الجارية وما كان فى المجلس والمال ، فلشدة سروره بالجارية . جعلها فى مجلس تقرب منه ، ليصل إليها

ووجه فأحضر العلوى فوجده لبيباً فهماً ، فقال له : ويحك يايعقوب تلقى الله بدمى وانا رجل من ولد فاطمة رضى الله عنها بنت محمد صلى الله عليه ! فقال له يعقوب ياهذا ، أفيك خير؟ قال إن فعلت بى خيراً شكرت ، ودعوت لك واستغفرت ، فقال له : خذ هذا المال . وخذ اى طريق شئت. فقال له طريق كذا وكذا آمن لى . فقال له امض مصاحبا ، وسمعت الجارية الكلام كله فوجهت إلى المهدى مع بعض خدمه به

فوجه المهدى فشحن الطريق (١) حتى ظفر بالعلوى . و بالمال ثم وجه الى يعقوب فأحضره ، فلما رآه قال له ماحال الرجل؟ قال قد أراحك الله منه قال مات ! قال نعم قال والله ! قال والله ، قال فضع يدك على رأسى ! فوضع يده على رأسه وحلف له به، فقال ياغلام أخرج الينا من فى هذا البيت ففتح بابه عن العلوى والمال بعينه ، فبقى يعقوب متحيرا ، وامتنع الكلام عليه ، فما درى ما يقول

١) شحن الطريق ملأه بالرجال والأعوان

فقال له المهدى لقد حل لى دمك ، ولو آثرت إراقته لأرقته ، ولكن احبسوه فى المطبق فحبسه فى مطبق اتخذه له ، وأمر بأن يطوى خبره عنه وعن كل أحد فأقام فيه من أيام المهدى سنتين وشهوراً ، وجميعَ أيام الهادى ، وخمسَ سنين وشهرين من أيام الرشيد

ثم ذكَّر يحيى بن خالد الرشيدَ بأمره ، وشفع إليه فيه ، فأمره باخراجه ، فأخرج وقد ذهب بصره ، فأحسن إليه الرشيد وردَّ إليه ماله ، واختار المقام بمكة فأذن له فى ذلك ، فأقام بها حتى مات فى سنة سبع وثمانين ومائة

وليعقوب بن داود شعر صالح ، ومنه ماقاله عند مقامه بمكة، أنشده جرير ابن [احمد بن] أبى دُوَاد [1] ، قال أنشدنى سعيد بن يعقوب :

طلق الدنيا ثلاثا　　واطلب زوجاً سواها
إنها زوجة سوء　　لاتبالى من أتاها

وأنشد له أيضا :

قليل الهم لا ولد يموت　　ولا مال تحاذره يفوت
رخىُّ البال ليس له عيال　　سليم من رزيت ومن بليت
قضى وطر الصبي وأفاد عِلما　　فهمته التفكر والسكوت
وأكثر همّ من يمشى عليها　　إذا فتشتهم خَلَق وقوت

وحكى أن المهدى قال ليعقوب ، وقد دخل إليه: يايعقوب ، قال لبيك ياأمير المؤمنين تلبية مكروب بغضبك ، فقال : ألم أرفع من ذكرك وأنت خامل ! وأعلى من قدرك وأنت غافل ! وألبسك من نعم الله ما لم أجد لك بحمله يدين من الشكر ! فكيف رأيت الله أظهر عليك ورد كيدك إليك ! فقال يا أمير المؤمنين إن كان ذلك بعلمك فتصديق معترف ومذنب ، وإن كان بما كسبته نمائم الباغين فعائذٌ بفضلك !

---

1) فى الاصل داود والزيادة والتصحيح عن ياقوت

فقال والله لألبسنك من الموت قميصا لايخلق الدهر جديده ، ياغلام المطبق ، فولى وهو يقول : المودة رحم ، والوفاء كرم ، وأنت بهما جدير

قال ميمون بن هارون أخبرني أبو الحسن عمرو بن خلف الباهلي : أن يعقوب ابن داود لما أُطلق ، سأل عن جماعة من إخوانه وأصحابه ، فخبر بوفاتهم ، فقال :

لكل أناس مقبر بفنائهم فهم ينقصون والقبور تزيد
فما إن تزال دارحي قد أُخلقت وقبر لميت بالفناء جديد
هم جيرة الأحياء ، أما محلهم فدان ، وأما الملتقى فبعيد

وكان المهدي وهب لابن يعقوب بن داود جارية ، فدخل عليه في غد اليوم الذي حوّلت فيه إليه ، فقال كيف الجارية يافلان ؟ فقال ماوضعت بين الأرض وبيني أوطأ منها ، حاشا سامع!(١) فأقبل المهدي على أبيه ، فقال : تُراه أيَّنا يعني ؟ فقال له يعقوب ياأمير المؤمنين : الأحمق يُحفظ من كل شيء ، إلا من نفسه

وأمر المهدي بعزل أصحاب يعقوب جميعاً من الأعمال في الشرق والغرب ، وأن يحبس جميع أهل بيته وأقاربه ، فقال أبو الشيص

أبلغ إمامَ الهدى أزلت مصطنعا للنائبات كيعقوبَ بن داود
أمسى يقيك بنفس قد حباك بها والجود بالنفس أقصى غاية الجود
نصبت للناس يعقوبا فقومهم كما الثِّقاف مقيم كلَّ تأويد
لو تبتغي مثلهُ في الناس كلهم طلبتَ ماليس في الدنيا بموجود

وقال أبو حنش حصين بن قيس ، وكان يصحب يعقوب ويخدمه :

يعقوب لاتبعد وجنبت الرَّدى فلأبكين زمانك الرطب الثرى
وأرى رجالا ينهشونك بعد ما أغنيتهم من فاقة كل الغنى
لو أن خيركَ كان شراً كله عند الذين عدَوْا عليك لما عدا

---

١) اى لم يفترش خيرا منها حاشا من يسمع كلامي وهو الخليفة وابوه ، كأنهما اوطأ من الجارية !

واستوزر المهدى بعد يعقوب بن داود الفيضَ بن أبى صالح ، واسم أبى صالح شيرَوَيه، وكان سخياً سرياً ، كثير الأفضال واسع الحال ، وكان متكبرا متجبراً مترفعا

فحكى أنه دخل على الرشيد فمدّ يده ليقبلها ! فلم ينكبّ عليها ، ورفعها إلى فيه فقبلها ، فقال الرشيد . لولا لؤمه وحمقه لقتلته ! وفيه يقول بعض الشعراء

صيرتُ ودّك إذ ظفرت به   بينى وبين نوائب الدهر

وذكر يعقوب بن إسحاق الكندى أنه سمع يحيى بن خالد ، وذكر الفيض ابن أبى صالح ، فقال : كان يعلم الناس الكرم .

وكان يحيى يهضم نفسه إذا استكثُر شىء يكون منه من الجود ، ويقول : فكيف لو رأيتم الفيض بن أبى صالح !

وقال[1] أبو الأسد التميمى ، واسمه نباتة من بنى حمان[2] يمدح الفيض بن أبى صالح :

ولائمة لامتك يافيض فى الندى   فقلت لها هل يقدح اللوم فى البحر
أرادت لتثنى الفيض عن عادة الندى   ومن ذا الذى يَثنى السحاب عن القطر!
مواقع جود الفيض فى كل بلدة   مواقع ماء المزن فى البلد القفر
كأنّ وفود الفيض حين تحملوا   إلى الفيض لاقوا عنده ليلة القدر

وحدثنا ولد على بن الحسين عنه : أن الفيض بن أبى صالح ، وأحمد بن الجنيد ، وجماعة من الكتاب والعمال ، خرجو من دار الخليفة ، منصرفين إلى منازلهم فى يوم وحل ، فتقدم الفيض ، وتلاه أحمد بن الجنيد ، فنضح دابة الفيض على ثياب أحمد بن الجنيد من الوحل

فقال أحمد للفيض : هذه والله مسايرة بغيضة ، ولا أدرى بأىّ حق وجب لك التقدم علينا ! فلم يجبه الفيض عن ذلك بشىء ، ووجه إليه عند مصيره إلى

١) فى الاصل فقال   ٢) فى الاصل حماد والصواب ما فى شرح القاموس

إلى منزله بمائة تخت ، فى كل تخت قميص وسراويل ومبطنة وطيلسان وعمامة أو شاشية ، وقال لرسوله قل له : وجب لنا التقدم عليك أنّ لنا مثل هذا ، نوجه به إليك ، عوضا مما أفسدناه من ثيابك ، فإن كان لك مثله ، فلك التقدم علينا ، وإلا فنحن أحق بالتقدم منك

وحدثنا ولد على بن الحسين عنه : أن داود كاتب أم جعفر حبس وكيلا لها وجب عليه من حساب رفعه عن ضياع تقلدها من ضياعها مائتا ألف درهم

فكتب الوكيل إلى عيسى بن داود وسهل بن الصباح المدائنى ، وكانا صديقين له يسألهما مسألة[1] داود فى أمره ، فركبا إليه ، فلقيهما الفيض فى طريقهما ، فسألهما عن مقصدهما فخبراه به ، فقال أتحبان أن أساعدكما ؟ فقالا نعم ، فصار معهما إلى داود ، فكلموه ، فكتب إلى أم جعفر بخبرهم ، وما قصدوا له ، فوقعت فى الرقعة إنه لا سبيل إلى إطلاقه إلا بأداء المال ، فأقرأهم داود الرقعة ، واعتذر إليهم ، فعزم عيسى على القيام ، فقال له الفيض بن أبى صالح : كأنا إنما جئنا لنؤكد حبس الرجل ! لا والله ، ولكنا نؤدى المال عنه ! ثم أخذ الدواة وكتب إلى وكيله ، فى حمل المال عن الرجل ، كتابا دفعه إلى داود كاتب أم جعفر ، وقال له : قد أزحنا علتك فى المال ، فادفع إلينا صاحبنا ، فكتب إلى أم جعفر بالخبر ، فوقعت : أنا أولى بهذه المكرمة من الفيض ، فاردد عليه كتابه ، وادفع إليه الرجل ، وأمره ألا يعاود إلى مثل ما كان منه ، ولم يكن الفيض يعرف الرجل ، وإنما ساعد عيسى وسهلا .

ووجدت بخط ميمون بن هارون : أن الفيض بن أبى صالح أولىَ رجلا عُرفا فشكر ، ثم كتب إليه الرجل يسأله حاجة ، فوقع على رقعته : أنت طالب مغنم ، وأنا دافع مغرم ، فإن تشكر مامضى ، فستعذر فيما بقى !

وقلد المهدى على بن يقطين الأزِمة على عمر بن بزيع ، وتضعضعت حال عمر

١) فى الأصل يسألهما مسألة أبى داود .

ابن بزيع ، وذلك فى سنة ثمان وستين ومائة ، فصار علىٌّ زِماما على الازمة ، وأحسب أن من ذكر أن المهدى أول من أحدث الأَزِمة انما أراد أزِمة على الأزمة .

وكان [على بن] يقطين من وجوه الدعاة ، وكان أبو الوزير عمر بن مطرف يتقلد للمهدى ديوانَ الخراج ، فاتصل بالمهدى أن أبا الوزير احتجم فى يوم الخميس فى ديوانه ، فأمر أن يجعل يومُ الخميس للكتاب يستريحون فيه ، وينظرون فى أمورهم ولا يحضرون الدواوين ، ويوم الجمعة للصلاة والعبادة ، فلم يزل الأمر جاريا على ذلك ، إلى أن كتب الفضلُ بن مروان للمعتصم ، فأزال ذلك الرسم ، وأخذَ الكتاب بالحضور يوم الخميس .

ايام موسى الهادى

وكانت وفاة المهدى ، والهادى مقيم بجُرجان ، وهارون مع المهدى فى عسكره ، فأنفذ هارون نصيراً مولاه على دوابّ البريد إلى الهادى بالخبر ، وأنفذ معه القضيب والبردة والخاتم ، وقَفَل إلى العراق ، وقد كان الربيع قام بأمر البيعة ببغداد ، إلى أن ورد موسى الهادى على دوابّ البريد ، ولا يعلم خليفةٌ ركب دوابّ البريد غيره ، فورد معه من كتّابه عبيد الله بن زياد بن أبى ليلى ومحمد بن جُميل ، وقلد الربيعَ وزارته وتدبيرَ أموره ، وما كان عمر بن بزيع يتولاه ، [من] دواوين الأَزِمّة

وقلد محمد بن جميل ديوان خراج العراقين ، وولى عبيد الله بن زياد بن أبى ليلى ديوان خراج الشأم وما يليها ، وولى عمر بن بزيع ديوان الرسائل .

وقلد على بن عيسى بن ماهان ديوانَ الجند ، إلى ما كان يتولاه من حجابته ، ثم صرف الربيعَ عن الوزارة ، وقلدها إبراهيمَ بن ذكوان الحرّانى الأعور ، وأقرّ الربيع على ديوان الأَزِمّة ، فلم يزل عليها إلى أن توفى فى سنة تسع وستين

ومائة ، وكانت وفاته وسنه ثمان وخمسون سنة ، وصلى عليه الرشيد وهو ولىّ عهد ، وقلد موسى ديوان الأزمّة ابراهيم بن ذكوانَ الحرانى أيضا .

وكان إبراهيم خاصا بالمهدىّ ، فلما أنفذ المهدىُّ موسى إلى جرجان ، أنفذ معه إبراهيم الحرانى ، فخصّ بموسى ، ولطفَ موْقعه منه ، واتصل بالمهدى عنه أشياء ، يزيد فيها عليه أعداؤه ويكثرون ، فكتب إلى موسى فى حمله إليه ، فضنّ به ، ودافع عنه ، وتعلل فى حمْله ، فكتب : إن لم تحمله خلعتك من العهد ، وأسقطت منزلتك ، ونلتك بكل ما تكره ، فلم يجد موسى بُداً من حمله ، فحمله مع بعض خدمه مكرّماً مرفهاً ، وقال له : إذا دنوتَ من محل المهدىّ فقيّده ، واحمله فى مَحمل بغير وطاء ، وأدخله إليه بهذه الصورة ، فامتثل الخادم ما أمره به فى ذلك .

واتفق أن ورد العسكر والمهدى يريد الركوب ، وهو إذذاك بالرّذوالراق[1] ، فبصر بالموكب ، فسأل عنه ، فقيل : خادم موسى ومعه إبراهيم الحرّانى ، ، فقال : وما حاجتنا إلى الصيد ، وهل صيد أطيب من صيد إبراهيم ! علىَّ به

قال ابراهيم فأُدنيت منه وهو على ظهر فرسه ، فقال : إبراهيم والله لأقتلنك ، ثم والله لأَقتلنك ! ثم والله لأقتلنك اُمض به يا خادم إلى المِضرب إلى أن أنصرف ، فصار بى إلى المِضرب ، وقد يئست من نفسى ، ففزعت إلى الله جل وعزّ والدعاء والصلاة . وانصرف المهدى ، فأكل من اللوْزينج المسموم ، المشهور خبره ، فمات من وقته ، ويقال من الكمثرى ، وتخلصت .

وقلد إبراهيمُ الحرانىّ إسماعيلَ بن صُبيح ديوانَ زمام الشأم وما يليها ، بشفاعة يحيى بن خالد إليه ، لأَن إسماعيل كان كاتبه : فأحب أن يضعه بموضع

١) فى ياقوت : الرذ قرية بماسبذان قرب البندنيجين ، بها قبر امير المؤمنين المهدى بن منصور ، وفى التنبيه والاشراف (ص ٢٩٦) إخراجنا : وتوفى (أى المهدى) بالرذوالراق بأرض ماسبذان من الجبال

يستعلم منه ما يريد ؛ فرفع إلى موسى الخبرُ أن يحيى شفع إلى إبراهيم الحرانى ، حتى استكتب إسماعيل ، فهو ينقل الأخبار ، فيؤديها إلى هارون

وكان إسماعيل بن صبيح يكتب قبل يحيى لأبى عبيد الله ، وعرف يحيى الخبر فبادر بالمشورة على إسماعيل بالخروج إلى حرّان ، فخرج إليها ، واستخلف إبراهيمُ يحيى بن سليمان على جميع الأَزمة ، فلما خاطبه موسى بسببه ، أعلمه أنه بحرّان .

وتوفى عبيد الله[1] بن زياد بن أبى ليلى فى سنة تسع وستين ومائة ، فقلد عمله محمد بن جميل إلى ما كان يتقلده ، وأمر موسى يحيى بن خالد أن يقوم بأمر هارون أخيه ، وأقره على كتابته ، وعلى تدبير الأَعمال التى كانت إليه .

وكان ليقطين بن موسى كاتبٌ من أهل النهروان ، يعرف بأزداقفاذار[2] ويكنى أبا خالد .

فحكى الجاحظ فى كتاب (البيان والتبيين) أن لُكنة أزداقفاذار[3] كانت لكنة نبطية قبيحة ، وأنه أملّ على كاتب له « والهاصل ألف كر » فكتبها الكاتب بالهاء على لفظه ، فأنكر ذلك ، فلم يفهم عنه الكاتب ، فلما رأى اجتماعهما على الجهل . قال له : أنت لاتهسن تكتب ، وأنا لا أهسن أملى ، فاكتب : الجاصل ألف كر ، فكتبها بالجيم معجمة .

وحكى أن الهادى سخط على بعض كتابه ، ولم يسمّ لنا الكاتب ، فجعل يقرعه بذنوبه ، ويتهدده ويتوعده ، فقال له الرجل : يا أمير المؤمنين ، إن اعتذارى فيما تقرعنى به ردٌّ عليك ، وإقرارى بما بلغك يوجب ذنبا علىَّ لم أجنه ، ولكنى أقول :

---

١) فى الاصل عبد الله وقد ذكره فيما سبق عبيد الله

٢) فى الاصل يزداقفاذ

٣) فى الاصل أزداقفاذ وفى البيان والتبيين ازدانقاذار

فإن كنت ترجو فى العقوبة راحة[1]   فلا تزهدنْ عند المعافاة فى الأجر

فصفح عنه وأحسن إليه .

ثم تنكر موسى لهارون الرشيد ، وعمل على خلعه وتقليد ابنه جعفر بن موسى ، وهو طفل ، فعزم هارون على إجابته ، فمنعه يحيى بن خالد ، فبذل له موسى الهنىّ والمرىّ[2] من أعمال الرقّة ، فقال هارون ليحيى : اذا نزلت على الهنىّ والمرىّ وخلوت بابنة عمى - يعنى أمّ جعفر - وكان يجدُ بها وجداً شديداً ، فما أريد شيئا ، فقال يحيى : إنها الخلافة ! ولعلّ ماتقدّر أنه يبقي لك لايبقي ، ولم يزل به حتى ثبته . فدعا موسى يوما بيحيى فلما دخل عليه أكرمه ، ورفق به ، فقال له : أنت الذى يقول فيك القائل :

لو يمسّ البخيلُ راحة يحيى   لسخت كفه ببذل النوال

فقال له : تلك راحتك يا أمير المؤمنين ، وقبل يده ورجله ، فأمر له بإقطاع ووصله بعشرين ألف دينار ، ثم ناظره فى خلع هارون ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، إنك إن حملت الناس على نكث الأيمان ، هانت عليهم أيمانهم ، وجرّأتهم على حلّ العقود التى تعقد عليهم ، ولو تركت الأمر فى بيعة أخيك بحاله ، وبويع لجعفر من بعده ، كان ذلك أوكد لبيعته ، فقال له : صدقت ونصحت . وأنا أنظر فى هذا ، ثم صرفه . ثم لم تطب نفسه ، فدعا بيحيى لحبسه فتلطف فى أن يدعو به ويُخليه ، ففعل ذلك ، فلما خلا به قال : يا أمير المؤمنين ، أرأيت إن كان ما نعوذ بالله منه قبل بلوغ جعفر ، وقد خلعت هارون ، هل تتم

---

١) فى الاصل رحمة ، وهو خطأ والتصحيح عن مروج الذهب

٢) الهنى والمرى نهران بازاء الرقة والرافقة حفرهما هشام بن عبدالملك واحدث فيهما واسط الرقة قال ياقوت ، ثم ان تلك الضيعة أعنى الهنى والمرى انتقلت الى أم جعفر فزادت فى عمارتها ، قال جرير :

أوتيت من جذب الفرات جواريا   منها الهنى وسايح فى قرقرى

الخلافة لمن لم يبلغ الحلم ؟ قال : لا ، قال فدع هذا الأمر حتى يبلغ جعفر ، فإذا بلّغنا الله ذلك ، فعليّ أن آخذ بيد هارون حتى يبايعه عفوا ، والله والله يا أمير المؤمنين ، فإنك إن فعلت هذا ، وحدث ما نعوذ [بالله] منه ، وثب على هذا الأمر أكابر أهلك ، وخرج الأمر عن ولد أبيك ! ووالله لو لم يعقد المهدى لهارون ، لوجب أن تعقد له ، ليكون فى بنى أبيك ! فشكر منه هذا القول ، وأطلقه .

وأصيب إبراهيم الحرانى بابن له ، فجزع عليه ، فعزاه موسى الهادى عنه ، فقال له : سرّك وهو بلية وفتنة ، وحزنك وهو ثواب ورحمة .

ورأى رجل من الموالى فى أيام الهادى - ويحيى بن خالد على غاية من الخوف والوجل منه بسبب هارون - ليحيى رؤيا سارة ، فشاور أباه فى تعريفه إياها ، فأشار عليه أن لا يفعل ، فعصى أباه ، وقصد يحيى ، فاستأذن عليه ، فقص الرؤيا ، قال : فلما فرغت من الرؤيا ، قال : يابنى ، ما أحسنَ بالرجل أن يلتمس الرزق من أحسن الوجوه ! وأقبح به أن يلتمس الرزق بهذا وما أشبهه ! قال : فخرجت من عنده وقد سقط وجهى ، فأتيت أبى فأعلمته الخبر ، فقال لى : بعداً وسحقاً ! نصحت لك فلم تقبل . قال : وأقبلت أنا وأبى نشتمه ونسبه ، فلم يمض إلا مديدة يسيرة ، حتى أفضى الامر إلى الرشيد ، وبلغ يحيى ما بلغ . قال : فبينا أنا واقف يوما مر بى موكبه ، فبصر بى . فوجه فأحضرنى ، فدخلت إليه وهو على كرسى لم ينزع ثياب ركوبه . فقال لى : أين غبت عنا ؟ فقلت له : أصلحك الله . ما لقيت منك ما يدعو إلى إتيانك ! فقال : ويحك ! إنك أتيتنا ونحن فى حال نتخوف الجدران أن تسىء بنا . والاخوانَ فيها أن يحتالوا علينا . فلم يكن الرأى إلا ما أجبناك به . وما فارقتنا العناية بك . والإيجاب لحقك . ثم أمر له بعشرة آلاف درهم . وكتب إلى سليمان بن راشد . وكان عامله بأرمينية . فأمر له بيغال وخلع . قال : فصرت أنا وأبى وجميع أهلى ندعوا له ، بدلا مما كنا نشتمه . وقصدت سليمان بن راشد وقد قدّم اليه يحيى الخبر ، فتلقانى بقائد من قوّاده

فى جماعة من الجند . فلما وصلت إليه ، وجه إلى ببغال ودواب وتخوت ثياب ، ثم غدوت إلى سليمان ، فقال : قد كتب إلى أبو على أعزه الله بحالك عنده ، وها هنا بشرى . وبشرى(١) من أجلّ أعمالنا . فإن شئت أن تخرج إليها فاخرج ، وإن شئت فها هنا من يبذل عنها خمسمائة ألف درهم . قال : فقلت تعجّل ما يبذل ها هنا أحب إلى ، وخرجت من عنده ، فلم ألبث إلى أن وجه إلى من وفانى المال ، ووهب لى سليمان من ماله خمسين ألف درهم ، فقبضت المال ، وانصرفت إلى حضرة يحيى ، فوجهت إليه ببعض تلك الطرف ، فأبى أن يقبلها وتبسم فى وجهى ، وقال : إنا لم نوجهك لننتفع بك ، وإنما وجهناك لننفعك ، وقد وفر الله عليك مالك ، وسيتصل معروفنا عندك ، فلزمنا . قال : فلزمته ، فلم تفرق الأيام بيننا حتى كسبت به عشرين ألف ألف درهم .

وذكر ابن دأب ، وكان خاصا بموسى : أنه دخل عليه يوما ، وهو على فراش ، قال : فجلس وعليه قميص ، محلولة أزراره ، محمرة عيناه ، فعلمت أنه كان أحيا ليلته ، فسلمت ، فرد السلام ، وأمرنى بالجلوس ، ثم قال : هل تروى فى السقى شيئا ؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين ، كان إخوة من بنى كنانة يشربون الخمر من الشأم ، وينتجعونها ويجتمعون عليها ، فمات أحدهم فدفنوه ، فكانوا يجتمعون حول قبره ويشربون ، ويصبون على قبره قدحه ، فقال واحد منهم :

لا تصرّد هامه من شربها ... [و]اُسقه الخمر وإن كان قُبر(٢)

اُسق أوصالاً وهاماً وصدى ... ناشغا ينبع مثل المنهمر(٣)

كان حياً فهوى فيمن هوى ... كل عود ذو فنون ينكسر(٤)

---

١) فى معجم البلدان لياقوت : بشرى بوزن حبلى اسم قرية

٢) فى الأغانى ج ١٤ ص ٤٢ هامة من شربها ، والواو فى واسقه زيادة عنه

٣) هذا البيت لم يرد فى الأغانى ورواه الطبرى ناشغا يقشع مثل المبتكر

٤) فى الأغانى كان حرا . . . . كل عود ذى شعوب ينكسر

فقال : أحسنت ، وأمر لى بثلاثين ألف دينار ، ووقع إلى إبراهيم بن ذكوان الحرانى ، فصرت إلى ابراهيم ، فأوصلت إليه التوقيع ، فأكثر التعجب ، فقلت : مايعجبك من هذا ؟ أتضع أمير المؤمنين أن يصل بمثلها ؟ قال : لا . قلت أفتضعنى عن أن أستحق مثلها ؟ قال : لا ، فهل لك فى عشرة آلاف دينار . فقلت : ولِمَ أنقصت ؟ هل غبنته فأنقصت الربح ؟ لا ، والله ما آخذ إلا ما أمر لى به ، وتراجعنا الكلام ببعض الغلظة ، فخرقت التوقيع وقلت : والله لا ذكرت ذلك حتى يذكره ، فو الله ما ذكره ، ولا أحدث شيئا ، ومات ، فذهب المال منى .

وذكر مخارق عن إبراهيم الموصلى : أنه كان مع الهادى يوماً ، وهو يتصيد ، وانقطع الوتر ، فاغتمّ لذلك ، وتطير منه ، وضجر ، فنزل عمر بن بزيع ، وكان إذ ذاك يكتب له ، فوقف بين يديه ، ثم قبل الأرض ، وحمد الله ، فقال له موسى : أىّ موقف حمد هذا ؟ فقال له : الحمد لله على أن كانت العين بالقوس ولم تكن بأمير المؤمنين ، فسُرِّىَ عنه ، وحسن موقع ما كان من عمر ، ووصله

وكان الهادى يشتهى سماع قصيدة ابن قيس الرقيات التى أولها :

عادله من كثيرةَ الطربُ ... فعينه بالدموع تنسكب

ويستحسن رويها ، ويحب أن يمدح بمثلها ، فقال عمر بن بزيع لسلم الخاسر ذلك ، وأمره أن يقول فى نحوها شيئا يمدحه به ، ويصفه فيه ، فقال سلم :

يممت موسى الأمام مرتغبا ... أرجو نداه والخير مطّلب

فرْعَ قريش عزاً ومكرمة ... وأعظم الناس حين ينتسب (١)

لولا هداكم وفضل أوّلكم ... لم تدر ما أصلُ دينها العرب

فعرضها عمر بن بزيع على الهادى ، فاستحسنها ، ووصله بثلاثمائة ألف درهم ، وقال : إنما وفرت صلته للبيت الأَخير .

وكان المهدى وهب للرشيد خاتماً نفيساً ، له قيمة جليلة ، فلما استخلف

---

١) فى الأصل فرعي والصواب ما ذكرناه

موسى ، وانحرف عن هارون ؛ لامتناعه من خلع نفسه ، طلب الخاتم منه فمنعه عنه ، فأحضر يحيى بن خالد ، فقال له : إن لم يحضرنى الخاتم قتلتك ، وكان فظاً قاسياً غير مأمون على وفاء بوعد ، فصار إلى هارون وهو فى قصره بالخلد ، فأشار عليه أن يدفع الخاتم إليه ، وتلطف له ، ورفق به ، فأقام على الامتناع ، وألح يحيى ، وعرّفه ما توعده به ، فقال له ، فأنا أصير به إليه ، وركب من الخلد يريد عيساباذ ، وموسى مقيم بها ، فلما صار إلى الجسر ، وتوسط دجلة ، رمى الخاتم فيها ، وانصرف ، فقال : يفعل الآن ما يشاء ، فبلغ ذلك موسى ، فاغتاظ عليه ، وعلم أنه لا ذنب ليحيى ، وأنه قد اجتهد وناصح ، فلم يطعه هارون ، ولم يعرض له .

ولما توفى موسى واستخلف هارون ، ركب وفى يده خاتم لا قدر له ، فلما صار إلى الموضع الذى رمى بذلك الخاتم فيه ، رمى بالخاتم الذى كان معه ، ووقف مكانه . وأمر بإحضار الغاصة ، فلم يزالوا يطلبون حتى وجد الخاتم الأول سليما وكان يتختم به . وتفاءل بوجوده ، وكان أحب خواتيمه إليه ، وكان أكثر ما يلبس منها هو .

ثم حرّك موسى ، واجتمع إليه جماعة من القواد ، منهم المعروف بأبى هريرة القائد ، واسمه محمد بن فروخ ، ومنهم يزيد بن مزيد ، وعبد الله بن مالك ، وعلىّ بن يقطين ، فطالبوا بأن يخلع هارون ، ويبايع جعفرا ابنه ، تقربا إليه ، ورغبة فيما يصل إليهم من الإعطاء . وكان يحيى يعلله ويدافعه .

واعتل موسى علته التى مات فيها ، فدعا يحيى ليلة من الليالى ، وقال له : قد أفسدت علىّ أخى والله لأقتلنك ! فقال إبراهيم بن ذكوان الحرانى : يا أمير المؤمنين ، ليحيى عندى أياد ، أحب أن أكافئه عليها . فأحب أن تهبه لى الليلة ، فقال : وما الذى لك فى هذا ، وأنا على قتله ! قال فتهبه لى الليلة وتحييه فيها . وأنت فى غد أعلم ، فأجابه إلى ذلك وأمر بحبسه . قال يحيى : فحبست وقد أيقنت

بالموت، ويئست من نفسى ، فأنا مفكر فى ليلتى ، وما يجيئنى الغمض، حتى سمعت صوت القفل ، فقدّرت أن الحرانى لما انصرف ، دعانى موسى ليقتلنى ، فاذا بخادم يقول لى : السيدة تريدك . فأتيت الخيزُرانَ ، فقالت لى : إن هـذا الرجل قد مات ، ونحن نساء ، فادخل فأصلح من أمره ، فدخلت ، فإذا بأمة العزيز تبكى عند رأسه وهو ميت ، فغمضته ، وانطلقت إلى الخلد أريد الرشيد ، فلما وصلت إلى داره وجدته نائما ، وتلقانى خادم ، فقال لى : ولدت مرَاجل غلاما ، فأتيت الرشيد فأنبهته ، فسرَّ بى(١) لما رآنى ، وقال لى ما الخبر ؟ فقلت له : لتهنك الخلافة ، وغلام من مراجل ، وكان عبد الله المأمون . وكانت ليلة مات فيها خليفة ، وولى خليفة ، ووُلد خليفة ، وذلك فى سنة سبعين ومائة .

ودعا يحيى بيوسف بن القاسم بن صبيح الكاتب ، فأمره أن يكتب بالخبر إلى الآفاق ففعل ذلك

قال إسحاق بن إبراهيم الموصلى : قال لى الهـادى يوما : غننى جنسا من الغناء أطرب له : ولك حكمك . فغناه :

وإنى لتعرونى لذكراك فترة (٢) كما انتفض العصفور بلَّـلَـه القطرُ

قال : أحسنت والله ، وضرب بيده إلى جيب دُرّاعته فحطه ذراعا ، وقال له : زِدْنى ، فغناه :

فيا حبها زدنى جوًى كلَّ ليلة ويا سلوة الأيام موعدُك الحشر

فضرب بيده إلى جيب دُرّاعته ، فحطها ذراعا آخر ، وقال : والله زدنى ، فغناه :

هجرتك حتى قيل لا يعرف الهوى وزُرْتك حتى قيل ليس صبرُ

فقال : أحسنت والله . وحط جميع دراعته ، وقال لى حكمك ! لله أبوك وأمك . فما تريد ؟ فقلت له : أريد عينَ مرْوان بالمدينة ، فدارت عيناه فى

١) فى الأصل فسر لى ولعل ما أثبته هو الصواب
٢) البيت لأبى صخر الهذلى والرواية المشهورة لذكراك هزة